أحمد عطية الله

برلين

المجلس
الأعلى
للثقافة

البلاد كالناس، منهم الحبيب الودود، ومنهم من تعرفه لتنساه، ومنهم من تمجه وتمج الحياة من أجله!

وهكذا البلاد، منها القريب إلى النفس الذى ينعطف إليك منذ أن تطأ رحابه، وتتركه مصهور القلب، تفكر متى تعود إلى أحضانه.

ومن بينها ما تقضى بين جنباته الأيام والشهور، ولا يخلف فى نفسك أثرًا . فلا أنت تحنُّ إليه، ولا أنت تزور عنه. ومن البلاد ما لا تجد فى صدرك سعة لقبوله ...

وبرلين لها أحباؤها وعشاقها، وأنا من بين هؤلاء الأحباء، فقد هبطتها ضاربًا فى أرض الله، ففتَحت لى صدرها، فسكنتُ إليها.

وتركتها بعد أن طرقت فيها كل باب، وقضيت أيامها منذ الصباح الأول، وسهرت ليلها حتى الهزيع الأخير.



برلين

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عطية الله، أحمد
برلين/ أحمد عطية عطا الله
القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٧
٣٢٤ ص؛ ٢٠ سم.
١- برلين - وصف ورحلات .
٢- ألمانيا - وصف ورحلات .
٣ - الرحلات فى الأدب العربى
(أ) العنوان ٩١٤,٣١٥٥

رقم الإيداع ٢٠١٠/٧٨٣٤
الترقيم الدولى 3 - 030 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المجلس الأعلى للثقافة.
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤ .
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.
www.scc.gov.eg

المجلس الأعلى للثقافة



(أحمد عطية الله)



2017

فصول الكتاب



مقدمة

ليس هذا الكتاب دليلاً لبرلين ، كما لم يكن كتابى لندن دليلاً للندن ، إذ إن كليهما خلو مما تتميز به كتب الأدلة من الوصف الممسوخ ومن العد والإحصاء .

ففى هذا الكتاب سيجد القارئ صورة للعاصمة الألمانية، صورة لها كما عرفتها ، وقد عرفت برلين فى أكثر من صورة واحدة ، تمثل كل منها عصراً من عصورها ، وإن صار بعضها اليوم أثرًا وتاريخًا ليس له وجود، إلا أنها جميعًا مكملة متممة لبعضها .

وقد يلتمس القارئ فى ثنايا هذه الكتب مسحة من التعصب ، ولكن أنّى لمؤلف أن يكتب دون عاطفة تأخذ عليه فى بعض الأحيان نواحى تفكيره وتغرقه فى شىء من الغلو فى تصوير الحقيقة . وإن تلمس القارئ هذه المسحة من الغلو ، فليس له أن يأخذ المؤلف بجريرة التعصب المقصود فهو أبعد ما يكون عنه ، وآخر ما يتهم به .

ليس لى أن أقرر أنه بين هذه الصحائف الثلاثمائة أو تزيد ، سيجد القارئ صورة كاملة لبرلين، إذا كنت فى وضع هذا الكتاب كالمصور

الذى يوزع ألوانه بحسب العواطف التى تجيش فى صدره ، فيبرزها فى غير وضعها الطبيعى ، فهو لا يرى بعينه بل بقلبه .

ثم لظروف خاصة اقتضبت فى بعض فصول هذا الكتاب ما سمح الوقت ، ولكنه اقتضاب لا ينسخ هذه الصورة ولا يقلل من شأنها ولا يضعف من جوهرها .

ولم أنتحِ فى ترتيب فصول هذا الكتاب نظاماً علميًا ثقيلاً ، بيد أنه يحسن بالقارئ أن يتلو الفصول الأولى ليستخلص منها فكرة إجمالية عامة عن برلين ، وله بعد ذلك الخيرة فيما تحلو له قراءته من هذه الفصول .

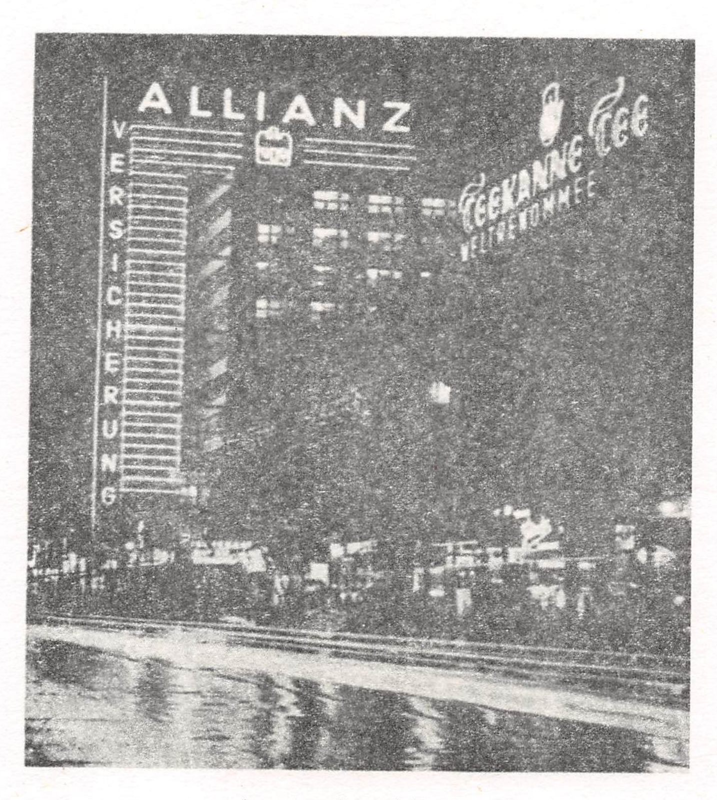
وليس لى فى هذه المقدمة العجلى إلا أن أشكر حضرة صاحب السعادة حسن نشأت باشا وزيرنا المفوض فى برلين ، لتقديمي إلى بعض أولى الشأن فى العاصمة الألمانية مما كان له أثره فى كتابة بعض فصول هذا الكتاب .

وإننى لشاكر للصديق الفاضل الهرفون كوس فضله ، ولكثير من الرفاق الذين قضيت وإياهم أياماً ممتعة فى برلين ، أذكر الدكتور زناتى والدكتور حقى ، وقد نزح كلاهما عن المدينة التى جمعتنى بهما ، وأذكر رفيق المدرسة الأستاذ القونى ، كما إننى ذاكر فضل الأستاذ محمود الدسوقى والأستاذ كمال الدين جلال .

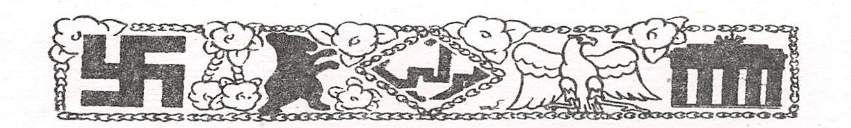
هذه مقدمة سريعة ، وكلمة شكر واجبة ، ، ،



أمس واليوم



سحر الظلام والنور فى برلين



البلاد كالناس . منهم الحبيب الودود، ومنهم من تعرفه لتنساه، ومنهم من تمجه وتمج الحياة من أجله!

وهكذا البلاد، منها القريب إلى النفس، الذى ينعطف إليك منذ أن تطأ رحابه، وتتركه مصهور القلب، تفكر متى تعود إلى أحضانه .

ومن بينها ما تقضى بين جنباته الأيام والشهور، ولا يخلف فى نفسك أثرًا . فلا أنت تحن إليه، ولا أنت تزور عنه . ومن البلاد ما لا تجد فى صدرك سعة لقبوله ...

وبرلين لها أحباؤها وعشاقها، وأنا من بين هؤلاء الأحباء، فقد هبطتها ضاربًا فى أرض الله، ففتحت لى صدرها، فسكنت إليها .

وتركتها بعد أن طرقت فيها كل باب، وقضيت أيامها منذ الصباح الأول وسهرت ليلها حتى الهزيع الأخير .

ثم عدت إليها من جديد، أستعيد الذكريات، وأبعث الماضى الذى صار أحلامًا، وأثبت ما محاه كر الأيام، فوجدتها عند عهدى بها ..

وقليل من البلاد مثل برلين!

* * *

وليست برلين مثل لندن، وما هى مثل باريس، ولكنها مزيج من هذى ومن تلك، عظيمة دون جفوة أو بطر، ومرحة دون قحة أو إسفاف، فهى لذلك لا تضجر ولا تمل. فهى ليست عاكفة على العمل لا تأبه لزائرها ولا تغرقه فى طوفانها، ولا هى بالراقصة التى توترت أعصابها، والتى يخرج الزائر من لدنها بليد الحس، خامد النفس بعد ثورانها .

* * *

وأنك لتعجب وقد انتصف الليل فى شارع كورفر ستندام، وأنت تسير تدافع مئات السائرين، وتشق طريقك بينهم شقًا ؛ إنك لتعجب حين تبحث عن مقعد شاغر فى عشرات المطاعم والمشارب المتلاصقة فى هذا الشارع وفى غيره، تبحث وقد لا تجد ..

وقد تستيقظ فى الساعة الباكرة، لتعجب حين تجد برلين مستيقظة مثلك؛ وتدخل أحد مقاهى برلين الفاخرة لتتناول طعام إفطارك، فلا تجد فيها مسحة الحزن التى تسود المراقص الساهرة إذا طرقتها فى الصباح الباكر، ولا تجد فيها الوجوه التى أضناها السهر، وأجهدها الليل، تشعر بأن برلين قد نامت ملء جفونها .

وإن هذه الحياة المزدوجة. التى يعيشها أهل برلين، تجعل برلين



برلين العاصمة

فاتنــة رائعة فى عين الغريب، تجعل برلين فريدة بين عواصم أوربا .

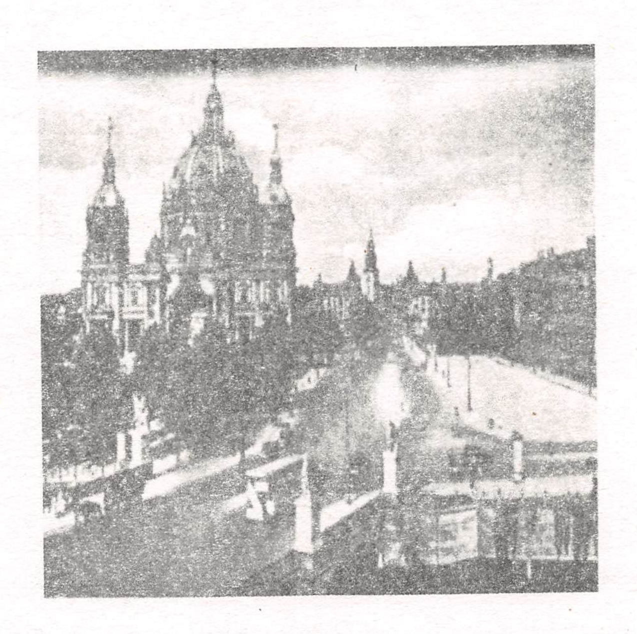
وبرلين تنفرد بين هذه العواصم الأوربية بأكثر من هذا ؛ وليس من يعرف سر هذا التفرد إلا من خبر باريس ولندن، وزار بركسل وروما، فمثل هذا الزائر الجوال، يعرف إن برلين تجمع ما تفتقده هذه العواصم لكمالها .

فطرقات برلين الواسعة الرحبة ذات صفوف الأشجار التى تمتد على جانبيـها وفى قلبـها، تجعل بولغـارات باريس لا شىء ؛ وبرلين بميادينها وحدائقها وبتماثيلها تجعل لندن جرداء ؛ وبرلين بمقاهيها ومطاعمها وبمراقصها ومغانيها تجعل رومة صامتة مضنية .

وفى كل ما تجده فى برلين ترى مسحة التفنن والابتكار، والنزعة إلى التفرد .

* * *

ولو كانت برلين على ضفاف الراين لكانت خالدة؛ فالاسبرى ليس بالذى يأخذ مكان التيمس أو السين، فحرم بذلك برلين من متعة الماء الفياض، فقد يقضى الزائر لبرلين أياماً قبل أن يعثر على هذا الجدول المسور، الذى وقد حرمته الطبيعة من كل جمال، صار لا يحمل على ظهره إلا الخشب والفحم، وصناديق الخضر والفاكهة، وهو مع ذلك يتشــعب فى كل مكان، ويتعطف فى كل ناحيـة، حيث المصانع والمخازن .



على الاسبرى ..

وليس فى أوربا الألمانيـة مـا لا تجـده فى برلين، اللهم إلا جبـالهـا الباسقة، و أنهارها الدافقة، وليس لڤيينا أن تتيه على برلين بمراقصها وبأنها مهد الموسيقى، ففى كل مقهى ومطعم وفندق فى برلين موسيقى لا تنقطع نغماتها، وما هى كتلك التى تسمعها فى لندن، الموسيقى الراقصة المتكررة، بل تلك الموسيقى الكلاسيكية، التى لا تستريح إليها إلا الأذن التى تنزع إلى الفن الكامل .

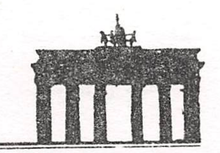
وليس فى ليبزج من المكاتب – وهى مركز الطباعة والنشر – بقدر ما تجده فى برلين، وليس فى ميونخ من مشارب الجعة الراقصة ما يفوق ما فى برلين، وليست بحيرات فانزى وأحراش كلادو، وحدائق بوتسدام مما يسوّر برلين، مما يقل فتنة عن بودابست أو الغابة السوداء .

* * *

ثم نترك هذا جميعًا، لنجد برلين مركز الثقافة والدراسات العالية.

برلين بمتاحفها ومعارضها ومكاتبها، ومعاهدها، ثم بمصانعها ومعاملها العاصمة الرزينة، والمدينة التى كأنها لا يعنيها إلا العمل المضنى الذى لا ينقطع .

وبين هذه النواحى المتعددة لبرلين، لا يجد الزائر المتمهل أو الطارق العجل، إلا كل ما يبحث لاقتناصه .



رحلتى الأولى

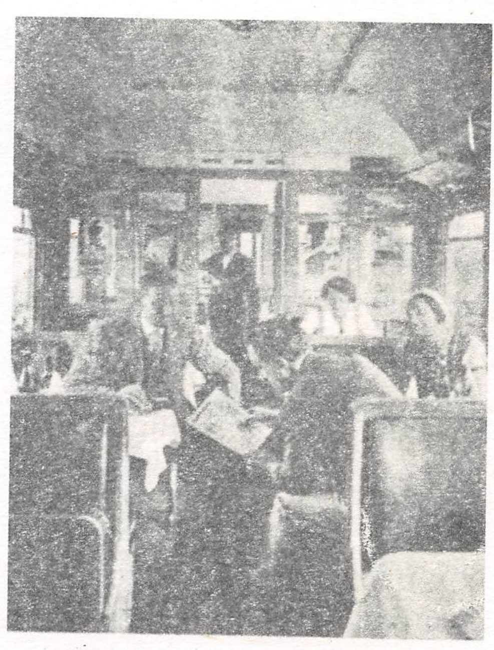
الساعة السابعة أو بعد، والقطار يسير فى جوٍ ندى كثير الضباب يذكر المسافر الإنجليزى بالصباح الباكر فى لندن .

وكان كل من فى القطار على تمام الأهبة لمغادرته، بعد رحلة طويلة مجهدة، وكان كل من فى القطار يستعرض ما يمر بنا من قرى وجداول ومزارع أخفى الضباب جانبًا منها، وكان كل من فى القطار ينتظر بلهفة وشغف الوصول إلى برلين : فهم إما أجنبيًا زائرًا أو ألمانياً عائدًا إلى بلده بعدما نزح إلى أرض الله يدأب ويعمل فى سبيل وطنه .

وأنا كنت أيضًا أستعرض ما يدور حولنا مع الآخرين، وكنت أيضًا أعد الدقائق للوصول فلم يبقَ للصبر والجلد مجال، وقد نسيت قصة ليلتى الماضية، ونسيت مرضى واشتدت بى رغبة فى مصارعة إعيائى والتغلب على روح عدم الاكتراث التى يولدها المرض فى النفس .

إذ إن لبرلين ذكرى تتردد فى صدرى أقرب إلى خيال المتخيلين، ذكرى يرجع تاريخها إلى عهد الطفولة، وإلى عهد الحرب الطاحنة وهى التى ولدت فى نفس كل مصرى إعجابًا خاصًا بكل ما هو ألمانى، وجعلت ألمانيا مهدًا للبطولة والنبوغ والتضحية . وها هى برلين نبلغها

بعد دقائق، برلين التى كانت مصدر الفزع من بضع سنين، والتى وقف أبناؤها أمام أوربا بل أمام العالم أجمع يناضلون ويسقطون حتى لم يبقَ مجالاً للنضال . ولم يتبقَ حتى نفوس للفناء والعدم .



عربة الطعام مفتوحة لجميع درجات القطار

وصلنا إلى أول محطة من محطات برلين، وكانت شارلتنبرج، فسألنى صديقى الألمانى عن المحطة التى أرغب فى مغادرة القطار عندها . ولكن لماذا ؟ هل من أحد ينتظر وصولى ؟ كلا ! وهل من محطة أفضل عندى من أخرى؟ لا! فكلها فى ذلك سواء، وأنا فى القطار حتى المحطة التى أجد فيها زحاماً أكثر، أو التى أجد فيها وجوهاً أصبح، وهذه وحدها التى تحوز عندى تفضيلاً وقبولاً ! وهكذا كان.

* * *

بإحدى القطارات المختلطة غادرت هولندا - بعد زورة قصيرة - إلى ألمانيا، وقد عبرنا بحر الشمال الهادئ الساكن من الشواطئ الإنجليزية .

كان الوقت صيفًا، وقد تركنا ميناء فلشنج فى الساعة الثامنة والشمس ما زالت ساطعة مشرقة. وكان القطار مقسمًا إلى أجزاء بعضها يسير إلى جنوبى هولندا وجانب يذهب شمالاً إلى روتردام، وبعضها إلى شمالى ألمانيا، وآخر إلى هانوفر وبرلين . لذلك كان خليطًا من المركبات الصغيرة والكبيرة، الهولندية والألمانية .

ذهبت إلى المحطة قبل موعد القطار بساعة كاملة، ولم أكن فى ذلك محافظًا على ما عاهدت عليه نفسى فى انتظار القطار، ولكننى لم أجد فى هذه المدينة الصغيرة ما يقتل الوقت ويثير متعة خاصة، فلم أجد بدًا من الذهاب إلى القطار لأبحث عن ركن هادئ أقر فيه ليلة كاملة، وهكذا كان، فقد احتللت أحد الأركان بأمتعتى القليلة وتركتها إلى مقصف المحطة لتناول كأس من اللبن .

رجعت والقطار على أهبة السير، فبحثت عن الديوان الذى خلفت فيه أمتعتى فلم أجده، وعاودت الكرة مدققًا فاحصًا، فإذا بحقائبى منزوية فى غير مكانها تحت مقعد من المقاعد، ووجدت ذلك الديوان الذى تركته خاليًا يموج بنحو عشرة من رجال ونساء، ملأوا رفوفه وأرضه

والطرقات المجاورة بأمتعة وحقائب لا عدد لها ؛ صغيرة وكبيرة مستديرة ومربعة، زرقاء وحمراء، ولا أظن أنى قد رأيت مكاناً تجمعت فيه صنوف الحقائب وألوانها كما تجمعت فى ذلك المكان .

* * *

كان موقف وكانت منافشة وحوار ! موقف شعر أصحابنا بحرجه، ومناقشة وحوار بالإنكليزية. أما أصحابنا فكانوا فرقة موسيقية أمريكية فى طريقها من نيويورك إلى فرسوفيا عاصمة بولندا .

كنت مريضاً فلذلك لم أقبل حواراً ولا مجادلة، ولم أتحول عن ركنى العزيز، ولم أقبل فيه مساومةً ولا تفريطاً .

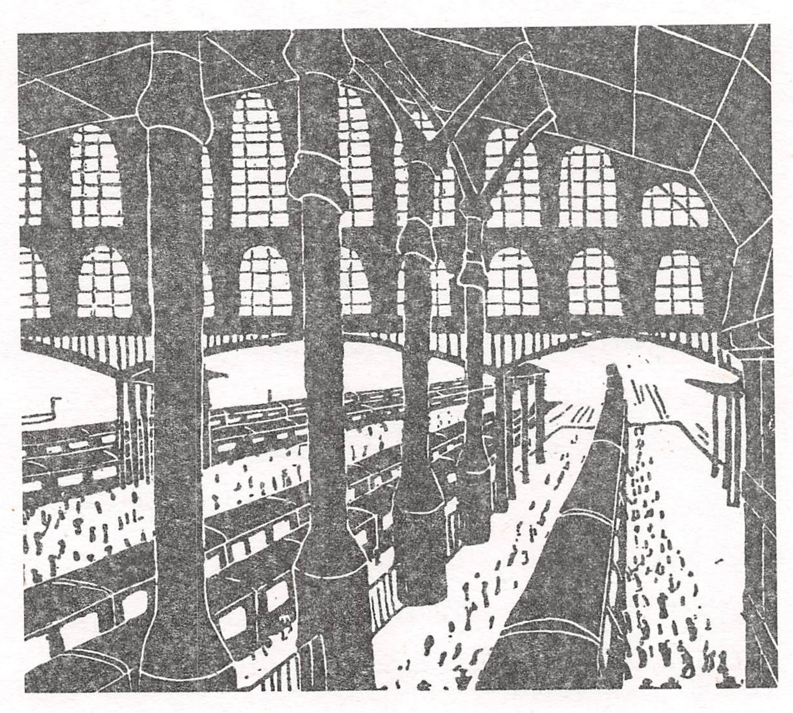
انتهت المعركة وجلسنا وسار القطار .

ماذا نتحدث وماذا نقول ؟ السفر بطبيعته داعٍ إلى التقارب ولو لقضاء الوقت الطويل ؛ وأدعى إلى ذلك وجودنا جميعاً فى بلاد غريبة، وأصحابنا فى رحلتهم الطويلة قد انتزعوا كل ما فى جعبتهم من أحاديث وآراء، حتى صار الواحد منهم يعرف ما يجول فى خاطر رفيقه قبل أن ينبس بكلمة !

لم يبقَ إلا حل واحد لتفريج أزمتهم الكلامية، ذلك بإلقاء سيل من الأسئلة على هذا المريض الضعيف . ما اسمك، وما بلدك، وما عملك، وأين درست، ومن أين قدمت، وإلى أين أنت ذاهب، وكيف هى مصر، والصيف والشتاء فيها، وكيف موقفها السياسى الراهن، وما أجور السفر إليها ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى لا تقع تحت حصر، لا سيما

وأن بينهم سيدات بطبيعتهن لا يعجزن عن ابتكار الأسئلة الطريفة ولا يتقبلن إلا أجوبة كافية وافية .

وأى حديث جذاب يجده مثلى مع مثل هؤلاء، الذين لا يتكلمون إلا عن الآلات الموسيقية وعن التمثيل، وعن المسارح وعن الأزياء والسهرات. لهذا لم أجد بُداً من التحول إلى الدايوان المجاور وكان خالياً إلا من



فى محطة فريدريش اشتراسا

مـجـالس غلب على ظنى أنه طالب فى إحـدى الجـامـعـات ، فكان ذلك توفيقًا .

جمعت كل معرفتى بالألمانية «ولم أستعملها إذ ذاك فى موطنها» واستيسرت سؤالاً لا لأهميته عندى بل لبساطة ألفاظه، وألقيته على صاحبنا ، وكان الجواب طويلاً فهمت نصفه على كل حال، فهمت أن صاحبنا راجع من لندن إلى استين فى شمالى ألمانيا بعد أن درس فى إنجلترا بضعة أشهر نظمًا تجارية .

انتهز صاحبنا هذه الفرصة، وانتهزتها أيضًا من جانبى ، هو يريد أن يتمرن على المحاورة بالإنجليزية، وأنا أريد ان أذلل لسانى فى النطق الألمانى . فكان يسألنى بإنجليزية مهلهلة، وأجيبه بألمانية أشد هلهلة فكان مجلسًا تستجير منه قواعد اللغتين .

جد القطار فى سيره وجد الصداع والمرض فى رأسى بأشد من ذى قبل، ففتحت زجاجات الأسبرين وأنابيب المنتول وأقراص الكينين وتمددت على أحد المقعدين، وأطفأت المصباح على أن نستيقظ بعد منتصف الليل عند الحدود الهولندية الألمانية .

ولكن لا! ضيف ثالث وضيوف الليل فى القطار لا يرعون حرمة النائم ولا جانبًا لمريض . وتبعًا لهذا التقليد أخذ ضيفنا الإنجليزى – وقد غاب هذه الساعات فى مركبة الأكل – على عاتقه أن يوقظنى بنصائحه، وذلك بألا أعوّد نفسى الراحة الكاملة فى القطارات لا سيما

إذا كان هنالك شريك فى المقعد الذى أجلس فيه، وعلىّ إن أردت الراحة الكاملة بعربة النوم .

أطفأنا الأضواء ثانية ، وأخذنا ننام من جديد، حيناً على الجانب الأيمن ثم حيناً على الأيسر، ثم على النافذة ثم على إحدى الحقائب ، نفتح الباب ونقفل النافذة، نغطى الرأس ونكشف الوجه هكذا دواليك . حيرة لا تنتهى، والنوم المتقطع آلم على النفس من اليقظة، ولكن الجهاد فى سبيل النوم ينتهى عادة بشىء من الراحة والهدوء، لا سيما بفعل الأسبرين والكينين .

* * *

كان لا بد من الاستيقاظ فى منتصف الليل أو بعده لا أدرى، وقد كنا على الحدود الألمانية، أحسست بوقوف القطار وبإضاءة نور الحجرة وبدخول جماعة من الغرباء بملابس عسكرية خضراء، وإذا بالحجرة ترتج بين جوانبها اللغة الألمانية بقوة وشدة!

لم أفتح عينى إلا خلسة، خوفاً من الدخول مع النوم من جديد فى معركة أخرى . سُئلت عن جواز السفر فقدمته وأنا مغمض العينين، وسُئلت هل أحمل بُناً أو شاياً فاكتفيت بالنفى ، واكتفوا هم بذلك فلم يطلبوا فتح حقيبة من حقائبى حرصاً على عدم إزعاج صاحبها المريض . فيما لهذا من أثر فى نفس الغريب ! فقبل أن يطأ أرض بلد يقابله أهله بالمساعدة والمعونة .

استيقظنا للمرة الأخيرة فى الصباح الباكر، وكان صاحبى الألمانى يكتب مذكراته، وصديقنا الفليسوف الإنجليزى يتجرع زجاجة كاملة من الوسكى زاداً لإفطاره ولم يبقَ على برلين إلا ساعة أو بعض ساعة .

* * *

بهذا الجسم المريض المتهدم، وبهذه الأعين التى لم تعرف طعم النوم الهادئ - وصلت برلين، وأخذت إحدى حقائبى وخرجت من محطة فريديش اشتراسا واخترقت الشارع فى هذه الساعة الباكرة وأنا لا أعرف لى طريقاً، ولا أبحث عن مكان معين .

ولكن المرض والمطر والتعب لا تشجع على المضى فى السير، فتوقفت بضع دقائق وقد أثقل ذراعى حمل الحقيبة الصغيرة التى لا أُرى إلا بها، ودخلت بعد تردد مقهًى فاخراً، أذكره الآن فكأنما كان فى مدينة الأحلام، هناك فى ركن مظلم حتى لا يرى الخادم وجهى ولا أراه إذا ما استقبح لغتى هنالك جلست وخلعت معطفى ولفائف العنق ثم طلبت قدحاً من اللبن الساخن وقطعة من الخبز، حتى إذا شعرت بشىء من الدفء والراحة، خرجت أتابع رحلتى إلى لا شىء .

* * *

وأخيراً . . . لماذا لا أذهب إلى مكتب البعثة المصرية ؟ أخذت سيارة إلى حيث عنوانها المدون، فلم أجد أحداً، لقد انتقلت إلى دارها الجديدة منذ أيام، إلى حيث هى الآن فى شارع نورنبرج . .

وهناك وجدت أصدقاء ما كنت أعرفهم لولا المرض والغربة، وهناك أخذ صديقى الدكتور ز - يَحبونى بذلك العطف الذى لا ينساه إلا لئيم، فما أن فتحت عينى بعد ذلك بأيام، حتى فتح لى أبواب برلين وما أن انقضى الأسبوع الأول حتى كنت أسابقه البحث والاستقصاء أو ما كان يسميه «الدعبسه»

* * *



حديث على درجات محطة انهالتر



ياليل ! ياليل !

هكذا ينشد المغنى العربى وهكذا يبدأ كل أنشودة يرنمها كأن هذه فاتحة مقدسة، أو كأنما نبرات صوته لا تنجلى إلا بها، وهو ينشدها ولو كان الوقت نهاراً؛ لأنه لا بد من الليل لكى تنساب بنات القوافى وبنات الخيال، وبنات الأحلام الأمانى، ثم بنات حواء فى ظلامه!

* * *

إذا أقبل الليل أو كاد، تأخذ أصوات الأطفال الذين لا يفترون لعباً فى حديقة الميدان المجاور- تأخذ فى التضاؤل، ولا تكاد تصل إلى حجرتى فى الطابق الرابع، ويأخذ صوت النافورة التى تتوسط الحديقة فى الوضوح والجلاء، ثم لا تلبث قليلاً حتى تضاء بأشعة تسلط عليها فتقذف بمائها ورذاذها على كل جانب وعلى كل لون .

وكأن الجمال ينجذب إلى الجمال، فلا نمضى وقتاً طويلاً حتى تقبل صاحباته وقد استقبلن ساعات فراغهن بغبطة وابتسامة، يطفن حول النافورة ثلاثاً كأنها مهبط الحب والإلهام، وكنت أراهن من طابقى الرابع

–وقد خلعت نظارتى– يسبحن فى رذاذها وضوئها كبعض الأرواح . .

وكما أن للنور جماله وجلاله فإن للظلمة كذلك حُسنها وفتنتها، فهنالك تحت أقدام تماثيل الشباب والحب المنتشرة فى أركان هذه الحديقة يجلس كل مؤمن بما تفيضه هذه التماثيل من سحر وترسله من تقوى فى قلوب الشباب الحارة ، وهل أنسى ذلك المقعد المتواضع وقد احتضنته لفائف الشجر، أمر عليه كل ليلة فأجده هانئًا بزواره يتبادلون الأمانى، وينظرون من بين أغصانه إلى المستقبل باسمًا، حتى لقد دعوناه مقعد العاشقين !

ولقد أصبحت صديقًا لأصدقاء هذا المقعد، حتى صار آخر ما أقوم به كل ليلة قبل أن آوى إلى فراشى أن أحيى رواده تحية المساء، وإن كانوا فى غنية عن تحياتى وبركاتى .

* * *

كان ذلك حول ميدان لويزا بلاتس، فإذا كان وتركته ودلفت شرقًا أو غربًا إذا بك فى كورفرستندام، ذلك الشارع الرحب الجوانب المرح الباسم، الذى إذا وقفت على رأسه، على درجات كنيسة فريدريش التذكارية، وقد انتصف الليل تشعر بأن هذا العالم الداوى لا يعرف ما تعرفه عن الليل من حرمة وجلال .



الليل في كورستندام من علياء الكنيسة التذكارية

سلسلتان من النور على جانبيه، تمتدان أميالاً ولا تنقطعان ؛ مقهى يجاور مقهى، ومطعم يجاور آخر، ومرقص إثر مرقص، ومسرح يقابله مسرح، حركة لا تنقطع ونشاط لا يهدأ، نشاطهم فى النهار فى سبيل العمل ونشاطهم فى الليل فى سبيل الراحة، والعلم الذى يستعملونه فى مصانعهم ومدافعهم ومفرقعاتهم هو العلم الذى يستخدمونه فى ملاهيهم ومقاصفهم .

وهذه المقاهى والمنتديات لا تكاد تجد واحداً منها يشبه آخر فى الجو الذى يفيض به المكان، ولكل منها إذا أقبل الليل رواده الذين يحفظون تقاليده ويرعون حرمة أساليبه.

ثم تترك كورفرستندام لتنعطف يميناً إلى محطة « تسو » فتجدها عامرة مزدحمة بمطاعمها الفاخرة ومراقصها ثم بدور السينما إذ إن أفخرها دار سينما «اوفا» تراها فى هذا الجانب.

وحيث يبدأ كورفرستندام ينتهى شارع توانزين اشتراسا، وما هما فى الحقيقة إلا طريق واحد فصلت بينهما كنيسة فريدريش التذكارية، وتوانزين اشتراسا من الشوارع التى لها سحرها فى الليل بمخازنه التجارية المقفلة، والتى قد أضيئت نوافذها وزينت جدرانها بالأنوار الملونة الخاطفة؛ فإذا خرج المتفرجون من مسارح كورفرستندام أو ملُّوا الجلوس على مقاهيه أخذوا طريقهم إلى توانزين اشتراسا يقفون على مخازنه مخزناً مخزناً بلا استثناء، ومن الذى يعرض بضاعته فى شارع

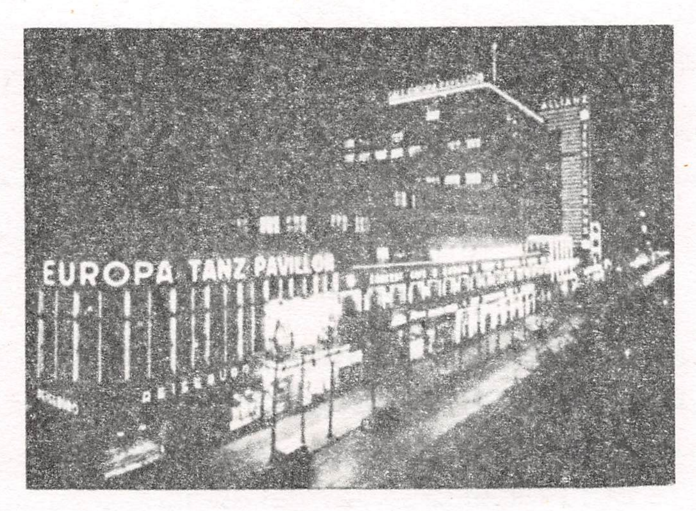
تونزين إلا العارف بأصول الإعلان الحديث؟

وهكذا تسير حتى ينتهى هذا الشارع بميدان فيتنبرج، حيث مخازن الكاديفى ثانية مخازن برلين عظمة، والتى تنسق معروضاتها من جديد كل ليلة!

* * *

قد تظن، وقد تركت شارع توانزين، أن هذا قلب برلين الخافق فى الليل، ولكنك إذا ما أخذت إحدى عربات الترام التى تسير شرقًا، فإنك ترى قلبًا آخرًا من قلوب برلين الليلية الخفاقة، فبرلين ليست العاصمة ذات القلب الواحد التى تنصب إليه شرايينها والذى إذا تعطل نضبت حيويتها وصمتت حركتها.

ليس كورفرستندام وليست التسو وليس توانزين اشتراسا قلب برلين فى الليل وحده، فهناك شرقًا ميدان بوتسدام حيث مقهى الفاترلندودار الفاترلند؛ وهناك كسارلند اشتراسا ومقهى أوربا وملحقاته وبين هذا وذاك عشرات المطاعم ودور السينما والمقاهى والمراقص التى لا تهبط حركتها حتى الهزيع الأخير من الليل، وإذا سكن أهل برلين فإن أولئك الغرباء الذين يرجعون إلى بلادهم من محطتى بوتسدام وانهالتر بعد قضاء اليوم فى برلين، إن هولاء يجعلون الحياة فى هذا الحى من برلين لا تسكن حتى تقفل هذه المقاهى فى الساعة الثالثة صباحًا.



شارع السارلند سلسلة من النور

وقريبًا من هذا الحى، يستقبلك قلب آخر من قلوب برلين، ليس حى فريدريش اشتراسا وملحقاته بالمكان البعيد إذا ما أرادت أن تنتقل من ميدان بوتسدام .

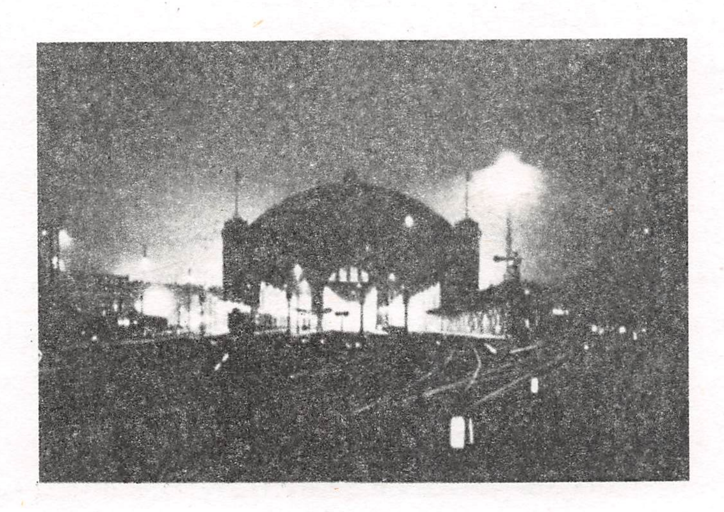
وإذا كان الوقت صيفًا فإن حى التيرجارتن الذى لا يبعد إلا دقائق من هذا الميدان بمقاهيه الصيفية المفتوحة وبموسيقاه الراقصة لا سيما مـرقص الكرول بآلافـه من الجـالسين والراقـصين، وبأنواره الملونة، وبموسيقاه العديدة، لا شك فى أنه يجذب قلب كل زائر لبرلين فى الليل .

وفى الطريق إلى الكرول أو إلى أحد المطاعم التيرجارتن الراقصة، تمر بصرعى الهوى تحت أقدام تماثيله المنثورة بين أركان الحديقة المظلمة، وتحت ظلال أشجارها المتدلية .

* * *

تترك التيرجارتن بمقاهيه ومراقصه الصيفية إلى حى فريدريش اشتراسا وليس لنا أن ننتقل بوسيلة من وسائل النقل، بل يكفى أن نسير الهوينا فى شارع ليبزجر اشتراسا الذى يبتدئ من ميدان بوتسدام، حيث يطل عليه أفخر مخازن برلين التجارية فرتهايم .

ثم ننتقل من مخزن تجارى إلى مخزن مجاور فى هذا الشارع المضئ الزاهى حتى ينصب فى جانب من شارع فريدريش .



هكذا تستقبلك برلين فى الليل

إذا وقفت حيث هذا المكان من شارع فريدريش الضيق وبأنواره الزاهية الملونة البديعة، تشعر كأنك فى كرنيفال باهر، أو كأن هذا الشارع فى حفلة من حفلات الليل الممتازة .

وهناك حيث يتقاطع هذا الشارع بشارع انتردنلندن أوسع شوارع أوربا إطلاقًا، هناك تجد عددًا من مقاهى برلين الفاخرة، تجد مقهى كرانسلر أعرق مقاهى برلين، تجد مسرح الفنترجارتن، وليس بعيدًا من حيث يتقاطع هذان الشارعان تجد دار الأوبرا الحكومية التى تفيض نورًا وحياة فى أيام وفى مواسم الأوبرا فى برلين .

وفى نواحٍ مظلمة منزوية فى برلين تجد الشىء الكثير من تلك الأركان الليلية فى برلين، والتى لا يعرف طريقها النازح الغريب، فمن ذا يظن أن هنالك بعد ميدان ألكسندر، فى ذلك الشارع المقفر المظلم بلو من اشتراسا، أن هنالك مرقصًا فاخرًا مثل مرقص الريزى العجيب .

هذه الأركان الليلية المنزوية فى برلين تبقى أسرارًا لا يعرفها إلا إذا فتحت له برلين ذراعيها، وأقبلت عليه تقربه من صدرها .

* * *

هكذا صار الليل صديق من لا صديق له، يجمع الغريب بالغريب، والشارد بالتائه، ويغرق فى ظلامه ألم البائس ورنة الحزين، وسخرية المستهتر المرح .

وهكذا غدا الليل كاتم سر الجميع .



برلين بالأمس

«. . . وبعد غروب ذلك اليوم ركبت القطار قاصداً مدينة برلين ووصلتها يوم الثلاثاء ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٧ ميلادية وكان فى انتظارى حضرة مدير المدرسة الشرقية ببرلين فأوصلنى إلى المحل الذى أُعد لنا للإقامة به، وهو محل فى منزل كبير له سيدة رئيسة قائمة بواجبات الساكن لديها مقابل دراهم تُدفع لها شهرياً .

ونظرت باقى المحلات مشغولة بسكنى أناس أجانب ما بين إنجليزى وإيطاليانى وفرنساوى ويابانى ومسكوفى ويونانى وأمريكانى . وحين علمت ذلك قلت للنفس لقد تم بك العدد، وسميت ذلك البلد بالمدرسة المختلطة حيث إن أغلبهم قاطن ببرلين لتحصيل العلوم بها، فهذا يتعلم علوم الرياضة وذلك يحصل علوم الطبيعة إلى غير ذلك .

ثم إن جناب مدير المدرسة الشرقية قد أناط بى شخصاً ألمانيا ولكنه بالمنزل الذى أقمت به «حيث هو يعرف قليلاً من اللغة العربية لكونه كان سائحاً ببلاد المغرب بضع سنين» ليعودنى على معرفة الطرق ببرلين

ويصل بى إلى الدرجة التى بها أتمكن من معرفة السير والمعاملة فيما بين الألمانيين .

* * *

وفى عصر ذلك اليوم دعانى الشغف باستكشاف تلك المدينة إلى النزول بها والمرور فى طرقاتها ، فوجدتها هى وفينا كأنهما عروسان يتجاذبان أطراف الأخوة، غير أن برلين أكبر مساحةً وأوسع طرقًا من فينا . ووقتئذ ترجيت المنوط بى ليرنى بعضًا من المدارس فأدخلنى إلى المدرسة الكبرى ويسمونها (اونيفارستيت Universitaet) فوجدتها محلاً مرتفعًا، ولم أدخل بها لعدم وجود المعلمين والطلبة بها وقتئذ حيث كانت تلك الأيام أيام استراحة .

ولكن دخلت محلاً بجانبها يقال له بيت الصور والتماثيل، يشتمل ذلك البيت على صور وتماثيل المشهورين فى العالم بأعمالهم وعلو قدرهم، فيقال للمتفرج هذا تمثال فلان الذى اخترع آلة كذا وذلك تمثال فلان .. إلخ ولم يزالوا يقولون لى هذا وذاك، وها هو وها هناك، حتى امتلأ منى القلب غيرة وحمية، وكنت خلال ذلك طامعًا فى أن أرى تمثالاً مصريًا عمل كذا وكذا أيضًا ، حتى أضعفت مقدار الغيرة منى، فما رأيت ولا سمعت، فذرفت العيون منى الدموع أسفًا وحمية وصرت لا أدرى موطئ قدمى، وما دريت فى أى مكان أنا تفكرًا واندهاشًا مما عرانى من الأسف على أبناء الجنس .

ولما رأى صاحبى الذى معى ما رأى سألنى عن سبب انسكاب دموعى فقلت له مخترعًا، إننى رأيت بين تلك التماثيل صورة كصورة أحد أقربائى فتذكرت الوطن والبعد عنه وبُعد الأهل والإخوان، فكان منى ما رأيت ، فقال لى يلزمك أن تتصبر وتتسلى فقلت له نعم، ذلك أريد حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا

* * *

فى ثانى يوم حضورى إلى برلين حضر إلينا أحد ضباط الحامية «البوليس» فإذا هو طويل القامة عريضها، ضخم الجثة جهورى الصوت فسألنى قائلاً «من أنت ؟ وابن من أنت ؟ ومن أى بلد حضرت؟ ولأى شىء قدمت؟ وما قدر عمرك ؟ وما دينك ؟ » فخيل لى وقتئذ كأنه ملك الموت، ثم أجبته عن سؤاله، فكتب ذلك فى دفتر معه وانصرف، وبعد ذلك سردت من تيقظ الحامية ببرلين وتبصرهم حيث إن كل شارع وطريق موكل لعهدة ضابط وحامية لديهم دفتر مرقوم فيه أسماء القاطنين بالجهة . وبالجملة فحامية تلك البلاد أكثر تبصرًا من أى حامية سواها من البلاد الأورباوية حيث لتيقظهم لا يقع بها ما يخل بالنظام سواء الطريق أو المجتمعات .

* * *

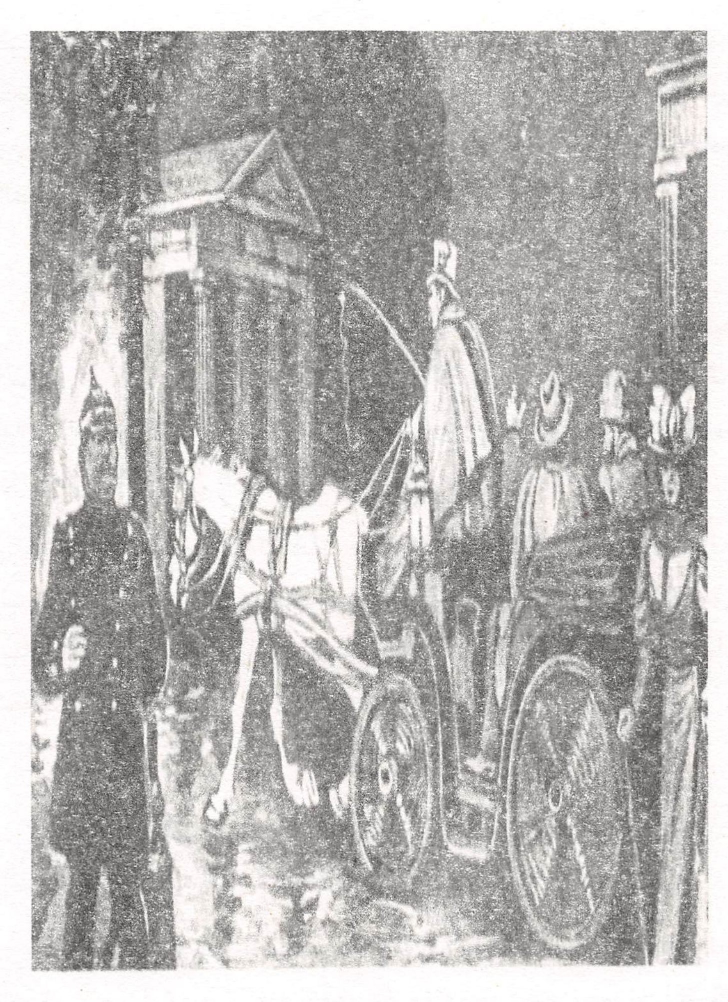
ثم إنه لا يخفى أن برلين من البلاد الباردة التى يغلب فيها نزول الثلوج والأمطار .

وفى بعض الأحيان إذا أتى الصقيع صباحًا على أثر أمطار هطلت الليل وبقى بعض مياهها فى الأرض فإنها تتجمد بحيث تصير كقطعة زجاج مسطحة صقيلة . وفى هذه الحالة لا تسلنى عما يعانيه السائرون، فترى الميدان أو الشارع كأنه مسجد للصلاة أو حلقة للذكر، فهذا راكع وذلك مرتعش البدن يقذف بيديه هنا وهناك . ولم تزل هذه حالهم إلى أن يسخن وجه الأرض وقت الضحى .

وعندما رأيت ذلك لم أزل تاليًا الحوقلة مكررًا جمل الأسف المشوبة بالضحك إلى أن جاريتهم فى ذلك الميدان وصار ذلك لدى أمرًا ليس من الغرابة فى شىء .

ولقد طالعت مرارًا فى الجرائد ما يفيد أن كثيرًا من عامة الناس وأسافلهم يموتون من أثر البرد، وذلك أن أحدهم إذا تصادف وشرب المسكرات وسار فى طريق ليست مطروقة كثيرًا للضابطة ولا للناس، كبعض أطراف المدينة، وارتمى على الأرض نشوان فلا يزال طول ليلته ملقى حتى إذا أقبل الصباح يجدونه لا حراك به .

وترى الأطفال يلعبون فى الطرقات بالثلوج فيأخذون قطعًا منها ويكورونها بأيديهم ويرمون بها بعضهم . كما يوجد ببرلين محلات للعب فوق الجليد، وذلك أنهم يتخذون قطعة أرض كبيرة المساحة، ويمهدونها باللآلات ويملؤنها ماءً ارتفاعه نصف متر، ويجعلون لها أسوارًا من الأخشاب وغيرها ويزينونها بالأعلام والرايات، فإذا حصل الصقيع يتجمد ذلك الماء ويصير جليدًا مستوى السطح، فتهرع إليه الناس رجالاً



عصر العربات فى برلين . . .

ونساءً، غلمانًا وبنات من خواص وعوام، ويشترون تذاكر الدخول وقد أحضروا كلهم نعالاً من الحديد لها مستطيل تحتها كحد السيف فتسير بهم سريعًا، وتراهم وقتئذ يلعبون معًا ويرقصون والموسيقى تصدح لهم بألحانها .

* * *

وأما فى فصل الصيف فقد تمر أيام منه فى برلين حرها شديد بالنسبة لشدة البرودة فى فصل الشتاء . وقد عجبت أول قدومى إلى تلك البلاد، وقد شاهدت فى المنازل كثيرًا من المراوح لعلمى بأنه لا حاجة لهم بها لما فى بلادهم من الرطوبة .

ومذ أقبل الصيف تحققت احتياجاتهم إليها حتى إن أرواح السيدات تكاد تزهق فترى بأيديهن المراوح سواء فى المنازل أو الطريق، ويبادرن مع رجالهن إلى المتنزهات، ويوجد للرجال حمامات فى الأنهار كحمامات الإسكندرية .

* * *

وشوارع برلين وميادينها جميلة مبلطة إما بالأحجار أو الأسمنت وأطول شوارعها اللطيفة شارع فريدريش اشتراسا .

وفى فصل الربيع والصيف تهرع الناس إلى المتنزه العمومى ببرلين المسمى تيرجارتن حتى إنه لتغص طرقاته بهم . فمن عربات تقل كل

زوجين اثنين، ومن فرسان يتسابقون على أفراس كأنها القصور، ومن شبان يغازلون الجوارى وقد تأبطوهن فيسيرون الهوينا يتناقلون أطراف الغزل والنسيب، ويشكون بث الغرام ويبثون شكوى الهيام .

وأسواقها جميلة الوضع وكذلك حوانيتها، ولها وجهات وأبواب من زجاج سميك كما هى لدينا فى بعض الشوارع، موضوعة بها المبيعات بوضع منظم ومكتوب على أغلبها الأثمان، يريد بذلك بائعوها تغرير المتفرجين حتى إذا زلقت أرجلهم إلى داخل الحوانيت رأوا الغش فى البيع أصنافًا وأجناسًا، وليس هذا فى جميع المحلات التجارية.

وترى التجار اليهود يبيعون بأثمان متهاودة فتحسدهم تجار النصارى فيقللون الأثمان وهكذا حتى ارتكز فى قلوب النصارى عداوة اليهود المعززة بعداوة الدين .

ويوجد ببرلين محل تجارة كبير جداً لأحد أغنياء النصارى، وقد قضى على نفسه أن لا يستخدم فى ذلك المحل يهودياً، فتجد لديه من الخدمة ٣٠٠ شخص نصرانى خلاف الكُتَّاب والصيارفة، ويغلب على ظنى أن أولئك الخَدمة إذا علموا بأن المشتري يهودياً لم يبيعوا له ولو دفع الأثمان أضعافًا مضاعفة.

وخدمة أغلب الحوانيت نساء وبنات تراهم نشيطات فى أمور البيع يختلبن عقول الرجال عند الشراء بخداعهن وحيلهن ورقة ألفاظهن .

وليس لديهم أسواق مُعدة لبيع أشياء مخصوصة كما بمصر كسوق العطارين والنحاسين والبرادعية مثلاً بل هى متفرقة فى جميع الشوارع إلا حوانيت الخضروات .

* * *

ويوجد ببرلين العديد من الأنتيكخانات مختلفة المواضع؛ ضمنها أنتكخانة لآثار الأمم الحديثة، وتشتمل على الذخائر الجديدة والأدوات المستعملة فى المعائش، من كل مملكة غير أورباوية ومن الديار المصرية.

وقد رأيت من جملتها كثيراً من البلاليص والقُلل القناوى وأباريق الحملية والنعال الحمر والبُلغ والضبب الخشب والغوايش الزجاجية، والعقود الخرز والطبل والتارات والضربكات إلى غير ذلك حتى ظننت أنى بسوق الجمعة أو بسوق العيد.

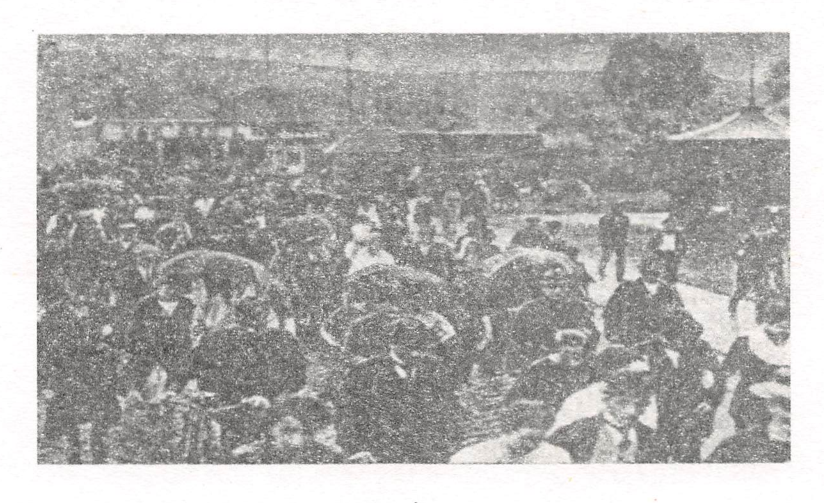
* * *

ويأغلب شوارعها قضبان الحديد ممدودة ليسر عربات نقل من يريد الركوب من محل إلى آخر، ويسمون ذلك سكة الخيل، وهى عظيمة الفائدة ببرلين لا يستغنى عنها، وعليها تتوقف مصالح الأهالى .

* * *

وكل ما ذكرته من جهة العربات له قانون مخصوص يعلمه الخاص والعام لا يتجاوز حده زيادة ولا نقصانًا، فما سمعت ولا رأيت يومًا شكوى أحد منها ولا تعرض سائقًا لأحد.

وإذا قسنا ذلك بمركوباتنا المصرية وعربات أشغالنا وخدمتها رأينا الشيء وما ينافيه، فترى الإنسان يقاول الحمّار وسائق العربة مثلاً، ويتفق معه على أجرة مخصوصة، حتى إذا أوصله نظر المكارى للراكب فإن كان أفنديًا خاطبه متواضعًا ويعطيه رتبة البيك وشكى إليه حالة وبكى بدموع تهطل على صدره، فإذا لم يرق لحاله الأفندى ودخل المحل الذى يريد، دق عليه الباب وصاح وسب وشتم بالكناية إلى أن يأتيه الأفندى المذكور، فإما أن يعطيه زيادة على الأجرة أو يضربه ويطرده.



برلين بالأمس

وأما ذلك إذا كان شيخًا أو تاجرًا أو صانعًا مثلاً فما على المكارى إلا أن يقبض بثيابه أو يحول بينه وبين طريقه؛ فتجتمع الناس عليهما فيعطلون نظام الشارع والسائرين، ولا يخفى أن ذلك خارج عن الآداب المدنية والمصلحة الأهلية .

فما علينا لو قام الناس بشركات الحمير والعربات وجعلوا لها قانونًا مخصوصًا .

* * *

إنى كنت ذات يوم بالمنزل مشتغلاً بتعلم اللغة الألمانية إذ سمعت ضجيجًا بالطريق ففتحت شرفته، لأنظر ما هو الضجيج، فألفيت الشوارع غاصة بالناس يمشون العجلة ولهم صريخ عالٍ، فسألت بعض من بالمنزل بما معناه مالى أرى الناس فى حيص بيص، فقيل لى سيلتئم البرلمان ساعتئذ بحضرة البرنس بسمارك وها هو سائر والناس حوله، فأسرعت فى النزول لأكشف هذا الأمر، وأعلم هذه العادة وأتعرف ما هم عليه وقتئذ، فوافيت هذا المجتمع وإذا بالبرنس بسمارك يسير ماشياً وحوله الناس من شريف وغيره محتاطين به، ومتهافتين عليه تهافت الذباب على الشراب، بحيث إذا مشى خطوة رجعها إلى الخلف وكلهم رافع قلنسوته ماداً بها يده نحوه قائلين بأعلى صوتهم هذه الكلمة يكررونها « هوخ» ومعناها بلسان عالٍ، يعنون بها الدعاء بكونه لا يزال

عاليًا والمنازل مفتوحة والشرفات ينظر منها القاطنون بها رافعين أصواتهم بتلك الكلمة أيضًا . ومن العجيب أنه كثيراً ما رأيت بعضًا منهم عند رؤيته لى وعلمه بأنى أجنبى لرؤيته « الشربوش » يمد يده بقلنسوته نحوى، وينظر تارة إلى جهة بسمارك وطوراً إلىّ ويصرخ قائلاً الكلمة المذكورة كأنه يفاخرنى ويباهينى بذلك .

ولم يزل سائراً وهم حوله متزاحمين عليه حتى وصل إلى البيت المعد لانعقاد البرلمان، فهرع الناس خلفه ودخلوا ذلك البيت حيث إنه لا حرج عليهم فى ذلك .

وحلول وقت تدريسى بالمدرسة الشرقية، قد حال بينى وبين مشاهدة ذلك المجلس الذى كانت رؤيته من أكبر أمانىّ.



مقاهى برلين



قليل من المقاهى ما يشبه مقاهى برلين، فإن كنا نجد عشرات المقاعد فى كل مقهى نطرقه فى باريس أو أثينا أو روما أو القاهرة، وإن كانت هذه المقاعد قد أعدها أصحابها للجلوس، فليس معنى ذلك أنها أعدت للراحة ؛ فكم من جالس أشد نصباً وتعباً من كثير من الجالسين على هذه المقاعد الجامدة !

تستقبلك مقاهى برلين وأنت المنهوك المتعب من السفر، والضرب فى طرقات العاصمة بين المتاحف والمعارض، حتى إذا ولجت باب أحد هذه المقاهى المنثورة فى العاصمة الألمانية، شعرت كأنك فى ركنك الهادئ، الذى نظمته وفقًا لذوقك وحرصاً على راحتك وهدوئك !

وأى بلد تحتوى مقاهيه على مقاعد المخمل الجميلة، أو المقاعد الجلدية الفاخرة إلا برلين ؟ ولكن ليس لى أن أتغالى فأنسى ڤيينا، إذ هى خدن برلين وأختها الصغرى ذوقًا وتقليداً .

تتمدد على أحد هذه المقاعد اللينة وتبعثر ما تحمله من أوراق وصحف وغيرها مما يحمله الزائرون، فتشعر بأن هذا هو المقعد الذى

تبحث عنه حقًا، تشعر بأن هذه هى الراحة الكبرى!

ومع ذلك فلكل مقهى من مقاهى برلين طابعه وشخصيته، وكل له جوه وتقاليده، وكل له زواره ورواده، وليس هناك مجالاً تتجلى فيه الروح الألمانية أكثر من هذه المقاهى ؛ فالعلم الألمانى، والفن الألمانى والذوق الألمانى، والنفسية الألمانية، تتجلى جميعها فى هذه المقاهى !

فهذا الافتنان الذى يبلغ مرتبة الإعجاز، وهذا الذوق فى نثر الزهور أو اختيار ألوان السجف المسدلة، أو ميادع الحادمات، وهذا التجديد والانفراد الذى يتميز به المقهى عن الذى يجاوره، كل هذا يدل على أن مقاهى برلين أكثر من أن ينصرف عليها اللفظ دون توضيح !

وهذا التفنن الذى تتميز به مقاهى برلين، هو الذى يجعلنى أطرق نحو خمس من هذه المقاهى كل يوم، لكل واحد منها جوه ومزاجه، فالمقهى الذى ترى أن تتناول فيه طعام إفطارك هو غيره الذى تتناول فيه قدحًا من القهوة بعد الظهر، وهو غير الذى تحتسى فيه الشاى لتتخير منه أصناف الكعك الذى تقضى فيه السهرة بعد العشاء، وهو غير الذى تمر عليه وأنت فى طريقك إلى المنزل لتتناول فيه قدحًا من الشوكولاتة الساخنة بالقشدة، أو قدحًا من عصير التفاح الطازج إذا كان الوقت صيفًا.

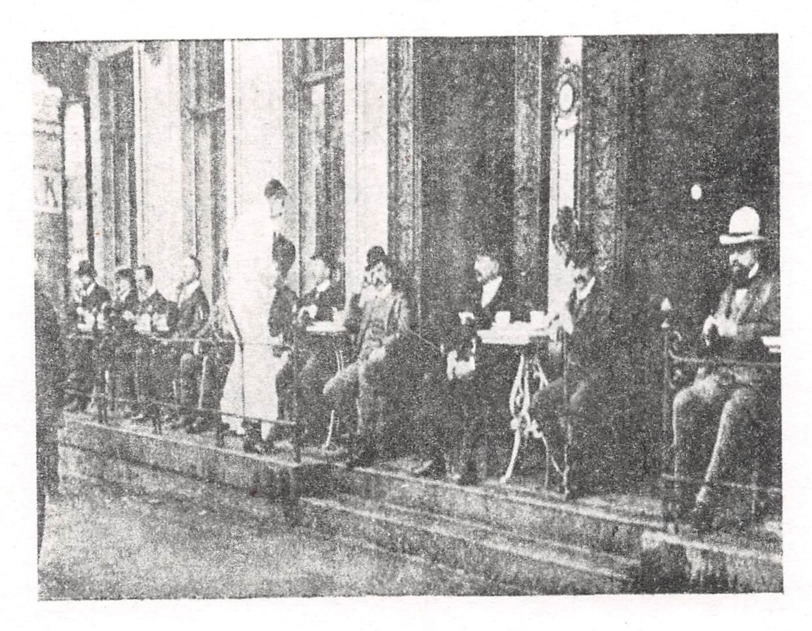
* * *

وفى كل شارع من شوارع برلين لا بد وأنك واجد بعض هذه المقاهى، ولكنها كغيرها تتجمع وتتوزع بين أنحاء العاصمة الكبيرة،

فهناك فى شارع كورفرستندام، تجد سلسلة من هذه المقاهى الفاخرة، الواحد منها يجاور الآخر، حتى لا تكاد تميز بينها إلا بألوان مناضدها، وملابس خدامها ! تجد فى هذا الشارع الفاخر صفوفاً من هذه المقاهى تمتد ميلين كاملين دون انقطاع !

ويستقبلك مقهى ترونف حيث يبتدئ كورفرستندام، تحت ظلال الكتدرائية التذكارية، وتستقبلك فى هذا المقهى وجوه لفحتها الشمس، وجوه كثير من الغرباء الذين يجدون فى مقهى ترونف مجلساً طريفاً وهم يستعرضون جموع السائرين تدور حول شرفة المقهى الزجاجية إلى محطة حديقة الحيوان أو إلى سينما أوفا العظيمة .

ومقهى ترونف كغيره من مقاهى برلين الراقية تعزف فيه الموسيقى إبان فترة الغداء، وإذا ما حان وقت الشاى، ثم فى المساء . وفى هذه الساعات تجده مزدحماً بالوافدين عليه فى ملابسهم الأنيقة المختارة، كل زوجين اثنين، كما يجمع ترونف الغرباء منهم حول موائد الشاى والقهوة وليس لك إلا أن تستأذن فى الجلوس محيياً الجالسين إذا أردت الاندماج فى حلقتهم، وليس لك إلا أن تحنى رأسك تأدباً للسيدات الجالسات، منتظراً ابتسامة الرضا على الشفاه دليل القبول، فتحتل المقعد الخالى وتندمج فى الحديث أو المجلس، إذا كان لك فى ذلك رغبة!



مقهى كرانسلر فى القرن الماضى

تستأذن من مجالسيك محييًا إياهم بهز رأسك، كأنك وإياهم أصدقاء من قديم .

* * *

وبعد خطوات من مقهى ترونف تمر بمقهى كرانسلر .

ومن الذى لا يعرف كرانسلر ؟ ومن الذى لم يسمع على مقهى كرانسلر فى برلين ؟ مقهى الأناقة والوجاهة منذ ستين سنة أو يزيد ؟

كانت مثلجات كرانسلر فى القرن الماضى أشهى ما تُحلى به السيدة الأنيقة مائدة الشاى أو حفلاتها الراقصة، ويكفى أن تقول السيدة فى ذلك القرن إن الحلوى التى تقدمها لضيوفها من كرانسلر، يكفى أن تقول ذلك لتثبت درجتها فى الأناقة والذوق .

ومقهى كرانسلر فى شارع انتردن لندن فى ركنه المطل على فريدريش شتراسا لا زال فى مكانه منذ تلك الأيام وإن اختلف العصر وتبدلت الأذواق، ولكن ما زلت ترى به آثار الماضى العتيق، فى صفوف الكراسى الخيزران البيضاء ذات الظهور الواطئة التى لا تريح جالسًا، ما زلت ترى هذه الكراسى مصفوفة على رصيف ذلك الشارع، وما زلت ترى زوار برلين من أمريكا وإنجلترا يحتلون هذه المقاعد بعد أن قرأوا

من أخبار كرانسلر فيما كُتب عن برلين فى العصر السابق !

ولكن مقهى كرانسلر فى كورفرستندام أكثر بهجة وأحدث تنسيقًا من هذا، وقد صُفت على إفريزه الواسع عشرات من الموائد ذات الأغطية الملونة الزاهية، وصُفت حولها المقاعد الوثيرة، وزينت بأصص الزهور اليانعة فى فصل الصيف !

أكثر ما يهزنى إلى هذا المقهى انسجام الألوان وانتشارها بين جنباته، حتى كأنما ملابس السيدات قد اختيرت متممة لهذا المعرض من الألوان .

ومن الذى ينسى جلسة الشاى وقد انتصفت الخامسة فى أيام الصيف البديعة فى برلين ؟ من الذى ينسى مثل هذه الجلسة وقد ازدحم إفريز المقهى بأفخر جماعة من الناس، زيًا وشكلاً وأناقةً وذوقًا !

* * *

وعلى باب مقهى من مقاهى برلين الفاخرة يستقبلك رئيس العمل، بملابسه السوداء وحذائه اللامع وقامته المرتفعة وابتسامته الدائمة !

لا تكاد تلج باب مقهى من هذه المقاهى، إلا وتجد الرئيس الأنيق أمام يديك هاشًا باشًا مسلمًا باللغة التى يظنك من متلوكيها، ويسألك عن نوع المكان الذى ترغب فى الجلوس فيه، أهو الركن الهادئ الرزين؟ أو المقعد الخالى فى وسط جمع حافل من ذوى الملابس الحريرية، أم هو مكان تطل منه على القادمين والرائحين فى الشارع ؟



أحاديث المقاهى

فإذا أبديت رغبة قادك إلى حيث تريد، واستأذن الجالسين بدلاً عنك ولا يتركك إلا بعد أن يحييك تحية القدوم ، وإنه ليترك كل ما فى يده ليلحق بك إلى باب المكان مودعًا إذا ما رآك تحزم الرأى على القيام .

« وكافيه فين » له شخصية من بين هذه العشرات من المقاهى فى كورفرستندام ببهوه العظيم ومقصوراته الدائرة، ثم بما يعرضه من الصحف والمجلات .

فى كل من مقاهى برلين، تجد أكثر الصحف الألمانية الشهيرة والمجلات والدوريات العامة، تخصص لها أدراج خاصة يسعى إليها الزائر فيختار ما شاء منها، حتى إذا ما انتهى طواها كما كانت وأرجعها فى درجها .

وفى مقاهى برلين الكبيرة تجد الصحف الأجنبية المشهورة، فلا يخلو مقهى من مقاهى العاصمة الكبيرة من صحيفة التيمز، أو الطبعة الباريسية لجريدتى « نيويورك هرالد » الأمريكية أو « الديلى مايل » الإنكليزية ..

وكافيه فين يتميز بأكبر مجموعة من هذه الصحف والمجلات الألمانية والإنكليزية، فتجد إذا ما توسطت المكان منضدة واسعة صفت فيها هذه الدوريات صفوفًا كثيفة . والزائر لهذا المقهى لا ينسى مقهى برستول وغيره من مقاهى فينا التى تجمع صحفًا من كل أركان العالم حتى من مصر !

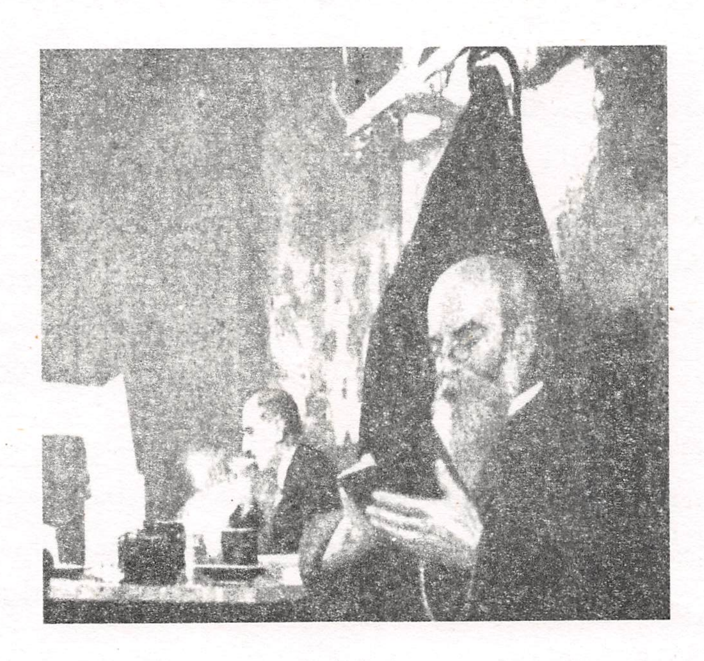
وفى كل مقهى من هذه المقاهى أولئك الصبيان « الباج » الذين لا

عمل لهم سوى مساعدة الزائرين فى كل ما يطلبون، فهم الذين ترسلهم يتصيدون لك الصحف الأجنبية التى يشتد على قراءتها التنافس ؟ وهم الذين يساعدونك فى ارتداء معطفك أو إحضار قبعتك من حجرة الملابس، وهم الذين يقومون بمناولة الرسائل الخاصة بين الجالسين إذا دعى إلى ذلك الأمر !

ولك أن تضرب موعداً فى أحد هذه المقاهى أو أن تنتظر رداً تلفونياً، وفى وسط هؤلاء المئين من الجالسين، تجد أحد هؤلاء الصبيان وهو يحمل سبورة صغيرة كُتب عليها أن لفلان رسالة تلفونية .

وعلى مقربة من مقاهى كورفرستندام المتراصة تنعطف قليلاً لتصل إلى « كافيه برلين » بطباقه العديدة، وقد تميز كل طابق منها بروح خاصة، من مجالس للقهوة وإلى مجالس الجعة، وإلى حلقات الرقص ومنتديات النبيذ ؛ وفى كل طابق من هذه موسيقاه، تعزف ما شاء لسامع أن يسمع ! ثم تترك هذا الحى إلى ميدان بوتسدام حيث مقهى الفاترلند، بزخارفه الذهبية الكلاسيكية ومقاعده الجلدية الثقيلة، والثريا الضخمة المتدلية من سقفه المزخرف، بالرسوم الملونة الزاهية .

وإذا كانت أيام السبت لا تكاد تجد موضعاً لقدم فى هذا المقهى وقد مدت موائد العشاء وسرت الموسيقى مسرى النبيذ العتيق فى رؤوس الجالسين، الذين لا بد وأن تجد من بينهم من يشترك فى الغناء والإنشاد لأن أكثر رواد هذا المكان من غير أهل برلين .



جلسة هادئة

الطوار الفاخر مقهى أوربا، ببنائه الحديث الذى إذا ما أقبل الليل أضاءت جوانبه مئات من المصابيح الكهربائية البديعة .

ومقاهى برلين الفاخرة لا عدد لها، ومن عبث الكاتب أن يقوم بِعدِّ أسمائها أو بوصف أناقتها، لأن تكرار لفظ الأناقة والذوق يصبح بعد قليل لغواً ثقيلاً على السمع !

ولكننى لم أكن دائمًا من رواد هذه المقاهى الكبيرة التى تزدحم بالوافدين من كل لون، لأن فى مقاهى برلين الصغيرة المنزوية نوعًا من السحر لا يعرفه إلا من استقر به النوى فى برلين، وبرد حماس التجوال فى نفسه، وكنت إذا انتهت سهرتى فى بعض تلك الأماكن الفاخرة الصاخبة، أمُرُّ على مقهى « شوتن همل » عند محطة انهالتر، وأنتحى ركنًا من المكان وأطلب قدحًا من الشوكولاتة ذات القشدة .

وكنت أشعر بهدوء وراحة فى هذا المقهى الهادئ، لأننى كنت أعرف جميع المترددين عليه، كنت أعرف رئيسه الذى كان يستقبلنى كل ليلة فى هذه الساعة المتأخرة، وكنت أعرف خادماته اللاتى كنت أجزل لهن العطاء !

وأمثالى كثيرون ممن يترددون على بعض هذه المقاهى الصغيرة الأنيقة كل ليلة يطالعون صحف المساء أو يجتمعون للثرثرة وأمامهم أقداح القهوة أو أكواب الجعة الضخمة، ينفخون فى سيجارهم بارتياح وغبطة تشاهدها فى عيونهم .

وتجد فى هذه المقاهى المنزوية ذلك «البروفسير» بشعره الأبيض ونظارته المتدلية على أنفه وبحقيبته وكتبه وجرائده، وهو لا ينفك قراءة ساعة بعد ساعة دون ملل أو سآمة .

* * *

والقهوة هى الشراب الرئيسى فى المقاهى الألمانية يضيفون إليها القشدة وتختلف المقاهى درجة من حيث كمية القشدة أو نوعها .

والألمانيون يحبون الدسم حبًا جمًا، فكثير منهم من يطلب مع قدح قهوته طبقًا خاصًا من القشدة الخالصة، يلتهمه بالملعقة التهامًا أو يدسمون به أطباق الفطائر والحلوى .

وعنايتهم بقهوة الساعة الخامسة لا تقل عن عناية الإنجليز بالشاى فى هذه الساعة، يعد له كل منهما ألوان الفطائر والكعك والحلوى، فإذا ما طلبت قدحك من القهوة فى هذه المقاهى ذهبت بنفسك إلى حيث تُعرض صنوف الحلوى وألوان الكعك والفطائر فتختار بعضها، فإذا ما انتهيت أعطتك البائعة رقمًا خاصًا ترسل به الخادم الموكل بمائدتك ليحضر إليك ما تخيرت .

وأرخص ما تطلب فى مقاهى برلين أقداح القهوة الصغيرة، ثم أكواب البيرة فهذان هما الشرابان الوطنيان ؛ أما ما عدا ذلك فأثمانها أكثر ارتفاعًا، تزيدها الضرائب فحشًا، ضرائب الشراب ثم ضرائب الخدمة .

ويتناول أهل برلين طعام الإفطار فى هذه المقاهى المحلية الصغيرة، وقائمة الإفطار محدودة الأصناف، ولا يتجاوز ثمنها ماركًا واحدًا إلا فى المقاهى الخاصة الممتازة .

فقدح القهوة أو إبريق الشاى والبيضة المسلوقة وقطع الخبز الطازج وقطعة الزبدة ونصيب العسل أو المربى هو كل ما يتكون منه الفطور وله فى قائمة كل مقهى جانب خاص، ويمتد زمن هذه القائمة من الصباح إلى الساعة الحادية عشرة أو بعد ذلك بحسب مستوى كل مقهى .

ومقاهى برلين لا تراها إلا مفتوحة، مزدحمة بالوافدين عليها حتى الساعة المتأخرة، وإذا ما استيقظت مبكرًا تجدها مستعدة لاستقبال روادها المبكرين يتناولون أقداح القهوة الساخنة بلهفة وسرعة وهم فى طريقهم إلى حيث يعملون، يتركون أماكنهم لهؤلاء الذين يبدأون يومهم وقد انتصف النهار أو كاد .



تذكار الحرب

بين طرفى شارع انتردن لندن العظيم ، طوت ألمانيا صفحة خطيرة من تاريخها ، بين بوابة براندنبرج الهائلة من ناحية وبين القلعة الملكية من الناحية الأخرى ، يطوى السائر مرحلة فقدت فيها ألمانيا إمبراطوريتها فى خلال سنين أربع كانت خلالها تجاهد فى سبيل كيانها ، تجاهد العالم بأسره ، وكانت برلين فى أثنائها ساهرة لا تنام ولا يسكن لها قلب.

* * *

أغسطس سنة ١٩١٤

شارع انتردن لندن مزدحم بمئات ، بآلاف من الناس ، فى حالة هياج ، فى حالة ثورة صاخبة ، الأصوات تردد النداءات بنبرات عصبية هائجة ، وآلاف المنشورات تطير فى الجو وتحملها الريح تحت أغصان أشجار اللندن التى على جانبى الشارع .

ثم جاء المساء .

ووقفت هذه الجموع على جانبى الطريق تتجه أنظارها إلى بوابة براندنبرج الهائلة وهى دار الرشستاغ .

وعلى شرفة من شرفات الرشستاغ ، وقف غليوم الثانى يُحيى الشعب الهائج المائج ، ويستعرض فرق الجيش فى ملابسها الجديدة وقلنسواتها اللامعة ، وهى تسير تحت أقواس هذه البوابة التاريخية .

هذه ليلة إعلان الحرب .

* * *

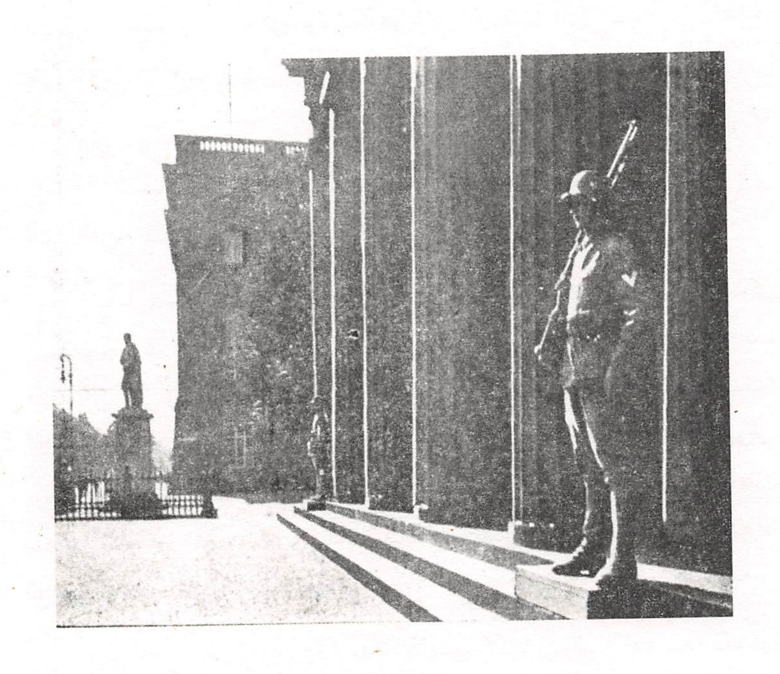
ثم مرت الأعوام الأربعة ، وقد أتت على كل شيء اللهم إلا على حيوية ذلك الشعب المهزوم .

لقد خفضت تلك الأصوات ، وبردت تلك الثورة التى زادتها حدة حرارة الصيف من سنين مضت .

وسارت تلك الجموع فى حسرة وفى ألم ، وفى سكون قاتل ، وقد نفضت أشجار اللندن أوراقها ، لأن الوقت كان خريفًا ، وكانت القلوب كذلك فى خريفها قلوب الآباء والأمهات الثواكل ، وهى تسير إلى نهاية شارع انتردن لندن بعيداً عن بوابة براندنبرج ، تسير إلى بناء أغبر من الحجر المنحوت كان خاتمة المطاف ، ونهاية المرحلة القاسية .

فى هذا البناء ذى الأعمدة الحجرية والباب الواطئ والسقف المفتوح إلى السماء كُتب الفصل الأخير من قصة الحرب فى برلين، فى هذا المكان دفنوا الجندى المجهول.

* * *



على درجات تذكار الحرب

وإذا ما دلفت إلى هذا البناء من بابه الواطئ المنحوت الذى يحرسه جنديان، كأنما رُسمت على وجهيهما تجارب تلك السنين القاسية ، حتى لا تكاد تنبض فيهما نبضات الحياة ، إذا دلفت إلى ذلك المكان لا تجد شيئًا ، لا تجد إلا السكون ولا تشعر إلا بالوحشة التى تفيضها المعابد على نفوس المتعبدين .

وفى وسط هذه الحجرة المربعة ذات الجدران المنحوتة من الحجر لا تجد إلا قطعة من الصخر الأسود ممدودة على تراب المكان الأغبر هى التى دُفن تحتها الجندى الألمانى المجهول .

ما أبعد الفرق بين هذا المكان وبين نصب الجندى الإنجليزى المجهول فى هوايت هول ؟ وما أروع الفرق بينه وبين ذلك النصب الإيطالى فى المتحف الفاشيستى فى روما ، الذى يمثل النفسية الإيطالية التى تميل إلى الاصطناع حتى إنها لتفسد على الموتى سكونهم ، بصخب الموسيقى الذى يرتفع حينًا بعد حين فى قاعة سُلطت عليها الأضواء المصطنعة فأحالتها إلى مسرح يجذب الأنظار ولكنه لا يبعث إلى قلب الزائر وحشة ولا رهبة !

وما أروع الفرق بين هذا المكان الذى كأنما رَسَمَته الطبيعة نفسها فى بساطة وجلال ، وبين النصب الفرنسى تحت قوس النصر ، فى حدائق الشانزليزيه الفاخرة ، قد مسحت بجمالها رواءه ، وبتماثيلها العارية عظمته الذاتية ؟

* * *



هندنبرج أمام قبر الجندى المجهول

ثم ندور حول هذا الحجر الأسود وعيوننا إلى الأرض نستعرض ما كُتب على أكاليل الزهور ، وفى كل سطر من سطورها تتمثل لنا قصة الحرب الخالدة فى صورة من صورها العديدة.

فأكاليل المحاربين القدماء الذين رفضت الحرب قربائهم تذكّر الزائر الألمانى بأنشودته الخالدة « رفيقى » التى يغنيها كل صبى ألمانى فى مدرسته ، وينشدها كل جندى ألمانى خر رفيقه تحت قدميه فى ساحة الحرب.

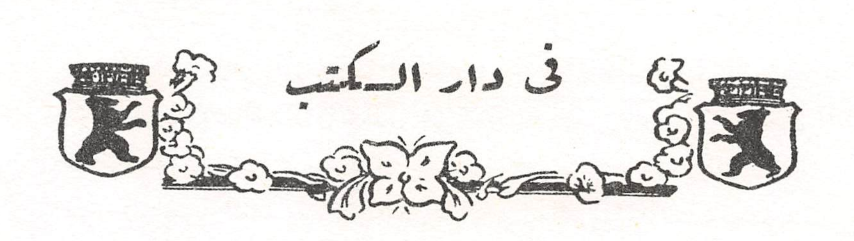
* * *

ولكن الأكاليل التى كتبت بالإنجليزية أبلغ من جميع هذه الأكاليل أثرًا ، أكاليل أولئك الذين لم يقفوا إلى جنب هذا النائم تحت قبة هذا المكان ، ولكنها أكاليل الذين وقفوا فى وجهه ، إن هذه الأكاليل نصرٌ أبدى للإنسانية ، التى وإن هاضت جناحها النزعات والمطامع إلا أن الموت يُرجعها إلى وحدتها فى نهاية المرحلة .

وما خفقت فى نفسى مثل هذه الذكريات تستثيرها نصب الحرب ، إلا مرة سابقة تحت بوابة منن على سهول يبرس فى بلجيكا ، البوابة التى نصبت تذكارًا لثلاثين ألفًا من الإنجليز ماتوا فى تلك السهول فى الأسبوع الأول من الحرب ، ونقشت أسماؤهم التى لا عد لها على جدران هذه البوابة التاريخية . وملئت أركانها بمئات من الأكاليل من الآباء إلى أبنائهم الذين قضوا فى المكان ومن الزوجات إلى أزواجهم ، ومن المحاربين الألمان إلى رفاقهم الذين خلدوا بطلقات بنادقهم هذا النصب .

* * *

لا يخلد للإنسان جلال الذكرى وعظمة التضحية بالنصب والأكاليل ، ولا بالتفنن والابتكار فى الأبنية ، التى وإن بهرت العين بضخامتها إلا أنها لا تهبط إلى شغاف القلب كما يفعل بالنفس هذا المكان الحجرى البسيط وهذه الغرفة الجرداء التى يرقد تحت سقفها المفتوح إلى السماء ، الجندى الألمانى المجهول .



فى دار الكتب

من الساعة التاسعة صباحًا إلى الساعة التاسعة مساءً !

اثنتا عشرة ساعة كاملة تفتح فيها دار الكتب الحكومية فى برلين أبوابها للقارئين ، وبين هاتين الساعتين يجد القارئ الباحث المحص وقتًا طويلاً للاستيعاب والمراجعة والبحث .

وفى أرقى أحياء برلين وفى أبهج طرقاتها ، فى شارع اونتردن لندن تقع مكتبة برلين الحكومية ، تفاخر ببنائها العظيم دار الأوبرا التى تواجهها ، والمتحف الحربى الذى لا يبعد عنها إلا قليلاً ، ولا تقل فخامة ولا ضخامة عن جامعة برلين نفسها التى تجاورها فى البناء .

وإذا ما دخلت من أحد الأبواب الحديدية ، وخلفت على يسارك بناء أكاديمية العلوم وتخطيت الحديقة الصغيرة التى تفصل البناءين والتى لم أرَ يومًا حوضها الأوسط إلا جافًا ، اللهم إلا إذا سقط المطر ففاض فى كل مكان ، إذا كان، ذلك، ودفعت أحد البابين الزجاجيين وجدت نفسك فى طريقك إلى قاعة المطالعة .

وهذه الحديقة الصغيرة لا تكاد تخلو يومًا من المنتظرين والمنتظرات

وقد اتخذن حوافى النوافذ مقاعد للجلوس وهى قد خلت الحديقة منها ، أو من صفوف التلاميذ وهم فى جولاتهم بين المتاحف والمعارض والمكاتب التى تكثر فى هذا المكان من المدينة ؛ ثم لا تكاد تخلو الحديقة الصغيرة من المدخنين ، الذين امتنع عليهم التدخين فى البناء نفسه ، فيخرجون إليها جماعات من حين إلى حين لإشعال سجائرهم وللتفريج عن حناجرهم المقفلة فى قاعة المطالعة .

تدفع بابين زجاجيين الواحد بعد الآخر حتى تصل إلى الردهة الكبرى فتدخل فلا تكاد تسمع همسًا فى هذه الردهة العالية الرحبة ، فقد حُبست الأصوات وانعدم الكلام حتى إنك لتحذر أن تجر قدميك فى السير ، أو أن تسأل عابرًا عن مكان الأمين .

والدخول إلى مكتبة برلين مقصور على المشتركين ويستثنى الزائرون الذين يقنعون بالتفرج على البناء ، وقد كنت فى بادئ الأمر زائرًا قانعًا كهؤلاء إلا أننى بعد ذلك كنت من رواد الدار الثابتين الذين يفدون عليها كل صباح ، ولا يبرحونها إلا وقد آن وقت العشاء والسهرة أو النوم .

وقد تكون مشتركًا أسبوعًا واحدًا ، وقد تشترك عامًا كاملاً فيحق لك أن تستعير إلى خارج الدار ، وإذا انعطفت إلى اليسار وأنت فى الطابق الأرضى حيث هذا القسم الخاص بالاستعارة الخارجية تجد منظرًا ليس له نظيرًا فى مكاتب أوربا جمعاء ، ليس له نظير فى دارنا على كل حال !

تقف حول الحاجز النحاسى الذى يذكرك بحواجز البنوك وقد قسمت نوافذه بحسب الجروف الهجائية توزيعًا لضغط الزائرين ، تقف لتسأل على كتابك الذى تريد استعارته فى خارج الدار، فيخبرك الواقف وراء الحاجز بأن أربعًا وعشرين ساعة على الأقل تلزمه للبحث عن كتابك ، فتظن أن لكتابك أهمية خاصة تستلزم البحث الدقيق بين أطباق الكتب المنسية ، ولكن ذلك نظام الدار .

ثم يحضر شاب من أولئك الشبان الذين تميزهم فى ألمانيا بقمصانهم وبسراويل الرحالة وبالأحذية الخفيفة الواطئة ، أولئك طلبة الجامعات أو غيرهم من طلاب العلم ، وكل شاب فى ألمانيا طالب علم .

تسمع هذا الشاب وهو يسأل عن كتبه التى طلبها من الأمس أو أمس الأول ، فيخرج له الواقف وراء الحاجز النحاسى رزمة من الأوراق ، رزمة كاملة يراجع فيها أسماء الكتب التى يسأل عنها فإذا ما انتهى ذهب إلى أحد رفوف المكان وعاد وهو يحمل كومة من الكتب تصل إلى أذنيه ! وسرعان ما ترى الشاب وقد فتح جوالق معه وملأه بهذه الكتب وحزمه وحمله على كتفه !

وقد تكون الواقفة بجانبك فتاة - صنو ذلك الفتى- ترفع من ظهرها حقيبة من القماش كتلك التى يحملها الجنود أو الرحالة وتملأها بكومة أخرى من الكتب ؛ وترفعها على ظهرها وتربطها تحت إبطيها بسيور الجلد.



شارع انتردن لندن حيث تجد فى طرفه الأخر دار الكتب

وهكذا يخرج الصديقان الفتى والفتاة هذا يحمل جوالق على كتفه ، وهذه حقيبة من حقائب المحاربين على ظهرها ، يخرجان من دار الكتب إلى شارع اونتردن لندن ، ويمران على الجالسين على مقاهيه الفاخرة ، فيظن الأجنبى الزائر هذين الرفيقين من أبناء الكشافة يحملان زادهم فى الجوالق والحقائب ، ولا يعلم أن هذه الجوالق ملأى بكتب الفلسفة أو الفنون .

* * *

ثم ترجع إلى الردهة الكبرى لتعتلى الدرجات العريضة التى تقودك إلى الردهة العليا ، التى لا تدخلها إلا بعد أن تمر على من يراجع بطاقتك ، ويتأكد من أنك لا تحمل إلا الورق الأبيض .

وفى صدر المكان قاعة المطالعة الكبرى وهى فخر هذه الدار عظمةً وفنًا وتنسيقًا وهى على شكل دائرة كبيرة ، تحوى نحوًا من أربعمائة مقعد للمطالعين ، تحيط بهم القماطر العالية المملوءة بكتب المراجع ، وهذه تعد بعشرات الآلاف .

وفى ذلك تشبه هذه القاعة ، قاعة المطالعة فى مكتبة المتحف البريطانى فى لندن ، إلا أن هذه تفوقها من حيث جمال التنسيق ، ومن حيث الهدوء والروعة التى يشعر بها القارئ إذا ما احتوته حتى ليجيش فى نفسك ذلك الإحساس الذى تشعر به فى المعابد . أما فى مكتبة المتحف البريطانى فجماعات الزائرين يرتادون جوانب المتحف كل يوم ،

والذين يطلون عليك من باب القاعة الزجاجى وأنت جالس ، يضعفون من رواء هذه الروعة التى تشعر بها فى هذه القاعة .

وهذه الآلاف من كتب المراجع فى متناول كل قارئ يسعى إليها بنفسه دون أن يطلب إذنًا أو يكتب رقعة ؛ وهى تحتوى قواميس اللغة ودوائر المعارف ، والفهارس والأطالس وكتب الأدب والتاريخ المشهورة .

وعلى يسار القاعة العليا تدخل فى جناح طويل خاص بأنواع الفهارس ، إذ إن هذين المليونين من الكتب التى تحويها هذه الدار قد رتبت على كل أساس حتى لا يجهد القارئ نفسه فى البحث والاستقصاء .

وأهم هذه الفهارس ، فهارس المؤلفين وهى التى نظمت بحسب الحروف الأبجدية ووضعت فى مجلدات ضخمة بلغت المئات عداً ، وأوضح ظاهرة فى هذه القاعة ، تلك العربة المحملة بالكتب التى يدفعها الملاحظون وهم يدورون حول هذه المجلدات يضيفون عليها ويلصقون فى صحائفها القصاصات المطبوعة بأسماء الكتب الجديدة ، فلا يكاد يظهر مؤلف جديد حتى يجد طريقه إلى الفهرس الخاص .

ثم تدخل قاعة طويلة مزدحمة بالمجلات، وهى فهرس الدار بحسب الموضوعات ، بتفصيل وتدقيق ، فالتاريخ فى نظرهم ليس موضوعًا ، بل هو محيط من الموضوعات كل قسم منه مستقل بنفسه ، فتاريخ المكسيك مستقل عن تاريخ إسبانيا ، وتاريخ العرب مستقل عن تاريخ العراق وهكذا .

وعندما سألت المراقب عن فهرس الكتب الموضوعة عن برلين قدَّم لى مجلدين عظيمين ، ظننت أنهما لا يحويان إلا أسماء الكتب التى وضعت عن برلين ، ولكنهما اشتملا كذلك على المقالات التى نشرت فى الصحف والمجلات عنها بل وقسم هذين المجلدين إلى موضوعات جزئية مستقلة ، ففيهما فهرس عن الكتب الخاصة بتاريخ برلين ، والتعليم فى برلين ، والحياة الاجتماعية فى برلين ، وأبنية برلين ، بل وإنهم خصصوا جزءًا عما كُتب حتى عن الدعارة فى برلين ! وغير ذلك فهارس البطاقات وهى تحتل جناحًا مستقلاً. فأنت ترى أن القارئ على هذا الأساس الدقيق لا يقف مكتوف الأيدى فى بحثه إذا كان على غير علم بما يبحث عنه .

* * *

والقسم الشرقى فى هذه الدار مكتبة مستقلة كاملة ، لها قاعتها وبها الإخصائيون العارفون بأسرارها .

على يمين الردهة العليا ، تقع قاعة المطالعة الشرقية ، وقد صفت فيها المقاعد والمناضد الواسعة صفوفًا ، وجهزت بالمصابيح الكهربائية زيادة فى تيسير القراءة على الجالسين ، وحول هذه المقاعد خزائن المراجع من القواميس ودوائر المعارف وأمهات الكتب الخاصة بتاريخ الشرق والمجلات الشرقية الشهيرة التى لا غنى عن الباحث عنها .

وللمجلات والدوريات والصحف الشرقية جناح مستقل فى جوار

هذه القاعة تجد فيه ما يصدر فى الشرق وما يصدر عن الشرق من هذه الصحف .

وفى صدر هذه القاعة باب يوصل إلى مخازن الكتب ، دخلناها فكأننا فى متحف من المتاحف الأنيقة ، فهذه اللوحات الشرقية التى تزين الجدران ، والتحف العربية التى نثرت بين أكوام الكتب على المناضد من أباريق وطسوت كل هذه أكسبت المكان روعةً وذوقًا .

وكان الدكتور س . . رئيس القسم العربى فى الدار فخوراً بما جمع من تحف ومن كتب نادرة ، فترى الزهو يملأ عينيه وهو يتحدث عن آلاف المخطوطات العربية النادرة التى ليس لها مثيل فى أى مكتبة فى العالم ، ثلاثة عشر ألف مخطوط عربى ! أى بلد عربى يحوى مثل هذا العدد ؟ ولماذا لا يتيه وهو يعدد أسماء الكتب النادرة التى لا وجود لها إلا فى خزانته كالطبعة الأولى من تاريخ الطبرى مثلاً .

ثم تسأل عن مصادر هذه الكتب، وكيف تسنى لهذه الدار أن تجمع هذه الكنوز من المؤلفات من بغداد والقاهرة ودمشق وإستانبول والهند وغيرها !

وإنك لتعجب حين يحدثك أن الجيوش الألمانية بينما كانت فى سوريا إبان الحرب العظمى كان رجالها لا يفترون بحثًا عن هذه النفائس وهم فى ميدان الحرب ، إنك لتدهش لهذه العقلية الألمانية التى لا ينسى أصحابها هول الحرب واجبًا ثقافيًا كهذا .

وآلاف من هذه الكتب النادرة والمخطوطة الفريدة جُمعت من إستانبول بلا ثمن إبان حروب الأتراك مع النمساويين منذ ثلاثة قرون أو يزيد ! عندما تسمع هذا الحديث تشعر حقًا بهذه العظمة التى تتمثل فى دار الكتب فى برلين، التى بثت رسلها من غير السفراء والقناصل فى كل ركن من أركان الأرض يرسلون لها كل نادر نفيس وكل جديد فى عالم التأليف والكتب والمجلات .

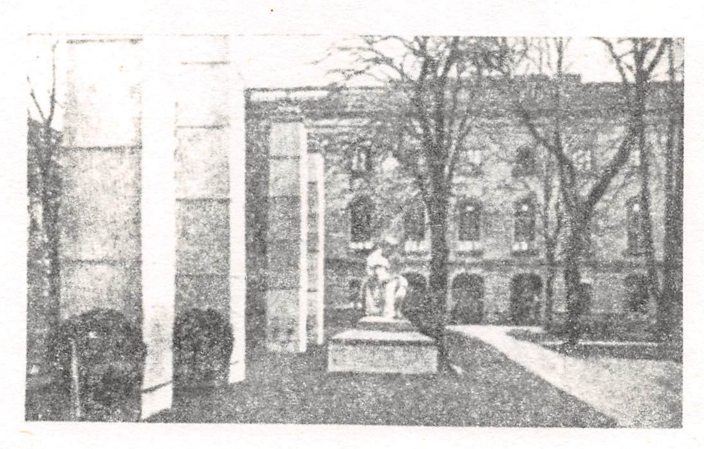
وإذا ما كنت فى طريقك إلى خارج الدار تجد قسمًا للتصوير الشمسى ، لنقل ما يريده القارئ من صور أو طرائف مما يجده فى هذه الكتب النادرة أو المخطوطات بأجر زهيد لا يعدو نصف مارك للصورة الواحدة .

وبعد أن قضيت أيامًا طويلة أتردد على هذه الدار لم أكتشف إلا بعد أن أنجزت مهمتى فيها ، ذلك المطعم الصغير الأنيق ، الذى لا يكلفك إلا أجزاء صغيرة من المارك لتتناول قدحًا من الشاى أو القهوة ، أو الحساء أو السمك ، إذا ما أردت أن تواصل ساعات النهار ولا تكلف نفسك مؤونة الخروج عارى الرأس دون معطف (بعد أن تخزنها فى حجرة الملابس) إلى أحد مشارب انتردن لندن أو فريدريش اشتراسا .

ولا شك أن فنجانًا من الشاى أو القهوة فى الوقت المناسب حين يعمل الصداع فى رأس القارئ لمِن أمتع ما ينتظره متردد على هذه الدار .

خطوات قليلة تقودك إلى مكتبة جامعة برلين ، ففى كل جامعة فى ألمانيا ، وهى تنوف عن ثلاثين عداً ، مكتبة عظيمة جامعة .

ولكل مكتبة من مثل هذه المكتبات ، اختصاص تتميز به عن غيرها ، اختصاص يجعلها المرجع الأخير فى هذا الفرع من الدراسة . ومكتبة جامعة برلين هذه تختص بجمع الرسائل العلمية التى تقدم من جامعات العالم المختلفة، فما أن نكتب رسالة فى أى فن من الفنون فى أية جامعة من جامعات الأرض فى سدنى أو كلفورنيا أو ليون أو منشستر حتى ترسل صورة من هذه الرسالة إلى مكتبة جامعة برلين . كما أن مكتبة كيل اختصت بجمع المؤلفات الإسكندناقية ، وجوتنج بجمع الأدب الإنجليزى .



فى حديقة جامعة برلين ودار الكتب

ولهذه المكتبة قاعتها الكبرى ، وفهارسها المطولة التى رُتبت على أسس أربعة ، وحوت نحواً من أربعمائة ألف كتاب . ولم يرد مديرها الظريف الدكتور ... إلا أن نزور أقسامها وحجراتها قسماً قسماً وحجرةً حجرة ، وفى كل منها ملاحظ مختص ، حتى أن تجليد ما يرد إلى الدار من الكتب الجديدة لا يكون إلا بعد أخذ الرأى من حيث ألوانها وبضاعتها وتناسبها مع موضوع الكتاب ؛ حتى لا تتضارب لوناً وتنسيقاً .

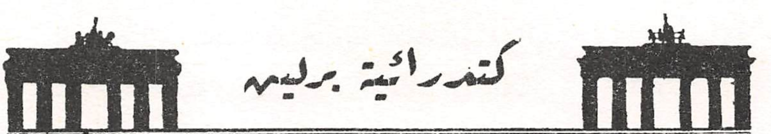
ودخلنا القاعة الخاصة بالمؤلفات الجديدة وهى التى تُعرض فيها كتب الأسبوع قبل إرسالها إلى حيث تُغلف من جديد ، ورأينا الجريدة



باعة الكتب القديمة

اليومية التى تصدرها جمعية الناشرين فى ليبزج مركز الطباعة عن المؤلفات الحديثة فى كل مادة . تصور أيها القارئ جريدة يومية عن الكتب المكتبات !

وعشرات من دور الكتب العامة والخاصة فى برلين حتى لا يكاد فن من الفنون يخلو من مكتبة خاصة به ، فالموسيقى لها مكتبتها والفنون الحربية لها واحدة ، والتعليم له أخرى ، والهندسة والبناء والفنون والوثائق الرسمية لكل منها مكتبة مستقلة ، حتى إنك لتشعر أن برلين مدينة للمكتبات العامة ليس إلا .



كتدرائية برلين

لو أن النداء إلى الصلاة يجمع هذا الفوج الوافر من الناس ، ينتظرون أن تُفتح الأبواب للابتهال وللقنوت والاعتبار ، كما اجتمع هذا الفوج الوافر أمام كتدرائية برلين ، لو أن ذلك كان خالصًا جميعه لله ، لهان على رجال الدين الأمر ، ولما أعوزتهم الوسائل فى بث روح التدين والعبادة بشتى الأساليب ومتنوع الطرائق .

ولكن هذا الفوج الوافر - الذى كنت أجده - والذى وقف على باب كتدرائية برلين ينتظر الدخول ، وقد حمل كل فرد من أفراده بطاقة حمراء دفع ثمنها عشرون فنشًا دون أن يُدعى إلى ذلك ؛ ولكن هذا الفوج ما كان ليقف أمام كتدرائية برلين وما كان ليدفع هذه الفنشات العشرين أجرًا لركوعه وسجوده ، ولكنه جاء طائعًا مختارًا لكى يرى المكان ، ويشاهد بدائع التماثيل المنحوتة ، والجدران المزخرفة المنقوشة ، والصور الرائعة الجميلة ، وتحف الفن القديم !

وكتدرائية برلين بأعمدتها العديدة وبأبوابها الاثنى عشر وبقبتها المذهبة الضاربة إلى السماء والتى تفاخر المتاحف الكثيرة التى تجاورها ، ككل بناء من أبنية العبادة الفاخرة و تحفة فنية تستهوى العين ، وتهز قلب الزائرين لا خشية وتبتلاً بل إعجابًا وزهوًا تحويه من

أعمدة المرمر ودرجات الرخام المشجر ، وتماثيل القديسين المصقولة وصور الدين الزاهية الأصباغ .

وعندما فتح الباب الحادى عشر ، وسرنا مع السائرين يقودنا دليل عارف بأركان المكان يحمل مفاتيحه الكثيرة إلى حيث الكنيسة وهى جزء واحد من المكان، جلسنا فى صدر القاعة الخشبية ذات صفوف المقاعد ، والتى وضع على كل صف منها رقم كما تُرقم المسارح الكبيرة ، فظننا أن الوقت وقت عبادة، فقلت ليس من حرج أن نسمع عظة وليس فينا من ليس فى عوز من الاعتبار .

ولكن بعض الزائرين ممن يحملون كتب الأدلاء وآلات التصوير لم يجدوا صبراً على الجلوس والاستماع ، فهربوا كما يهرب صغار التلاميذ من درس قاسٍ لا يستسيغونه ولا يرتاحون إلى سماعه .

ولكن الدليل بدد هذا الجزع ، جزع التعبد ، وراح يشرح لنا فن البناء لا أساليب الدعاء ، وبدائع التماثيل لا روائع التراتيل .

وفى صدر المكان صورتان رائعتان ذات ألوان زاهية بديعة من صور السيد المسيح ، قد نُقشتا على الزجاج وانعكست عليها شمس ذلك اليوم الصائفة فكست المكان روعةً وجلالاً ، وخلف المكان شرفة مذهبة منقوشة كانت ولا شك مجلس الأباطرة السابقين ، إذا ما حضروا الصلاة لأجل الصلاة أو لغاية غيرها ، ينظرون إلى الشعب المتعبد من عليائهم ، يستثيرون حبه بتعبدهم .

وبعد دقائق خمس قام الجالسون يتدافعون إلى الجانب الآخر من الكتدرائية ، وقد اتخذت مدفنًا ملكيًا لعائلة هو هنزلرن ، وفى وسط القاعة المرمرية الدائرة نصب كبير من الحجر الأسود نُقش عليه صليب ذهبى ساذج أشبه شىء بمقبرة الجندى المجهول ، ثم على القرب منها مقبرة بديعة لفريدريش الأكبر منحوتة من المرمر قد زُينت بتمثال دقيق الصناعة للملك الراحل ، وحول هذه القاعة مقصورات من الرخام والمرمر الناصع فى كل منها مقبرة من هذه المقابر الملكية بعضها خلو من أصحابها ، فتذكرك هذه الحقيقة بما خلده أديسون عن مقابر ديروستمنستر التى أُقيمت وأصحابها فى سهول ترنهيم أو فى جوف المحيط .

ولكن خلو التاريخ الألمانى من شخصيات تاريخية عديدة ، هو الذى جعل لأكثر من ملك واحد من ملوكهم أكثر من مقبرة وأكثر من تمثال ، من التماثيل الحديثة تمثال لبسمارك ، تمثال فاخر من المرمر الأبيض ، يمثل فى فنه ، الفرق الشاسع بين عصر وعصر .

ثم تخترق الكنيسة ثانيًا إلى جانب آخر من البناء فى صدره درج من حجر أحمر مصقول يقود إلى الطابق العلوى وإلى الشرفة الملكية وقد زينت جدرانه وسقوفه بصور فلسطينية رسمها الفنان فى وطنها ، ذكرتنا بآبارها وبنخيلها وجميزها وحميرها النائمة ، قرى صعيد مصر .



كتدرائية برلين

ومن أحد الأبواب التى تطل على متحف الآثار القديمة خرج الفوج الأول من كتدرائية برلين .

وما أن أقفل الدليل الباب من ورائنا ، حتى راح من جديد يستقبل الفوج الثانى الواقف خلف الباب الحادى عشر ينتظر الدخول . . .



المتحف المسرحى

فى الطريق إلى المتحف المسرحى ، تملكتنى هزة الرجل الذى يقدر الفن ، والذى يرى أن الحياة مدينة ببهجتها للفنانين والذين يقدرون الفن من أمثالى . . . ولكن هذه الروح الثائرة طارئة عندى خلقتها الظروف والمناسبات !

ولم أرد إلا أن أستهلم وحى الفن بوقفة على الاسبرى أُمتع النظر بتمثال فردريك الأكبر البديع الذى يحرس قلعة برلين الملكية ، فاشتريت رطلاً من العنب واتكأت على إفريز النهير أستمتع بهذا العنب الشهى ، وأرمى بحباته إلى الأوز الذى تجمع تحت أقدامى يلتقطه بمهارة وحذق .

وكان كل ما حولى يستهوى الشاعرية ويهز الخيال ويشيد بعظمة الفن ، جاء إلى جانبى شاب قد خلع معطفه وحمل تحت إبطه حقيبة يتمهل فى سيرة لأنه كان ينظر إلى الماء وإلى الأوز السابح وإلى الذين يلهون بصيد الأسماك تحت أقدام تمثال فردريك على الضفة الأخرى من النهير .

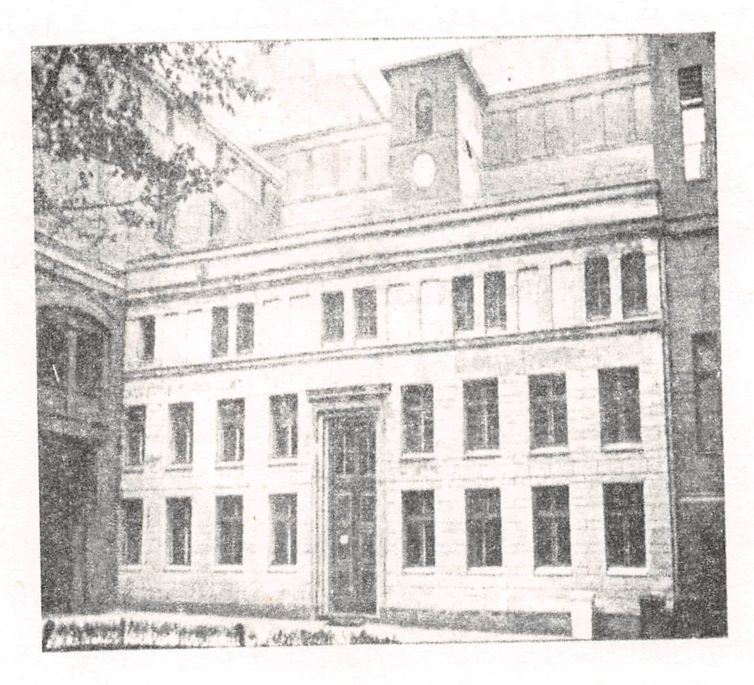
ثم وقف هذا الرفيق بجانبى ، ورأيت فى عينه أنه يبحث عمن يحدثه ، وأمثال هؤلاء كثيرون فى برلين ، ولكنه ما كاد يفتح فمه حتى هبط حماسى إلى قدمى وعلتنى قشعريرة ، لأن شفتا صاحبى كانتا ترجفان ولكنه كان يكلمنى وعينه مسجاة ، نعم إنه جاء ليحدثنى عن أنه فنان بائس ..

وفى لمحة كانت يدى فى جيبى تبحث عن عشرة فنشات لتضعها فى كفه وهو لم يتم حديثه بعد ، وما كاد صاحبى يأخذ هذه الفنشات العشر حتى أخذت شفتاه ترجف بأشد من ذى قبل ، وأخذ وجهه يرتجف ، ثم دمعت عيناه ، ثم أجهش فى البكاء !

ليس أقتل للنفس من أن ترى رجلاً فتيًا قويًا كاملاً فى كل شىء ، من أن تراه يجهش فى البكاء!

تواترت على ذهنى سلسلة من الخواطر وشعرت بأننى جرحت رجولة صاحبى بهذه الفنشات العشر الضئيلة وهمت بمضاعفة هذه الهبة ، ولكن صاحبى لم ينتظر بل سرعان ما شكرنى بشفتيه المرتجفتين ، وسار يجاهد سيل الدموع التى لا تريد إلا انهماراً ، وأخذت أرقبه وهو يسير مرتجف الخطوة حتى عبر قنطرة النهير . .

كان هذا فى طريقى إلى المتحف المسرحى وتحت جدران دار الأوبرا العظيمة ، وفى الساعة التى شعرت فيها بأننى أعيش للفن وبإلهام الفن فى الساعة التى شعرت فيها بأن الحياة تافهة بدون هؤلاء الفنانين .



المتحف المسرحى

ثم سرت أجر قدمى إلى المتحف المسرحى ، وقد استحال ذلك الحماس شعوراً مقبضاً ، بأن هؤلاء الفنانين يُجرمون فى حق أنفسهم ، وأن هذا الرجل الكامل الذى ضحى بكرامته فى سبيل الفن لو أن هذا الرجل كان يبيع عنباً مثل هؤلاء الذين وقفوا بعرباتهم على ضفة الاسبرى لو فعل صاحبى هذا وما همست نفسه بذكرى الفن لما جعلنى أبكى لآلامه . .

ثم بحثت عن المتحف المسرحى فى دار طويلة عريضة احتل أحد أركانها ، فقيل لى إن المتحف قد أوصدت أبوابه ، لأن هذه الأبواب لا تفتح إلا ساعتين كل يوم ؛ فشعرت بغبطة لهذا الفشل لأننى لا أريد أن أذهب لأرى متحف الفن بنفس كسيرة حزينة على أهله .

* * *

فى ركن منزوٍ من البناء الكبير الذى اتخذ اتحاداً للممثلين ، يحتل المتحف المسرحى طابقاً متواضعاً ، وصلت إليه بعد أن سألت أكثر من واحد ، وأنا فى فناء البناء نفسه .

وفى هدوء شامل اعتليت الدرجات الخشبية ودخلت المكان وبدأت أستعرض صوره وتماثيله دون أن أجد دليلاً أو أميناً أو حارساً له . ولقد كان السكون عميقاً جعلنى أتنبه بحذر إلى دقات أقدامى على أرض الطابق الخشبية . وبعد دقائق سمعت حركة فى ركن من المكان وصوت تقليب أوراق ثم جاء إلىّ رجل يحمل رزمة من المظاريف والأوراق



دار الأوبرا فى الليل

والكتب القديمة تتمثل فيه قناعة الفليسوف وزهد الفنان ، ومنحنى تحية المضيف الكريم إلى ضيفه ، ولا شك أن مضيفى هذا قطعة فنية بديعة من معروضات المتحف نفسه .

* * *

وأول ما يستقبل نظر الزائر نماذج مجسمة لبعض المسارح القديمة ، ثم مناظر مجسمة لبعض المناظر المسرحية أو هى على الأصح صور مصغرة لمناظر بعض القطع المسرحية الهامة أمثال فاوست وهاملت .

ثم يجد الزائر نماذج حقيقية لوسائل الإضاءة فيما كان يستعمل فى العصر الماضى من شمع وقناديل زيتية وغازية ، ثم نماذج للأزياء التى يستعملها الممثلون من دروع وأسلحة نموذجية .

وجدران المكان مزينة بصور المؤلفين المسرحيين وبصور الممثلين والممثلات ، عشرات من الصور تلمع فى عيون أصحابها لا سيما تلك التى عفى عليها الزمن ، لذة الألم التى هى كل سلوى الفنان ، وبريق الانكسار الذى يشع من عيون الضحايا الذين يشعرون بأنهم أعطوا كل شىء فى سبيل وهم الشهرة ، وأمثال هؤلاء لا يعرفون أن الجمهور الذى يصفق لهم وهم على خشبة المسرح ما أسرع أن ينسى أسماءهم وصورهم إذا ما خطا عتبة بابه .

فبين هذه العشرات من الصور والتماثيل لا أكاد أميز وجهًا وحدًا أو أذكر اسمًا واحدًا ؛ وكثيرون هم أمثالى جهلاً أو أقل كفرانًا .

ويجد الزائر مقاعد مذهبة بديعة مما يستعمل على المسرح وضعت لراحة الزائرين ، وما أشد ما تثيره هذه المقاعد المذهبة فى نفس الزائر ، تذكره بذلك العالم الخيالى الذى يعيش فيه هؤلاء الفنانون الذين يجلسون على أمثال عروش الملوك ويلبسون تيجانهم حليهم على خشبة المسرح بينما يعيشون على الكسرة اليابسة فى بيوتهم !

وفى ركن من أركان المسرح نماذج من تيجان الملوك وحُلى الملكات الوهاجة، بيد أن ذهبها نحاس وماسها وزمردها ولؤلؤها زجاج ! ولكن ما أقرب الشبه ! ألسنا نحن الذين نخلق هذا الفرق ، فنمجد ما نجد فى جوف الأرض من أحجار ، ونهزأ بما نخلقه بأيدينا من شبيه رائع ؟ وهل تلك التيجان التى رأيتها حبيسة فى خزائن الزجاج وتحت عين الرقباء فى برج لندن أقل فخاراً من هذه التى أجدها فى متحف برلين المسرحى ؟ اللهم لا ، إن الفرق ضعيف حتى لا أكاد أن أسميه فرقًا !

وفى هدوء جولتى جاء إلىّ رفيقى دليل المعرض وحارسه ، ولعله تذكر حادثًا قديمًا جاء إلىّ يبتسم وسأل من أين أنا ؟ ولا أظن أن صاحبى قد توسم فى ملامحى مخايل الفن أو اكتشف من مشيتى أو ملابسى أو نظراتى أننى من حملة رسالة المسرح الخالدة ! ولكن المكان كان خاليًا فقد كادت تنقضى ساعة هى نصف الوقت الذى يفتح المتحف فيه أبوابه ولم يعرف طريق هذا المتحف سواى ! يالحسرة الفن ؟

ثم علم صاحبى أننى لست يابانيًا بل من أبناء النيل ، فما أسرع

أن قادنى إلى دفتر الزائرين ليُرَيني اسمًا مصريًا عرف قبلى الطريق إلى هذا المكان ولكن من سنين، ثم عـرفت أن هذا الزائر ممثلة برفـقـة ممثل من ممثلينا المعروفين !

بحثنا فى هذا الدفتر فلم نجد أحداً لأن رسول الفن هذا كان قد وفد منذ سنين . ولم يرد صاحبى إلا أن يقلب دفاتره القديمة ، ويرجع أربع سنين خالية لأرى اسم صاحبتنا وقد دون رفيقها وهو من ممثلينا المعروفين فوق اسمها بالفرنسية « الآنسة . . أعظم فنانة مصرية سنة ١٩٣١ »

فابتسمت كما يبتسم كل مصرى يقرأ مثل هذه الفقرة ، ولكن حمدت الله على أن اثنين من ممثلينا قد عرفا الطريق إلى هذا المكان .

ثم يجد الزائر نماذج من بعض المؤلفات المسرحية بخط أصحابها من بينها عدة مخطوطات، جيته وشلر وفاجتر وشتراوس ، ثم إن الزائر ولا شك يستـمـتع برؤية نماذج من بطاقات دخول المســارح مما كـانت تُستعمل منذ نحو قرن مضى ، ثم إنه ولا شك يستمتع برؤية نماذج من إعلانات الحائط القديمة ، من بينها إعلان ضخم لعرض رواية تانجوزر التى لحنها فاجنر فى دار الأوبرا فى باريس للمرة الأولى ، حددت فيه الساعة السابعة من مساء ١٢ مارس سنة ١٨٦١ لهذا العرض الأول .

ولم يشـأ رفيـقى الحـارس إلا أن يودعنى إلى خـارج المكان ، ولم يشأ إلا أن أزور وإياه المكتبة المسرحية التى تحتل الطابق السفلى والتى

تحوى ثلاثين ألف مؤلف مسرحى ؛ ولعله كان يحسن الظن بى ، وسواء أكنت فنانًا أم ممن يقدرون رسالة الفن فقد كنت أنيس صاحبى ساعة كاملة ، بددت فيها بخطوات حذائى- على أرض الغرفة الخشبية - وحشة المكان ووحدته .



فانزى



فانزى هى الدنيا ، إذا ابتسمت فكأنما الدنيا باسمة مستبشرة ، وإن هى أقفرت فكأنما الدنيا مقفرة عبوس؟

وفى فانزى تخلع برلين وتفتح فاها ، وتقترب من أهلها حتى إنك لتؤوب بعد أن ينقضى اليوم الواحد فتحسب أنك تعرف برلين وأهل برلين من زمان بعيد .

هذه فانزى حمام برلين !

* * *

تسأل كائنًا من كان فى برلين عن مكان تقضى فيه يومًا من أيام الصيف ، فلا تسمع إلا من يقول : عليك بفانزى .

وقد تحاور الخادمة بعد أن تنتهى من طعام الإفطار وتطلب منها أن تدلك على مكان يجد فيه الغريب سلوته ويرفه فيه عن وحدته ، فتجيبك وهى باسمة عارفة بأصول المحاورة « أما الوحدة فلا تقتلها غير فانزى ، الرفيق الذى تبحث عنه فى التو فلا تجده إلا فى فانزى ، وأما اليوم البهيج الممتع فلا تقضيه إلا على رمال فانزى . . »

وهكذا لا تجد بُدًا من أن تذهب إلى فانزى لتقضى يومًا من أيام الأحد ، من أيام الصيف الوضاءة الدافئة .

* * *

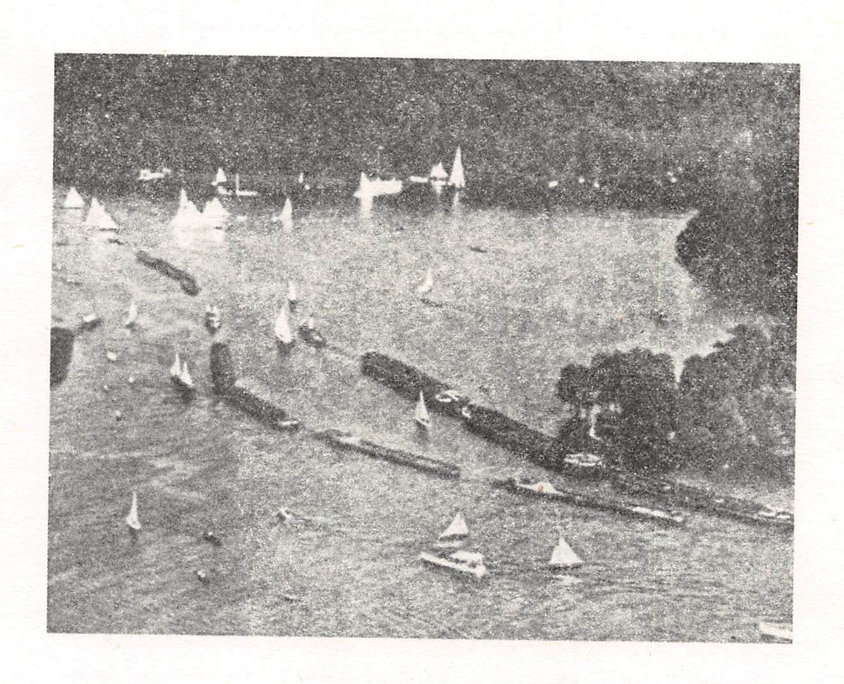
وفى أيام الآحاد الصائفة تجد عشرات الآلاف من أهل برلين طريقها إلى حمامات فانزى ، وقد حمل كل منهم حقيبة المشمع اللامعة التى احتوت على ملابس الماء وبعض الفاكهة ، وسار إلى ركن محطة بوتسدام حيث المحطة الخاصة بفانزى .

نصف مارك فقط ، هو كل الأجر الذى تدفعه للذهاب إلى فانزى وفى الدرجة الأولى ؛ ونصف هذا الأجر للدرجة الثانية .

ويسير بك قطار فانزى يحمل أهل برلين، كلٌ يمنى نفسه بيوم بهيج على ضفاف بحيرات فانزى ، وسرعان ما تخرج من قلب برلين ، وفى فريدناو تشاهد حيًا جديدًا من أحياء برلين تشاهد المستعمرات الجديدة بمبانيها الأنيقة البديعة وبالحدائق المصفوفة حول كل بناء وبأحواض الزهور متدلية من كل نافذة .

ثم تمر بالحديقة النباتية ؛ ثم ينعطف بك القطار غربًا إلى نيكولازى ، حيث هذه الحمامات ، أما إذا اختلطت بك الأسماء وطويت محطة أخري حيث فانزى نفسها ، فلا بد لك من أن تنكص على عقبيك نصف ساعة إلى حيث حمامات فانزى، ففانزى المدينة غير فانزى الحمامات .

بين صفوف من المقاهى الصيفية والمطاعم ومشارب الجعة ، تسير إلى حيث البحيرة . وإذا انقضى اليوم اكتظت هذه المشارب بالجالسين والراقصين ، ودوت فى جنباتها الموسيقى فرددت صداها غابات البلوط والزان المترامية حول المكان .



سحر فانزی

وأكثر ما يتجلى سحر الغابات فى المساء وفى ليالى الصيف وقد توارت الشمس ولم تبقَ إلا فتائل ذهبية نُثرت على جذوع هذه الأشجار كأنما الشمس الغاربة قد فاتها أن تجنعها قبل إقبال الليل ..

وبين صف من هذه الأشجار تسير إلى حيث الحمام وقد حلقت فى جوه الأعلام الزاهية كأنما المكان فى عرس حافل ، وليست هذه الحدائق المنسقة ، وليست أحواض الزهور الزاهية أقل بهجة من الأعلام المرفوعة فى كل ركن من أركان البناء .

وبينما أنت منحدر إلى البحيرة ، تقابلك جماعات الهاربين من زحام الماء ، يجلسون إلى أنفسهم فى هدوء واطمئنان بعيداً عن العيون الرقيبة وإن كانت فانزى خلواً من هذا الشر ، شر الرقباء .

وفى حمام فانزى تجد كل شىء ، وتبتاع كل شىء ، وتستأجر كل شيء ، فهناك قاعات فسيحة واسعة تبدل فيها الملابس ، ويجد فيها الزائر الماء العذب للاغتسال ، وتجد فى فانزى صيدلية مستعدة ، كما تجد مخازن بيع الهدايا والعطور واللعب والحلوى والفاكهة واللبن والمثلجات .

وفى طرف الشرفة التى تحيط برمال البحيرة مطعم واسع أنيق ، ظُللت مقاعده بالمظلات الملونة الزاهية ، أما إذا كانت الشمس قاسية ، أو إذا أمطرت السماء فيجد الزائر فى داخل البناء مطعماً أنيقاً تطل موائده من خلف جدران الزجاج على مياه البحيرة .

* * *

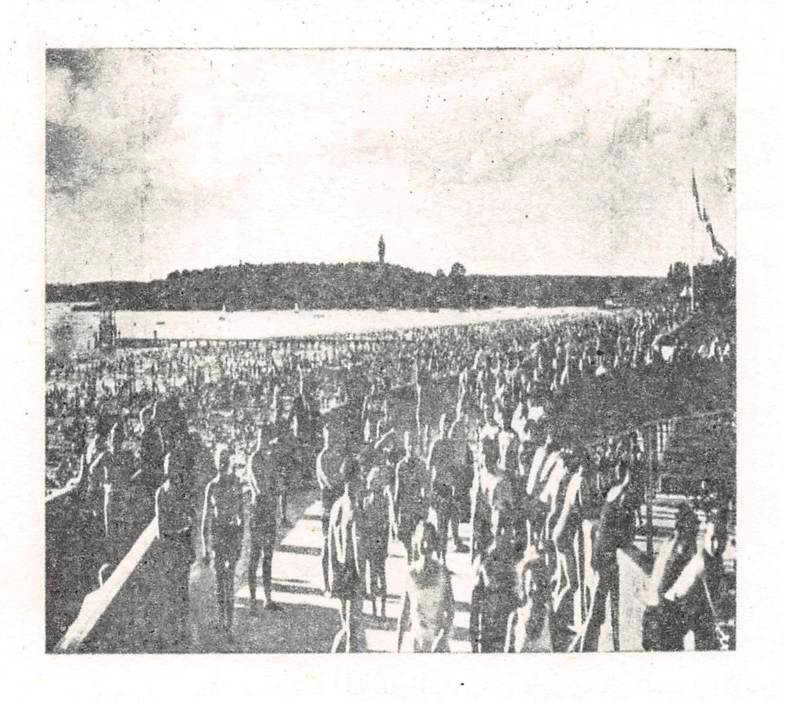
ثم على رمال البحيرة . .

البحيرة الهادئة الزرقاء ، التى تكاد تندمج زرقتها بزرقة السماء عند الأفق البعيد ، وهناك على الشاطئ الآخر من البحيرة تشاهد كلادو كأنها غابة من الغابات وقد تدلت أشجارها حتى الماء ، وبين هذه اللفائف ترتفع أبراج بعض قصورها المدببة ، وقد يشير لك صديق ألمانى إلى أحد هذه القصور ، قصر الدكتور جوبل وزير الدعاية الذى يتردد عليه الزعيم الألمانى هتلر الفينة بعد الفينة ، إذا رغب فى الانزواء والراحة .

وفى الليل تشاهد حيث ذلك المكان أضواء فندق سيرو مستعمرة مصرية على ضفاف بحيرة فانزى ، حيث « الهر مصطفى»، الشاب المصرى الرقيق، وليس لمصرى فى برلين إلا أن يزور سيرو ، وأن يتناول الشاى على مدرجات فندق سيرو الريفى ، وقد امتدت إلى مياه البحيرة نفسها ، فإذا كانت الساعة الرابعة وقد غُص المكان بأرستقراطية برلين ، وعزفت الموسيقى الراقصة ، وأقبل أفتن فاتنات برلين يتهادين إلى حيث حلقات الرقص المرصوفة على شرفة الفندق ، عندئذ تشعر وأنت تحتسى كوب الشاى الفاخر بهدوء واستمتاع بأن الصيف على بحيرة فانزى متعة من متع الدنيا الغالية .

* * *

وأنى لك أن تجد طريقك إلى الماء بين هذه الآلاف من الراقدين والراقدات على الرمال ؛ وقد تركوا أجسامهم العارية إلى الشمس تفعل فيها فعلها ، يتقلبون ظهراً إلى بطن ، حتى تجد أشعة الشمس طريقها إلى جلودهم فتلوحها أو تنضجها إذا جاز التعبير .



أيام الصيف فى فانزى

وسرعان ما تتعب العين من المفاضلة بين هذه الأجسام العارية ، والنفس بطبيعتها تميل إلى المخبّأ المستور ، فالثياب تفيض على الجسم الإنسانى سحراً وتستر ألواناً من النقص لا ترتاح إليها النفس الرقيقة .

وتلك السيدة الأنيقة فى معاطف الفرو أو الثياب الحرير ، هذه السيدة التى إذا ما خلعت كل هذا لم يبقَ منها إلا تمثال من الشمع لا تناسب ولا جمال فى انبعاجه أو تهدله . وأستاذنا الفليسوف إذا خلع نظارته وحسر عنه ياقته المنشاة وسراويله السوداء ، سرعان ما يتلاشى ذلك الجلال وتلك الهيبة التى كانت تحيط به .

ولكن مالنا وهذه الفلسفة السوداء ونحن على رمال فانزى ، ونماذج الحسن ومُثل الجمال غفيرة عديدة ، أليست هذه هى الخضرة ؟ أليس هذا هو الماء ؟ ثم أليس هذا هو الوجه الحسن ؟ أليس هذا كل ما تمناه الشاعر العربى القديم للترفيه عن الصدور المكروبة الحزينة البائسة ؟! كل هذا تجده فى فانزى

* * *

تسير حول الشرفة المظللة التى تطل على رمال البحيرة بين صفوف الواقفين والواقفات كأنهن يستعرضن ملابس الحمام أو ما تحيط به هذه الملابس الزاهية الجميلة .

ولا تقف هذا الموقف ، إلا الواثقة من جمالها، الواثقة من ذوقها فى اختيار سراويل البحر أو قلانس الاستحمام ؛ والسائر بدوره يجعل

نفسه موضع الاختبار والنقد ، وينتقل كل خطوة من عين ناظرة ، إلى عين محملقة فاحصة ، فإذا جاز الاختبار تبعته العيون حتى يختفى ..

وكأن الناس فى فانزى أحرار طلقاء يفعلون ما يعن لهم من فكرة نابية أو رأى مسفه ، فترى الشيخ الوقور الذى لا يريد إلا أن يركض ويثب كأنه الطفل الغرير ، أو الذى يتمدد على ظهره يستعرض ما كان قد تلقنه من دروس الرياضة فى روضة الأطفال منذ نيف وخمسين سنة ، أو الذى بدا له أن يتمرن على القفز من سور الشرفة الواطئ ، أو على بناء قلعة من الرمل ينافس بها ابنه أو حفيدته ، أو ترى من بدا له أن يحمل زوجته أو صديقته على أكتافه «يبرطع » بها ما احتملت ذلك سيقانه !

وفى الماء تتلاشى الفواصل والفروق بين السابحين ، وهم يتراشقون بكرات المطاط الملونة ، ولا يشعر بخيبة الأمل إلا ذلك الذى قيد قدميه بالأرض الجامدة فلم يعد يعرف كيف يحمل نفسه على متن الماء !

إنها الحسرة تلك التى تنتابنى كلما أقبلت على الماء وأنا متهيب وجل ، حتى إذا ما وضعت قدمى شعرت وكأنما روحى ترتفع إلى فمى ،

وشعرت وكأن هذه الآلاف من الراقدين على رمال فانزى قد هبت لترقب هذه التجربة القاسية ، فأقسم لنفسى ألف قسم وقسم بأننى سوف أبتاع هذه المعرفة بأى ثمن كان . .

أشعر وأنا أدلج فى الماء شبراً شبراً كأننى فوق خشبة المسرح وقد التوى علىّ القول وأعجم علىّ الكلام وحملقت نحوى العيون ، وأنظر إلى لا نهائية الماء حولى ، وإلى الأطفال وهم يسبحون حولى كالبجع الأبيض ، أشعر بأن كل ما فعلته من درس وما قمت به من حصيل لا شىء بالنسبة إلى هذه المعرفة ، معرفة الطريق إلى الماء . .

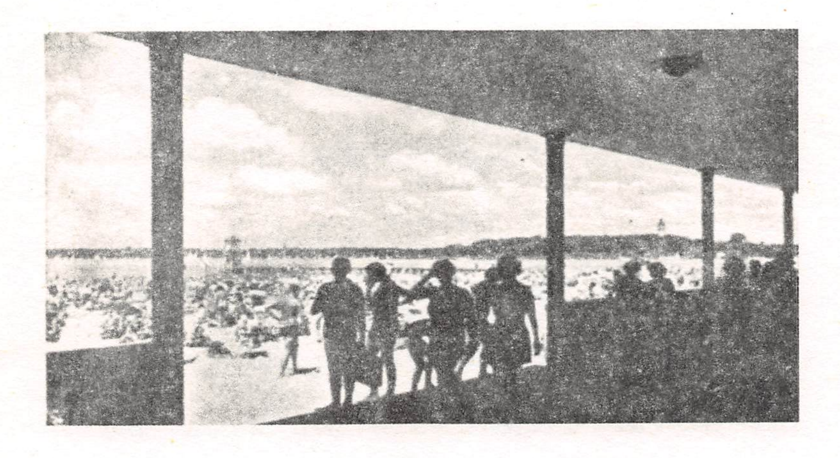
* * *

وإذا أقفرت فانزى فكانما الدنيا قد أقفرت ! تنظر حولك على هذه الرمال التى كانت حية ناطقة بمن كان بالأمس ، فإذا بها مهجورة خالية كأن العرس قد انفض ولم يترك من آثاره إلا الأرض العارية التى تجعلك تحس بالحسرة والحزن العميق !

هكذا تشعر إذا ذهبت إلى فانزى وقد أبت الطبيعة فى ذلك اليوم إلا أن تقسو على فانزى بأمطارها أو ببردها الشديد .

وفى يوم من هذه الأيام ذهبنا ونحن جمع حافل إلى فانزى ، وأبينا إلا أن نكذب على أنفسنا ، وثوقاً منا بأن فانزى لا تمنع الطامعين فيها ، فألفينا ذلك المكان الصاخب قد خلا إلا من المقاعد التى خلت من أصحابها .

أوليست فانزى هى الدنيا ؟ إذا ابتسمت فكأنما الدنيا باسمة مستبشرة ، وإن هى أقفرت فكأنما الدنيا مقفرة عبوس ؟ !



(الصيف في فانزى)



هتلر

- هيل هتلر ! أين الطريق إلى شارع نورنمبرج ؟

- هيل هتلر ! إلى اليمين ثم إلى اليسار .

* * *

- هيل هتلر ! هل لديك قفازات جلدية جيدة !

- هيل هتلر ! بالطبع يا سيدى المحترم.

هكذا تسمع فى برلين ، فى ألمانيا حيثما أرهفت أذنك ؛ هكذا تسمع تحية الألمانى للألمانى ، وهكذا تسمع سلام الألمانى على الألمانى ، فتعجب كيف أتى لشعب من أكثر شعوب الأرض ثقافة أن ينسخ أقدم التقاليد فيبدل مراسيم التحية والسلام فيقرنها باسم زعيمه ، بدلاً من جمل البركة والدعاء . .

هذا هو هتلر زعيم الألمان ، أيقونة برلين ، الذى ترى صورته فى كل مكان ، فى الفندق الذى تنزل به ، فى المطعم الذى تحل عليه ، فى دور السينما ، فى المتاجر والمصانع .

هذا هتلر الذى لا تخلو صحيفة من صحف ألمانيا فى يوم من

الأيام من صورة من صوره ، جالساً أو مسافراً أو خطيباً أو مواسياً أو مستعرضاً . والألمان بطبيعتهم يميلون إلى رفع أبطالهم إلى مقام التقديس، لقد قدسوا هندنبرج ، ولقد رفعوا بسمارك إلى مرتبة البطولة الإغريقية القديمة ، وها هم الآن يضعون هتلر فوق هؤلاء جميعاً . .

* * *

وشخصية الزعيم الألمانى أعجب الشخصيات ! لقد قرأت بالأمس كتاباً عن حياته ، كتاباً بقلم إنجليزى لا شك أنه محايد ولو بعض المحايدة ، لقد استرسلت فى هذا الكتاب قراءة ، حتى أتممت تلاوته قبل أن آوى إلى مرقدى ، بعد أن كنت قد عقدت العزم على قراءة مقدمته ليس إلاّ .

إن التناقض العجيب فى شخصية هتلر هو مثار الدهشة .

هذا الجسم النحيف المهضوم ، ولا يريد إلا أن يكون صاحبه من رجال الحرب .

هذا الرجل الذى نشأ ليكون فناناً ، فدرس التصوير ، وموسيقى فاخبر، هذا الفنان لا يريد إلا أن يكون سياسياً عتيداً ؛

هتلر النباتى الذى لا يأكل اللحم لا يتوانى عن إعداد شعبه للحرب والقتال .

هتلر النمسوى النشأة والمولد ، لا يريد إلا أن يكون ألمانياً وزعيماً لألمانيا .

هتلر الذى نادى بمبادئه وعقد اجتماعات حزبه فى قاعات الجعة فى ميونخ هو هتلر الذى لا يشرب المسكرات !

* * *

وحياة هتلر صحيفة من الجهاد العنيف ، الجهاد الذى يشعر صاحبه بأنه فرض عين ، ليس له أن يتخلف عن القيام به ولو كان وحده ، وليس له أن يتواكل عن تحقيقه ولو شعر بتفاهة شخصه ، ما دامت عزيمته قوية ونفسه قوية ، والغرض الذى يسعى إليه قوياً .

تعجب حين تقلب حياة الزعيم الألمانى كيف أن الحوادث التافهة فى حياة الفرد قد تكوّن منحى الطريق فى مجرى الحياة ، وقد تكون سبباً فى تكوين شخصيته أو خلق نفسه من جديد .

فمثل هذا الجهاد فى سبيل المبدأ ، والقدرة على عدم الاستسلام إلى اليأس القاتل الممض ، كل هذه دروس للشباب ، ودروس أجد لذة فى استغلالها والاستفادة من حوادثها .

* * *

منذ عهد قريب نشر الدكتاتور الألمانى كتاباً ضخماً أسماه « جهادى »، وقليل من الزعماء الدكتاروريين من يجد الوقت لتأليف كتاب بلغت صحائفه المئات ، ولكن الزعيم الألمانى وضع هذا الكتاب وهو فى السجن ، والسجن فى حياة القادة فصل لا بد أن يمثلوا دورهم فيه .

وفى هذا الكتاب الذى لا نعترف بأنه مثال من الأدب الراقى ، ولا يعترف بذلك مؤلفه ، نرى هتلر الفلاح والجندى البسيط هو هتلر الزعيم الخطيب هتلر الزعيم الذى كتب هذا الكتاب ؛ كلامه معاد مكرر ككل



هتلر

خطيب يتلوك الفكرة الواحدة ، حتى يشعر أن سامعيه قد أقروا رأيه أو فهموا قصده .

ولا بد لنا أن نقلب هذه الصحائف لنفهم بعض الشيء عن ألمانيا الجديدة ، مبادئها التى أثارت عجب العالم كما أثارت استهجان البعض إما لالتواء فى تحقيق مبادئها الجديدة ، أو لالتواء فى فهم مقاصدها وأغراضها .

نشأ هتلر فى قرية نمسوية من أب نمسوى ، وأراد أن ينشئه أبوه مهندسًا ويأبى هذا الابن إلا أن يكون فنانًا يدرس التصوير ويتعلق بموسيقى فاخبر ، ويقرأ التاريخ ليسرح بخياله مع صانعى التاريخ .

ثم نرى هتلر ينزح إلى ڤينا ، أبهج مدينة فى أوربا فى ذلك الحين ينزح إليها خاليًا من كل شىء ، يبحث عن اللقمة بين صفوف صغار العمال .

وبين هذه الصفوف الفقيرة ، وبين أركان ڤينا العظيمة تلقن هتلر دروس السياسة من المجتمعات التى كان يعقدها هؤلاء العمال؛ فسمع لأول مرة معنى الاشتراكية وما إليها من الألفاظ التى كانت نادرة الاستعمال فى ذلك الوقت .

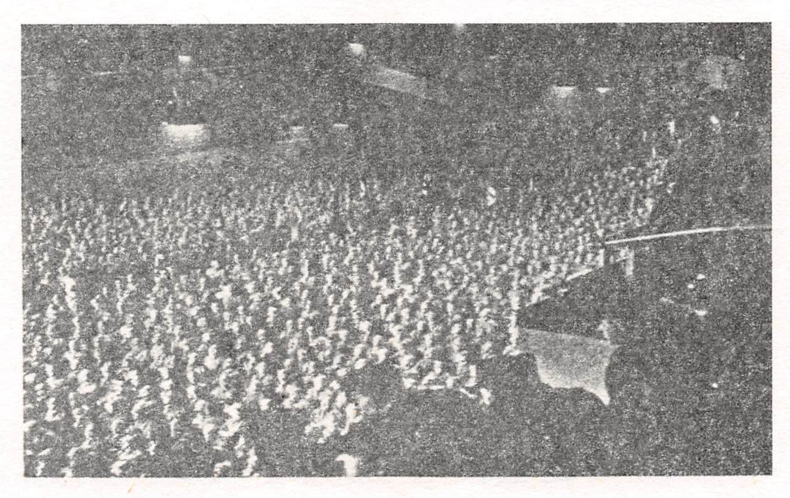
ولم يكن هتلر فى ذلك الوقت يعرف شيئًا عن اليهود لأن قريته براوناو كانت خلواً منهم ، ولأن لنز التى درس فيها لا تعرف إلا القليل منهم ، أما فى ڤينا فكان هتلر يرى اليهود على رأس كل قائمة وفى

يدهم كل شيء ، كان يعجب كيف أن اليهود لم يضيفوا مهمة على مهامهم فيديرون شئون السياسة حتى يجد هؤلاء النمسويون وقتًا كافيًا للهوهم .

هكذا ، كما يقول هتلر ، أول درس عرفه عن هذا الشعب السامى المستعمر .

* * *

ثم جاءت الحرب العظمى فإذا بهتلر فى ألمانيا ، وإذا به يدخل الجيش الألمانى بدلاً من النزوح إلى وطنه لينضم إلى صفوف مواطنيه الأصليين لأن كلا الجيشين يحارب عدواً واحداً .



هتلر الخطيب

ثم يسافر هتلر إلى الميدان الغربى أربع سنين كاملة يُجرح فى خلالها فيُرسل إلى ألمانيا للراحة والاستشفاء ، وفى هذه المرة ينزح إلى برلين وميونخ ليرى كيف أن جانبًا من هذا الشعب المحارب لا يكاد يشعر بأن آلافًا من أبناء الوطن يقعون صرعى فى ميادين القتال كل يوم ، بينما هذا الجانب من الشعب يلهو ويمرح ويتفنن ما شاء له الخيال فى الكسب الوضيع على حساب هؤلاء المجاهدين . هكذا يقول هتلر فى كتابه « لقد وجدت اليهود ينتهكون كل هذه الحرمات . . .

ولقد كانت هذه الأسابيع القليلة التى قضاها هتلر ما بين برلين وميونخ هى التى غرست فى نفسه بذرة الكره القاذع لليهود ؛ كره يدفعه إلى شىء ، كره يجعله يشعر بأن اليهودى عدو للإنسانية جمعاء، نعم هذه هى الحوادث التى تغير مجرى التاريخ .

وبينما كانت الحرب فى أدوارها الأخيرة إذا بهتلر يقفل عيونه على الظلام ، لقد أصبح هتلر أعمى !

وإذا بهتلر الأعمى يرسل إلى بعض المستشفيات دون أمل فى ارتداد بصره فيقضى هنالك شهوراً ، حتى أصبح فى يوم من الأيام سمع بأن الرواية التى يمثل فيها قد ختمت فصولها .

سمع بأن الإمبراطور قد ترك البلاد ، وأن لودندورف هرب إلى الدانمارك، سمع بأن وطنه قد أمضى صك الاسترقاق .

« لقد بكت عيونى العمياء ، لقد بكيت ولم تكن عيونى قد فاضت منذ أن ماتت أمى »

وإذا بهتلر يستعرض فصول هذه الرواية ، يستعرض كيف أن هندنبرج قد مضى على الشعب الروسى الذى يبلغ أضعاف أبناء وطنه ، وكيف أن رومانيا قد فرت بعد أسابيع من ميدان القتال ، وكيف أن أربعمائة ألف من الإيطاليين ألقوا سلاحهم عندما رأوا أول جندى ألمانى على مرتفعات ايزونزر . . . !

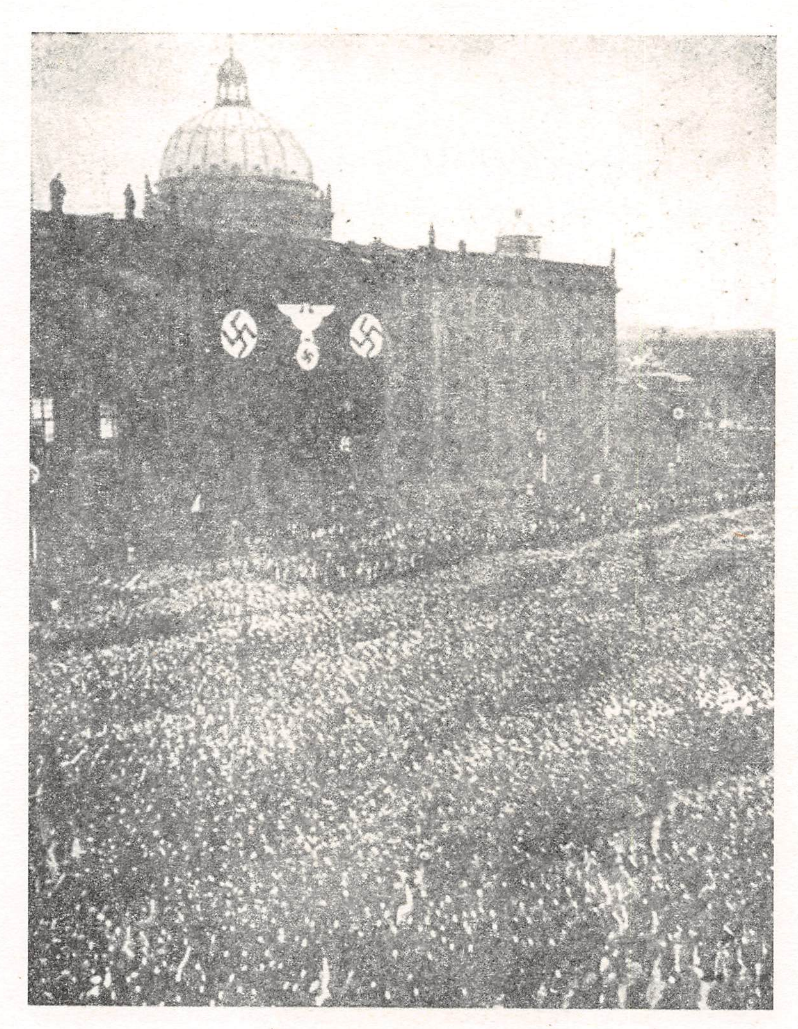
استعرض هتلر كل هذا وأحس بأن الشعب الذى فعل هذه العجائب يجب ألا يموت وإنه لن يموت، فكانت هذه هى بذرة الجهاد الحية فى نفس الزعيم الأعمى المجهول.

* * *

وشاء ربك إلا أن يرتد بصر هتلر الجندى ، وأن يفتح عينيه على ألمانيا الجديدة المغلوبة المقيدة الفقيرة الجائعة .

وهكذا يرحل هتلر إلى ميونخ ليدخل فى معمعان تلك الفوضى السائدة فى عاصمة ألمانيا الجنوبية ، فوضى فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، مدينة كأنها سوق من الأسواق كاد ينفض ، اختلطت فيه السلع والأصوات والنداءات .

ويدخل هتلر فى خضم تلك الفوضى السائدة ، ويندمج فى تلك الأحزاب الصغيرة التى تنشأ وتموت كفقاقيع الماء ، تدل دلالة أكيدة



حول هتلر الزعيم

على الثورة النفسية التى تجيش فى صدور أصحابها ، الذين يبرون فى كل يوم رأياً لإنقاذ السفينة الغريقة . .

وهكذا تخلق الظروف التافهة الأبطال ، وهكذا تلعب الأقدار بمصير الشعوب .

يحضر هتلر هذه الاجتماعات التى تُعقد فى حانات الجعة فى ميونخ ويكثر فيها الجدل والمناقشة ولو لغرض السمر وقتل الوقت ، ثم يأخذ هتلر برنامجًا لبعض هذه الأحزاب المجهولة ويطوى الورقة فى جيبه ككل إعلان نُكره على طيه بين أصابعنا .

ثم تنقضى أيام على ذلك ، وهذه الورقة المطوية فى ستر الزعيم المجهول ، ويحدث أن يأرق هتلر ذات ليلة بعد أن راقب فأرين كانا يدخلان غرفته ويحن عليهما بقطعة من السكر فى ميونخ الجائعة حينذاك

يأرق هتلر ولا يجد ما يقرأه فيفتش فى جيوبه ليعثر على الورقة المطوية ؛ فيقرأ فيها شروطًا خمسة وعشرين هى شروط أصحاب ذلك الاجتماع .

وإذا بهذه الورقة المجهولة ، تصبح دستور ألمانيا الجديدة ، وإذا بهذه النقط الخمس والعشرين تصبح مبدأ حزب النازى الذى يحكم ألمانيا اليوم ، ثم يكوّن هتلر حزبًا ككل متحمس للسياسة، ويختار من بين أعضائه السبعة سكرتيراً أو وزيراً للدعاية ! وبدأ الحزب عصراً جديداً فى عهد وزير الدعاية الجديد ، فيدعو ثمانين نفراً يكتب هتلر

إليهم الدعوات بخط يده فلا يجيب الدعوة إلا أحد عشر يجتمعون فى ركن إحدى حانات البيرة فى ميونخ ، ولكن وزير الدعاية لا ييأس ، بل يعقد اجتماعًا آخر فيحضره أربع وثلاثون ، وهكذا يطرد العدد ويعنف الجهاد .

حتى إذا كان عام ١٩١٩ يرتفع هذا العدد بضع مئات ، ولا يهل العام الجديد حتى يتضاعف ، وهكذا نشأ حزب النازى وهكذا نشأت زعامة هتلر .

ثم تتوالى الحوادث والأحداث ، فينقلب الأتباع إلى جيش معد يريد أن يتولى الأمر فى ميونخ ، وأن يزحف على برلين كما زحف موسيلينى على روما .

ثم يُزج هتلر فى السجن ، وقد كان الإعدام نصيبه وأن يشفع له لدوندورف ، فلا يقضى هتلر فى محبسه إلا شهورًا معدودات يكتب لنا فيها كتابه «جهادى» .

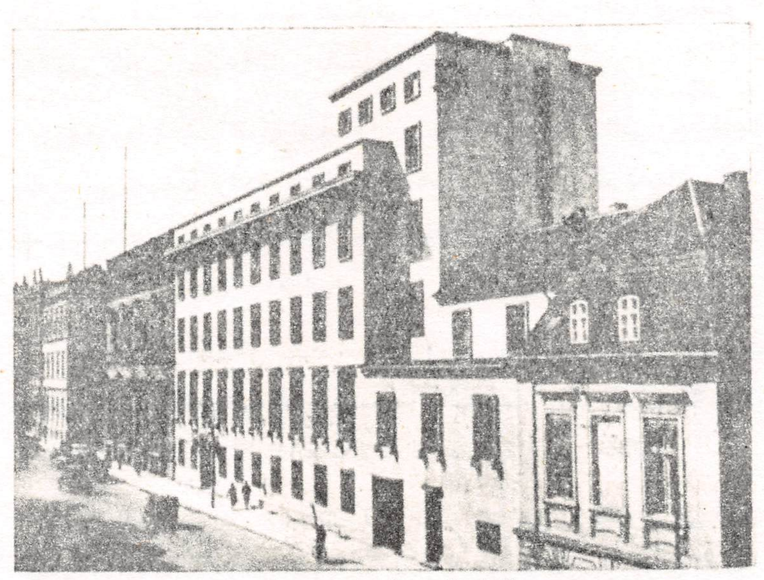
وليس لنا بعد هذا أن نختم القصة ، وقد أصبح هتلر زعيمًا لحزب أنصاره بالآلاف .

* * *

وقد هبطنا برلين فى عام ١٩٣٢ وكان اسم هتلر فى آذاننا كأى اسم تأتى على أخباره صحافتنا المصرية من حين إلى حين ، وكان أهل برلين يجمعون الإعانات لهذا الحزب الناشئ ، كانوا يجمعونها بالمليمات الضئيلة وكنا نسمع- لا سيما من السيدات - بأن خلاص ألمانيا لا يكون إلا على يد هذا الحزب .

ثم يجىء يوم الانتخاب ونرى أعلام النازى ترفرف على بعض بيوت برلين ، ونسمع بأن الحزب يكتسب كل يوم أصدقاء وأعوانًا ، ثم نلتقى بأصدقاء لنا من اليهود فى معهد التناسليات ، يُلمحون لنا بأن المقام فى برلين قد صار عزيزًا إذا قبض هذا الحزب على أزمة الأمور .

ثم يتحقق التقدير فنعرف أن لهتلر قصة قديمة مع اليهود ؛ وأن هتلر أصبح معبود ألمانيا ، لأنه يمثل ما يجيش به صدر كل ألمانى ، الألمانى الذى جعل نشيده « ألمانيا ، ألمانيا فوق الجميع . . »



الدار الرسمية لهتلر فى برلين



عرفنا حرس بوتسدام قبل أن نسمع عن بوتسدام نفسها ، ضاحية برلين الجميلة ، الضاحية التى تتيه بقصورها الملكية وبحدائقها العظيمة على برلين نفسها .

وبوتسدام كفرساى عند أهل باريس ، ارتبط اسمها باسم فريدريش الأكبر كما ارتبط اسم فرساى باسم لويس الحادى عشر ، وها مدن كورت ضاحية لندن باسم هنرى الثامن .

قصتها قصة القرية الهادئة المتواضعة المغمورة ، التى وجد فيها ملك عظيم منتجعاً لراحته فأنشأ فيها قصراً ثم قصراً ثم قصراً ، فإذا بها بعد حين تفاخر العاصمة عظمةً وجلالاً ، وإذا بها بعد حين مركز الحياة فى الإمبراطورية الألمانية .

وبوتسدام بعد أن تهدم صرح الإمبراطورية ، وبعد أن فتحت قصورها وحدائقها إلى الجماهير ما زالت تعتز بذلك التراث القديم ، ما زالت تشعر فيها بتلك المسحة التى تصبغ الضواحى الملكية .

وإن كان حرس بوتسدام قد اندثر ولم تبقَ إلا ذكراه فى كتب التاريخ، وإن كانت الإمبراطورية قد صارت بدورها تاريخاً ، وإن انفض

مجلس البلاط بتقاليده العسكرية ، إلا أن بوتسدام ما زالت تحتفظ بشىء من هذا التراث ، ما زلت تصادف فى طرقات بوتسدام جماعات العسكريين ثم العسكريين القدماء سادة بوتسدام فى العهد الماضى .

وهذا التاريخ المتألق الذى تتميز به بوتسدام ضاحية برلين الملكية هو الذى جعلها محط رحال السائحين ، وهذه الذكريات التى تحيط باسم بوتسدام هى التى جعلتها مهبط الغرباء فى كل يوم من أيام العام .

فبرلين تغرق آلاف الزائرين فى بحرها الواسع ، ولكنك إذا هبطت بوتسدام تشعر كأنك فى البندقية مجمع السائحين والغرباء ، تجد مدينة تفتح صدرها لزائريها تحيةً وترحيباً .

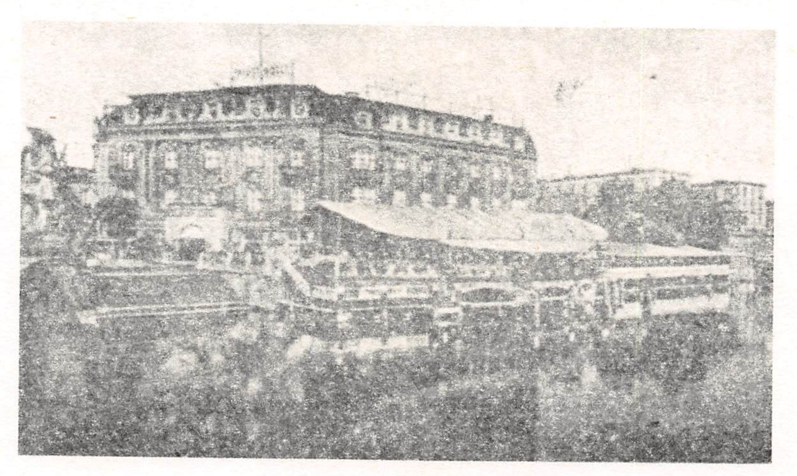
ولو كانت بوتسدام خلواً من تاريخها العتيد ، لما فتئت تجذب آلاف الزائرين إليها إلى اليوم فقد حبتها الطبيعة بكل ما ترغب فيه ضاحية أنيقة لعاصمة عظيمة كبرلين ، فبوتسدام أشبه شىء بجزيرة تحيط بها المياه من كل الجهات على حد اصطلاح الجغرافيين ، فمياه الهافل تسورها وتكسبها الجو الذى تتميز به المرافئ والفرص البحرية ، وهى فوق ذلك تتيه بغاباتها وأحراشها الطبيعية التى تتميز بها البرارى الجبلية المنقطعة .

وإذا خرجت من محطة بوتسدام العامة ، ليس لك أن تنتقل بإحدى مركبات الترام إذا أردت أن تأخذ بنصيب الأسد من التفرج على

بوتسدام ، لأن فى كل ركن تمر به مجالاً لإمعان النظر ، وموضعًا للتريث وتقليب البصر .

ولكن السير على الأقدام ليس بالأمر الهين فى بوتسدام ، لا لوعورة فى الطرقات ، بل لأنك سوف تسير الساعات الطوال وأنت لا يهدأ بك مقر خوفًا من ضياع يومك ، حتى لا ترجع بعده إلى برلين وقد ضاق بك من أن ترى الكثير فى هذه الضاحية الفاتنة . بيد أنه من خطل الرأى أن يقصر الزائر تخلفه إلى بوتسدام على يوم واحد ، وإلا رجع منهوك القوى بارد الحس .

ولكن فى بوتسدام من الأركان الهادئة ما ينعم فيها الزائر المتعب بشىء كثير من الراحة ، ولا أنسى مجلساً ذات مساء فى شرفة فندق



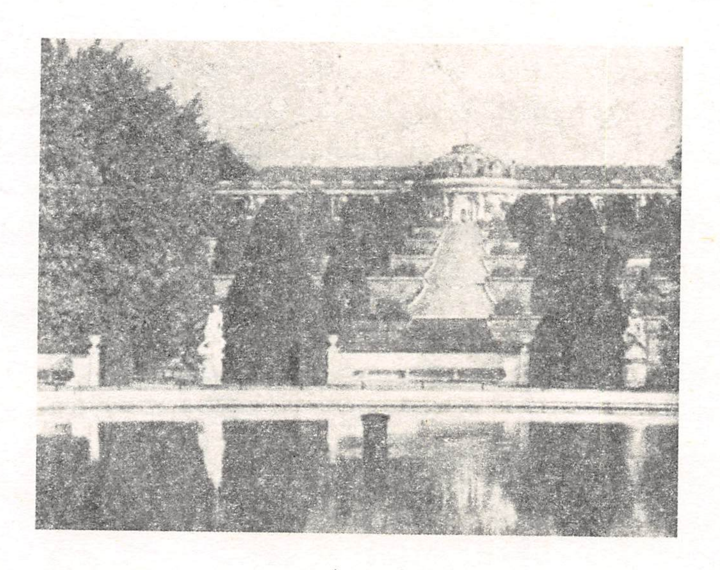
جلسة هادئة على مياه الهافل

البالاس وقد أطل على مياه الهافل التى تصاعدت منها رائحة السمك الطازج ، وسبحت عليها أسراب البجع البيضاء ؛ فى مثل هذا المكان تشعر وأنت تحتسى قدحًا من الشاى أو قهوة القشدة بأنك على قمة العالم ، تشعر بالسعادة تلمس صميم نفسك .

فإذا تركت هذا المكان بعد أن تعبر جسر فريدريش فلهلم تمر على قلعة بوتسدام الملكية ، وهى البلاط الصيفى للإمبراطور ، وقد فتحت اليوم أبوابها للزائرين ، إذا كنت عجلاً يكفيك أن تجوس خلال حدائق القصر وأفنيته الواسعة التى كانت ميدانًا للاستعراضات العسكرية فى العصر الإمبراطورى السابق، ثم تسير فى طريقك إلى الميدان الأوسط الذى تطل عليه من بعيد دار البلدية ، وهذه الدور فى المدن الألمانية القديمة نماذج للفن ولعظمة المعمار القوطى العتيق ، ثم تمر على غيرها من الأبنية العامة . إذا حل عليك المساء وأنت فى هذا الميدان الأوسط ، تجد فى حديقته الواسعة المنثورة بأحواض الورد البرى مجلسًا أنيقًا تستعرض منه أفواج الرائحين والرائحات .

والمساء فى بوتسدام أشد روعة وأفعل أثرًا وقد ازدحمت طرقاتها بالسائرين والمتنقلين بين مخازن البيع المضيئة الأنيقة ، تلك المخازن الريفية المتواضعة التى لا تبهر العين بأكثر مما تحويه نوافذها الصغيرة الرقيقة

وهكذا تسير حتى ينتهى بك المكان بحدائق سان سوسى العظيمة فخر بوتسدام ، إذا بدأت المطاف فى هذه الحدائق فسلام على قدميك ، فحدائق سان سوسى لا آخر لها، تقضى فيها يومًا كاملاً قبل أن تجذب باب الخروج منها .



في حدائق سانسوسي

وفى هذه الحدائق قصر سان سوسى ومتحف الفن والقصر الجديد ، وتمر فيها بتلك الطاحونة التاريخية التى تجد قصتها فى كتب الحكايات ، تلك التى أراد فريدريش الأكبر أن يهدمها إذ هى على بعد مسيرة أقدام من قصره الفاخر سان سوسى ، فلم يرضَ صاحبها مساومة فى بيعها ، ولما أراد الإمبراطور هدمها قوةً واقتداراً ، تحداه صاحبها بأنه أعجز من أن يفعل ذلك لأنه سوف يحتكم إلى القانون الذى يرعاه الإمبراطور نفسه، وهكذا شل فلاح بوتسدام يد إمبراطوره عن هدم طاحونته ، وهكذا أصبحت هذه الطاحونة بأجنحتها الخشبية أثراً خالداً من آثار بوتسدام تطوف بها ركاب الزائرين .

وذكريات فريدريش الأكبر تفيض بها حدائق بوتسدام ، فهذه الطاحونة التى خلدها فريدريش بحكايته ليست أقل خلوداً من شجرة البلوط التى كان يمر عليها الإمبراطور كل يوم يلتقط من تحتها رسائل الشكوى التى كان يبعث بها أهل بوتسدام إلى إمبراطورهم ، والتى كان يجلس تحتها فى شيخوخته يشهد ألعاب الشطرنج يمثل أدوارها الجنود بدلاً من قطع الخشب المصفوفة . وما زلت ترى هذه الشجرة وقد علقت عليها قطعة من المعدن تذكر السائر بقصتها الخالدة .

وبعد أن تطوف فى الحدائق ما حملتك ساقاك تخرج من بوابتها الجنوبية التى ارتفعت عليها مسلتان باسقتان ، ثم تمر ببوابة براندنبرج التى تشبه تلك التى رأيتها فى برلين ، ومن هناك تجد طريقك إلى كنيسة الجاريزون ، مدفن فريدريش الأكبر .

وعندما هبط نابليون بوتسدام أسرع إلى هذه الكنيسة فى غسق الليل يتقدمه حارس يحمل مصباحًا من مصابيح الشمع حيث وقف على قبر الإمبراطور العظيم يستوحيه مواطن العظمة وأسباب الخلود ، ويتمتم كما تقول الرواية الألمانية بأن هذا القبر ما دام فى مكانه من هذه الكنيسة فليس من وسيلة لقهر الشعب الألمانى ، هكذا تقول الرواية صدقًا كانت أم اختلاقًا .

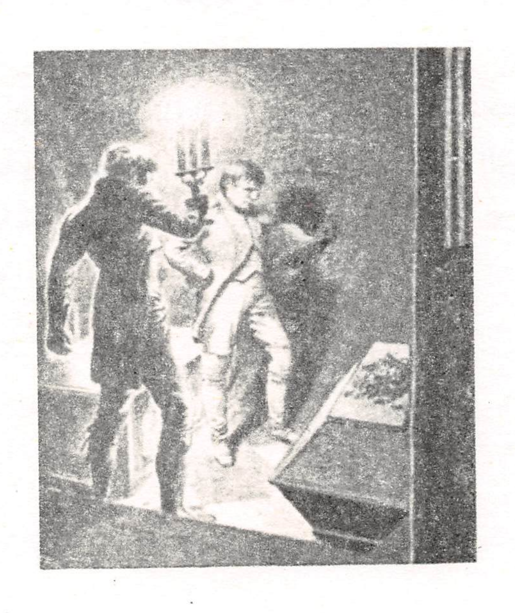
وما أبعد الفرق بين قبر فريدريش الأكبر فى كنيسة الجاريزون وبين قبر نابليون فى الانفاليد ، ذلك القبر المتواضع المنزوى فى قبو صغير معتم تنزل إليه بدرجات قليلة قد أقفل طريقه بباب من الحديد المشبك ، لا يرتفع عليه تمثال من المرمر ولا نصب من الذهب المتوهج ؛ ما أشبهه فى بساطته بقبر صلاح الدين فى دمشق .

* * *

وفى الناحية الأخرى من بوتسدام تسير إلى حيث المرصد الإمبراطورى ، طرقنا بابه فى يوم من الأيام فى صحبة صديق لنا على غير رغبة ملحة عندنا . وقضينا بين أركانه ساعات ليست بالقليلة ، رأينا فيها صورة من صور الجهاد الألمانى فى سبيل البحث والاستقصاء العلمى .

رأينا فيه ذلك « البروفسير » الألمانى الذى يقضى حياته فى خلوة بين الكتب والمراجع والأجهزة، يقطع عمره دون أن يحس به أحد ،

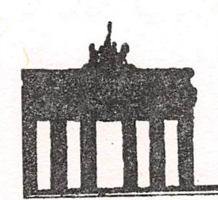
ويسلخ حياته فى كتابة وريقة لا تسمع بخبرها الملايين من الناس ولكنه يفرغ فيها شهوته ، وشهوة العلم والدراسة ليست أقل جموحًا من صنوف الشهوات الأخرى .



نابليون على قبر فريدريش الأكبر

وسرنا فى هذه المستعمرة التى يحتلها المرصد فى عزلته عند بوتسدام ، ننتقل من بناء إلى بناء ومن برج إلى دهليز ، جهزت جميعها بأحدث آلات الرصد التى تقيد هبات النسيم ورجات الأرض الخفية وحركات الكواكب النائية حتى مللنا السير وعفنا الفرجة والنظر ، ونحن نجامل مضيفنا « البروفسير » الشيخ وهو لا يفتر تعليقًا وملاحظة ، ولا تقعده شيخوخته عن الحركة والنشاط واعتلاء الدرجات الحلزونية الضيقة .

ومن أحد أبراج هذا المكان شهدنا منظرًا رائعًا لبوتسدام ولبحيراتها وحدائقها ، ورأينا قصر سان سوسى بقبته البيضاء ودرجاته الواسعة كأنه تاج محل وهو على ربوته يتيه عجبًا وخيلاء كالطفل الغرير . .



صحف برلين



أين صحف برلين من صحف لندن ؟ الصحف الإنجليزية الطويلة العريضة الضخمة ، أين هى من صحف برلين الصغيرة المتواضعة التى كأنها القزم بجانب العملاق ؟

وقد تحتقر صحف برلين اليومية فى بادئ الأمر ، وتحس بأن هذه الوريقات ليست موضع ثقة فى نقل الأخبار ، إذ إن ضخامة الصحيفة قد عودتنا احترام أخبارها وبث الهيبة فى نفوس القراء . تصبح من قراء هذه الصحف بحكم الإقامة فى برلين ثم بحكم العادة ، تشعر بأن صحف برلين ليست كما حسبت فى بادئ الأمر فهى صحف أنيقة رقيقة الجانب ، لا تمنحك إلا ما تطلب قراءته ، ولا تضطرك إلى قراءة ما لا ترغب فيه من مقالات مملة مضنية ، أو إعلانات تحتل الجانب الأكبر من كل صحيفة إنجليزية .

وصحف برلين ، إذا ما استثنينا واحدة أو اثنتين ، من ذات القطع الصغير الذى لا يزيد على نصف مساحة صحفنا اليومية ، ولا شك أن اختيار هذا القطع فى صحف برلين اليومية لم يحدث اعتباطًا بل قصداً ، لأن القارئ فى هذا العصر ليس لديه من الوقت لتقليب جريدته اليومية

متمدداً فى منزله أو منكبًا على مكتبه ، بل إن أكثر هؤلاء يقرأون الصحف فى الطرقات أو فى السيارات العامة المزدحمة فى الطريق إلى حيث يعملون .

فهذه الصحف الصغيرة ترفه عن القارئ العجل وهو فى محنته ، إذا ما أراد تقليب الصحيفة أو طيها ، هو محبوس فى زحام الترام أو المركبات العامة

* * *

وجميع صحف برلين تُباع بعشر فنشات مع استثناء جريدة «الفولكر بيوبختر» فهى تباع بخمسة عشر فنشاً .

والغريب أن صحف برلين هذه إذا ما بيعت فى غير برلين من بلاد ألمانيا بيعت بثمن خاص ، فالصحيفة التي تُباع فى برلين بعشر فنشات تُباع فى ميونخ بخمسة عشر فنشاً ؛ كأنما هى ترسل إلى بلاد أجنبية .

ولكن من النادر أن تجد صحف برلين اليومية منتشرة في غير برلين ، فهى صحف محلية ليس لها أن تسيطر على الصحافة الألمانية جميعها كما هى الحال فى صحف باريس ولندن والقاهرة مثلاً .

وليست صحف برلين اليومية أو الأسبوعية أعظم صحف ألمانيا ، لأن فى كثير من بلاد ألمانيا صحفاً يومية أو أسبوعية تضارع صحف برلين وتنافسها منافسة خطيرة فى العاصمة نفسها .

وهذا التنافس طبيعى جداً ليس فى عالم الصحافة فقط بل فى كثير من نواحى الحياة الثقافية الألمانية ، كالمتاحف والمعارض والمكتبات العامة والجامعات والمعاهد العلمية ، فمركزية العاصمة لا تعرفها ألمانيا .

فحديقة الحيوان فى هامبرج على مستوى واحد مع حديقة برلين إن لم تتميز عنها ؛ والمتحف الألمانى فى ميونخ يفوق أى متحف فى برلين ، وجامعات هايلبرج وبينا وفرايبرج وغيرها أعرق من جامعة برلين ، ومعرض ليبزج السنوى أعظم معارض ألمانيا .

وهكذا فى عالم الصحافة والصحف ، فجريدة « فرانكفورتر تسايتنج » لها أكشاك خاصة وباعة خاصة فى قلب برلين ، وجريدة هامبرج لها قراؤها من أهل برلين . أما فى الصحف الأسبوعية والمجلات فالظاهرة أكثر وضوحاً وأشد أثراً .

والعدد الأكبر من صحف برلين فى شركتين من شركات النشر ، شركة شيرل ثم اولشتاين ، ولكل شركة من هذه الشركات صحيفتها الصباحية والمسائية ثم مجموعة أخرى من الصحف الأسبوعية والمجلات ثم الدوريات المختلفة ، والكتب والمراجع التى تتعهد بإصدارها .

وأكثر صحف برلين انتشاراً هى صحف الصباح ، وهى القاعدة المطردة فى برلين وغير برلين ، فشركة شيرل تصدر جريدة « البرير لوكال انتسيجر » وتقابلها جريدة « المورجن بوست » من شركة اولشتاين ، وتطبع كل من الجريدتين نحو ثلث مليون نسخة يومياً .

وتصدر شركة شيرل الصحيفة المسائية « الناخت اوسجابى » وهى أوسع جرائد برلين المسائية ولها ميزتها بأنها جريدة مصورة ، ويبلغ ما يوزع منها نحواً من مائتى ألف نسخة كل مساء ، ويقابلها عند اولشتاين جريدة « ب . ز اميتاج » وتنتهى طبعاتها فى المساء .

وأهم صحف برلين بل ألمانيا على الإطلاق جريدة « الفيلكشر بيوبختر » وهى جريدة لها شخصيتها وامتيازها واعتبارها . والبيوبختر أشبه بالتميز فى إنجلترا ، لها الصبغة الرسمية المعتبرة .

وتطبع البيوبختر طبعتين مختلفتين ، الأولى فى برلين ويطلق عليها طبعة شمال ألمانيا والأخرى فى ميونخ وهى طبعة ألمانيا الجنوبية ، وتتميز جريدة البيوبختر بقطعها العريض الذى يشبه قطع الصحف الأجنبية إلا أنها أكثر عرضاً ، كما تتميز بثمنها الممتاز وهو خمسة عشر فنشاً كما تتميز التيمز . وقراء هذه الجريدة طبقة معينة لأن هذه الصبغة الرسمية التى تتمثل فى الجريدة لا تجعلها مقبولة شائقة عند جمهور القارئين ؛ والبيوبختر لا تباع فى أيدى موزعى الشارع ، بل لا بد أن تبحث عنها فى أكشاك الصحف أو فى المكتبات ، ومع ذلك فيوزع من طبعات الفولكشر بيوبختر نحواً من ثلث مليون نسخة .

والشركة التى تصدر البيوبختر تصدر فى المساء صحيفة « الانجرف » أى الهجوم ، وهى من صحف الدعاية المعتبرة بالحزب النازى ولا يوزع من هذه الجريدة أكثر من ستين ألفاً من النسخ .



موزعة الصحف الصباحية

وعدا ذلك فهنالك جريدة « الدويتشه الجمينى تسياتنج » وهى أشبه بجريدة التلغراف الإنجليزية، ويوزع منها نحواً من مائة ألف نسخة وهى كذلك فى غير يد الجماهير .

ونضيف إلى هذه الطائفة جريدة « البيرزه تسايتنج » وهى صحيفة رجال الأعمال لأهميتها التجارية الخاصة .

وبعض صحف برلين الكبيرة تنشر طبعتين صباحية ومسائية ، وصحف المساء كجريدة « الناخت أو سجابى » تصدر طبعات مسائية مختلفة تبدأ من الساعة الثالثة مساءً ، وتختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً ما بحسب أهمية الأخبار المطردة .

وجريدة « الآبنت اوسجابى » الجديدة التى تنسج على منوال الجريدة السابقة من حيث موادها وصورها وقطعها ، تخلق تقليداً جديداً فى صحافة برلين أو فى الصحافة على الإطلاق فهى تباع بخمس فنشات أى ربع قرش فقط ، ولا شك أن اليوم سيأتى حين نرى صحف العالم تخفض أثمانها إلى هذا القدر لشدة انتشار الإعلانات التجارية واعتماد الصحافة عليها ، ثم لتقدم الطباعة .

والإعلانات فى صحف برلين محدودة الدائرة ولا تملأ ذلك الفراغ الذى تحتله فى الصحف الأمريكية أو الإنجليزية ، فهى لا تتعدى إعلانات المسارح والملاهى ثم الرحلات وغيرها ، وهنالك أهمية خاصة فى الصحف الألمانية لما يسمونه الإعلانات الصغيرة ، الخاصة بطلب

الوظائف أو استئجار البيوت والغرف أو بيع الأشياء القديمة أو طلب الزواج ، والإعلان الواحد لا يتعدى بضعة سطور .

ومن أهم الصحف التى تعنى بهذه الإعلانات الصغيرة جريدة « اللوكال انتسيجر » لا سيما فى عددها الخاص بيوم الأحد . وقد بلغ عدد الإعلانات التى نُشرت فى هذه الجريدة فى عام واحد نحواً من ربع مليون إعلان .

* * *

ولأكثر صحف برلين اليومية طبعات خاصة فى يوم الأحد أكثر حجمًا وأكثر تنويعًا فى الأبحاث لا سيما الثقافية العامة ، وتباع هذه بأثمان خاصة.

وأهم هذه الصحف التى تصدر طبعات خاصة فى أيام الأحد « المورجن بوست » كما تصدر الشركة نفسها « الجرين بوست » أى البريد الأخضر كذلك ، أما اللوكال انتسيجر ، فهى أضخم هذه الطبعات وأكثرها انتشاراً وتُباع بضعف ثمنها العادى .

والعدد الواحد يحتوى على نحو من عشرة أجزاء متفرقة مستقلة ، فالجريدة الواحدة أقرب شبهاً بمجموعة مختلفة من الصحف . فللقارئ أن يحمل منها الأجزاء التى تشوقه أكثر من غيرها أو أن يوزع الأجزاء المختلفة بين أفراد العائلة دون العبث بصحائف الجريدة إذا كانت متصلة الأجزاء .

ففى هذه الجريدة جزء خاص بالأخبار وبالرياضة وبالرحلات وبالمرأة ، وبالتسلية وبالإعلانات الصغيرة وبالفنون، ثم الجزء المصور الأنيق المطبوع بالروتغراف كأنه جريدة مستقلة تحت اسم « العالم الواسع » .

* * *

ولكل جريدة من جرائد برلين اليومية موزع خاص يقف فى مكان معين ، وعلى رأسه قبعة كُتِب عليها اسم الجريدة التى يوزعها ، وترى هؤلاء الموزعين المختلفين يقفون جمعًا واحداً فى أركان الميادين الهامة ، وكلٌ ينادى باسم صحيفته دون مزاحمة أو سباق على القارئ المسكين ، الذى كثيراً ما يلزمه موزع الصحف فى مصر على قراءة ما لا يرغب وشراء ما لا يريد .

والمرأة لها نصيبها فى توزيع الصحف ، إما فى أركان الشوارع أو فى الأكشاك الخاصة بالصحف ، وإما بتوزيع صحف الصباح فى المنازل على المشتركين .

* * *

والمهارة التى عُرفت عن الألمان فى الطباعة ، تجد مجالها فى الصحف الأسبوعية والمجلات لا سيما المجلات المصورة والملونة .

وتنافس المدن الألمانية مع برلين فى إصدار الصحف الأسبوعية

المصورة قوى جداً ، ففى مدينة ألمانية كبيرة كهمبرج وكولون وليبزج ، وميونخ وغيرها صحيفة أسبوعية مصورة . فصحيفة كلن المصورة لها امتيازها عن صحيفة برلين المصورة ولولا هذا السبب لكانت صحيفة برلين الأسبوعية المصورة تطبع الآن أضعاف هذا العدد .

وكما أن التنافس قائم بين شركتى أولشتاين وشيرل فى الصحف اليومية ، فلاشك أنه يمتد أيضاً إلى هذه الدائرة ، فدار شيرل تصدر مجلة « دى ڤوخى » أى الأسبوع بينما تصدر دار اولشتاين مجلة « برلينز الستيررتا » أى مجلة برلين المصورة ، ولكن لكل من المجلتين ميزتها الخاصة ، فهذه المجلة الأخيرة تُباع بعشرين فنشاً ، بينما الأولى تُباع بضعف هذا الثمن أى بأربعين فنشاً .

ولا شك أن مجلة « دى ڤوخى » فخر للصحافة وهى من بعض الوجوه تشبه مجلة السفير ولندن المصورة والباى ستاندر وهى مجلات الطبقة الراقية الإنجليزية ، وثمن هذه المجلات الأسبوعية شلن كامل !

ولكن مجلة الڤوخى تتميز عن هذه جميعاً بأنها أخف روحاً وأكثر تنسيقاً وابتكاراً ، ففى كل عدد سجل مصور لأخبار العالم الأسبوعية ، ثم دراسة مصورة لموضوع من الموضوعات ، كرحلة إلى مكان مجهول ، وحياة شعب معين ، أو دراسة صناعة من الصناعات إلى غير ذلك ، هذا عدا القصص والأبحاث المختلفة .

وأشهر مجلات برلين الشهرية مجلة « داس ماجزين » وهى مجلة

فنية بديعة تصدر فى قطع صغير على ورق ممتاز ، وشبيه هذه المجلة كثير فى العالم الألمانى كمجلة « اوهو » و« شيرل » و « ڤينر ماجازين » وهى التى تصدر فى ڤينا . وكانت هذه المجلات فيما مضى تتبارى فى نشر الصور الفنية العارية على نسق مجلة باريس وغيرها إلا أن من مظاهر الحكم النازى أنه قضى على هذه الإباحية .

* * *

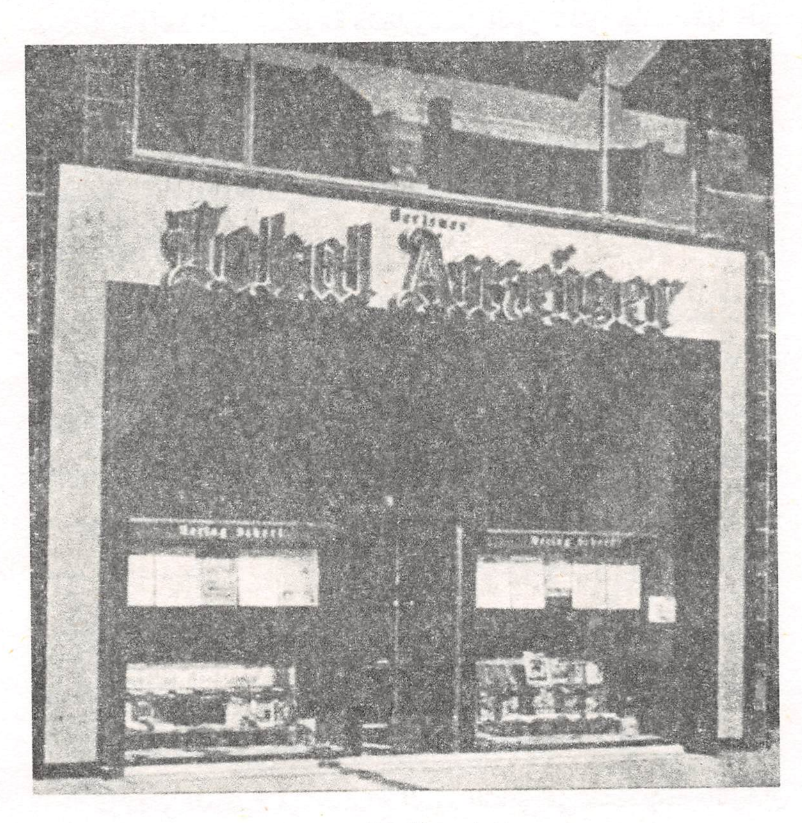
ولدور نشر الصحف الكبيرة فى برلين مكاتب خاصة منتشرة فى أكثر أنحاء العاصمة الكبيرة ، تعرض خلف نوافذها المطبوعات المختلفة التى تنشرها الدار ، ويجد فيها السائر المتعب مقاعد مريحة ، ويجد فيها صحف اليوم التى تصدرها الدار يقرأها مجاناً .

ولمثل هذه المكاتب غرض قومى، إذ هى وسيلة لربط الجمهور بما يجرى حوله من الحوادث فتولد فيه رغبة العناية بشئون الوطن السياسية أو الاقتصادية إذا وجد نفسه يوماً فى موقف يستدعى هذه العناية .

وفوق ذلك فهذه المكاتب وسيلة للدعاية لدور النشر التى أنشأتها لأن القارئ إذا ما اعتاد قراءة صحيفة معينة ولو تحت ظروف معينة ، تصبح هذه العادة طبيعة غلابة فيه .

* * *

ولم أرد إلا أن أشاهد هذه الصحف وهذه المجلات وهى فى دور الإعداد ، فكان لى أن دُعيت لزيارة دار شيرل التى سبق الكلام عليها فى هذا المقال .



إحدى قاعات مطالعة الصحف العامة

كان موعدنا الساعة التاسعة مساءً ولم يكن معى إلا الصديق العظيم الهر ڤون كوس ، ولم تكن دار شيرل فى « تسمرشتراسا » بعيدة إذ كنت أسكن حى بوتسدامر بلاتس ، ودار شيرل تطل على أكثر من شارع واحد لأنها مجموعة متجاورة من الدور ، بنى جانب منها على أحدث ما تكون الفخامة والفن .

وفى الطريق مررنا بدار جريدة « الفولكشر بيوبختر » بأضوائها الوهاجة ، وبنوافذها التى اشتملت على كثير من مطبوعاتها الخاصة بحركة النازى .

وما أن وصلنا الدار حتى كان فى استقبالنا بعض محرريها ، ثم سرعان ما جاء آخر بقلم وورقة يطلب منى حديثًا ، فلم أدرِ عم أتحدث وأى موضوع أعالج ، وأى موضوع أشعر فيه بأن لى رأيًا خاصًا أو وجهة معينة ، ولكن صديقنا كان عارفًا بأصول هذه المواقف فما أن سمع بأنى هبطت برلين لأزور مدارس الأطفال ، حتى كان ذلك موضوع الحديث .

ففتح الله على بكلمتين ، جمعت فيها أبرع ما أعرف حينذاك من أساليب التعبير ، وكنت فى كثير من الأحوال أؤكد نقطة من النقاط لا لأهمية خاصة عندى بل لمعرفة بالاصلاحات الخاصة بها .

ثم نُشر الحديث فى صباح اليوم الثانى فى صحيفة «اللوكال انتسيجر» ولم أدرِ إذ ذاك بنشره إلا بعد ذلك بأيام!

ثم سار بى مضيفى يطوف بى على مكاتب المحررين ، كل اثنين أو ثلاثة منهم فى حجرة واحدة ، وقد تدلت المصابيح على الموائد ، وانتشرت عليها الأوراق والرسائل ، وكنت ترى مظاهر الإجهاد بادية على العيون والوجوه .

فالصحفى فى كل مكان مضنى الحواس مهدم الأعصاب من السهر والقراءة والمراجعة .

ثم كان لى أن أزور رئيس التحرير العام ، ورئيس التحرير فى دار شيرل يشرف على إصدار ثلاث عشرة جريدة منها ثلاث جرائد يومية يوزع منها كل يوم نحو مليون نسخة !

هذا هو رئيس التحرير الذى كان لى أن أزوره ، فدخلت من حجرة إلى حجرة السكرتارية العامة ، ثم إلى حجرة السكرتيرة الخاصة ، التى فى يدها وحدها المنفذ إلى رئيس التحرير ، باب مكسو بالجلد إذا ما قُفل لا تكاد تسمع صوتاً من ورائه .

وبعد دقائق كنا نصافح هذا الرئيس فى غرفة أنيقة ، وأمامه مكتب متسع نظيف لا تعلوه أكداس من الأوراق أو الرسائل ، فوقف مسلماً هاشاً باشاً وتبادل معنا بعض الحديث ، راجياً أن أجد فى زيارتى لهذه الدار شيئاً طريفاً ! ثم انتهت المقابلة بالشكر والسلام .

ثم خرجنا نجوب أطراف هذه الدار ، طبقات فوق طبقات ، وقاعات بها عشرات الآلات والأجهزة ، ومصانع لا عدد لها لكل شىء ، ففى

الدار نجاروها وحدادوها وكل ما تحتاج إليه عملية الطباعة بفروعها المختلفة .

وهذه القاعات وهذه العنابر وهذه الآلات الضخمة الهائلة والأجهزة المختلفة المتنوعة ، كل هذه تجعل التحديد فى الوصف تافهًا منقوصًا ، فأنت لا تشعر فى كثير من جوانب هذه الدار بأنك فى دار للطباعة من كثرة الآلات ، التى كأنها أعدت لصناعة الصلب والحديد .

وتدخل قاعة « اللينوتيب » أو الجمع بالآلة الكاتبة ، فتصم آذانك ، عشرات الآلات وهى ترن فى أرجاء المكان ؛ ومع ذلك فما زالت الطريقة القديمة فى صف الحروف باليد موجودة فى هذه الدار ولعل ذلك لأسباب خاصة .

ثم مررت فى طريقى على الآلة الضخمة التى تطبع مجلة القوخى وغلافها الملون الأنيق ، وقد وضعت بجانبها براميل كبيرة ملأى بالحبر الملون ، تدل على الكميات العظيمة التى تطبع من هذه المجلة ، وهذه البراميل من الحبر الملون تتقلص فى المطابع المصرية حتى تصبح علبًا صغيرة كأنها علب الحلوى !

ثم مررنا على قسم التصوير وإعداد أسطوانات النحاس الخاصة بطبع الروتغراف وقد جلس فيها عشرات من الفنانين يصلحون ويجملون فى الصور قبل إعدادها للطبع .

وفى الاستوديو الخاص بالتصوير الفوتغرافى وقد جهز بعدد كبير

من أجهزة التصوير الممتازة ، دُعيت لأخذ صورة تذكارية فكان لصاحبى ما أراد ، ومرت على تلك الليلة شهور ، وإذا بمظروف كبير يرد علىَّ وأنا فى مصر ، وإذا بصورتين كبيرتين ترسل إلىَّ مع خطاب رقيق من مدير الدار !

وأعظم ما تفخر به دار من دور الصحافة قسم المحفوظات التى بها ؛ وهذا القسم يمثل جناحًا كبيرًا من دار شيرل . وكم يكون عجب الصحفى المصرى حين يعلم أن فى هذا القسم نحوًا من ربع مليون من الملفات (الدوسيهات) عدا فهرس من البطاقات به نحو مليون بطاقة ؛ أما محفوظات الصور الفوتغرافية والمرسومة فتبلغ نحو مليونين ، وتزداد عددًا كل يوم وكل أسبوع .

هذه دار من دور الصحافة فى برلين ، تحكى قصة من أمتع القصص وتوضح مدى التقدم الذى يمكن للصحافة فى بلد من البلاد أن تقوم به إذا وجدت من الجماهير التقدير الواجب .



متحف الحرب

متحف الحرب فى برلين ، معرض للتاريخ الألمانى ، معرض للروح الألمانية ، وهو معرض للطموح الألمانى .

وإن تذهب لتزور هذا المتحف مستعرضًا وفود الزائرين ، لا يقل متعة ولا فائدة عن استعراض ما يحويه متحف الحرب من عُدد القتال ، فمن بين هذه الوفود من اشترك منذ نيف وعشرين عامًا فى ملء ركن كبير مما يحويه هذا المتحف اليوم ، ومن بين هذه الوفود من سوف يضيف - ولا شك فى الغد القريب - أو البعيد جانبًا آخر من جوانب متحف الحرب .

* * *

على مقربة من مكان الجندى المجهول يرتفع متحف الحرب ، أو لعل حدث هذا الأخير لم ير خيرَ مكان له إلا فى ظلال متحف الحرب فى قصره المنيف الذى لا يقل فخاراً فى بنائه ولا قاعاته عن القصر الإمبراطورى الذى يطالعه عن كثب من جزيرة المتاحف .

وأمتع ولا شك ما يضم متحف الحرب مخلفات الحرب العظمى لأن عهدها لم يعد تاريخًا ميتًا ، وقصتها لم تزل تطالع إلى فصلها الأخير .

عندما تتوسط القاعة الأولى ، تستقبلك طائرتان هما من تراث الحرب الأخيرة ، كأنهما جُرتا اليوم من ميدان القتال إلى حيث هذه القاعة مهشمة أطرافها وممزقة أجنحتها ، عليهما كل آثار الكفاح والجهاد تحت المطر والريح ، وتحت وابل القذائف والمفرقعات .

ولا شك أن هاتين الطائرتين خير ما يستقبل وفود الزائرين من الألمان لا سيما من الشباب الطموح الذى تفعل فى نفسه ذكرى الحرب الأخيرة فعلاً ناكئًا . فإن هزمت ألمانيا كشعب ، بيد أنها انتصرت أفراداً وها نحن نقرأ تحت إحدى هاتين الطائرتين « كابتن بولكه»، غزا بطائرته مواقع العدو اثنتين وثمانين مرة ، وقع قتيلاً بجوار اميان فى ٢١ أبريل سنة ١٩١٨»

ليس هنالك أدعى للفخار ، وأجدر بالتقدير من جرأة الشباب ، ومن روح التضحية ، تضحية الفرد فى سبيل الجماعة ، وليس هنالك أروع من تقدير الجماعة لقربان الفرد .

ثم ينعطف الزائر يسرة فى القاعة التى خصصت لمخلفات هندنبرج بطل تاننبرج ومنقذ ألمانيا ورئيس جمهوريتها ومعبود أهلها، هو فى كل شىء مثال للروح الألمانية وللشخصية الألمانية .

بديعة جداً مخلفات العظماء ، وإرثهم الشخصى فهذه النماذج الخطية من الخطابات والمذكرات التى كتبها هندنبرج لإخصائه بحروفه السقيمة وبسطورها التى لا تنسيق ولا جمال فيها ، استهوت جموع

الزائرين ، لا سيما الشباب الذى تراه يدقق النظر فى أسلوب الكتابة علّه يظفر بسر العظمة ومكان النبوغ فى شخصية كاتبها ، ولا شك أن هذه البطاقة البريدية ، التى لا تكاد تبلغ كلماتها العشر والتى أرسلها القائد العظيم إلى زوجته ، مفضياً إليها بخبر النصر الذى هز ألمانيا جميعها فى تاننبرج ، لا شك أن هذه البطاقة أمتع هذه المخلفات وأفعلها أثراً .

وفى صدر المكان خزانة زجاجية تضم أوسمة هندنبرج ونياشينه ، وعلى كل منها اسم الموقعة التى خاضها . أوسمة عديدة تثقل ولا ريب صدر حاملها ، اللهم إلا صدر هندنبرج العريض ، ومن بين هذه الأوسمة وسام ذهبى صغير كُتب عليه « باريس » يذكر الزائر فى لمحة بقصة طويلة قصة الحروب الطويلة بين البلدين المتجاورين . . .

ثم يستعرض الزائر نصبًا لهندنبرج فى كل وضع ، وصوراً له رسمتها له ريشة كل فنان ألمانى نابغ ، صوراً تمثل حياته الحربية فى كل أدوارها إلى أن ارتقى عرش ألمانيا ملكًا غير متوج .

وفى جانب من هذه القاعة لم يغفل وضع نصب لودندرف ساعد هندنبرج الأيمن ، ولم يغفل بعض الزائرين من أن يضع إكليلاً تحت هذا النصب .

* * *

ثم ترجع إلى القاعة الوسطى لتنعطف يمنة إلى قاعات متوالية ، ازدحمت أرضها بمئات المدافع التى تمثل تطورها منذ القرن

السابع عشر إلى الحرب الأخيرة ، وليس كل زائر يعنيه أن يدرس درجات هذا التطور ، وليس كل زائر يصبر على سماع الشرح الطويل الذى يفيض به دليل المتحف وهو ينتقل بين هذه الأجهزة لا يكل ولا يمل من ذكر الأعداد والأرقام .

وإذا انتهيت من استعراض ما يحويه هذا المكان من مخلفات متشابهة ، نفذت إلى الفناء الأوسط تستقبلك نماذج حديثة من معدات الحرب العظمى؛ نصبت فى هذا المكان بغبارها وترابها من حيث كانت ترسل الهلاك على الآلاف من الناس .

ويستوقف نظر المتنقل اليقظ فراغ فى بعض أركان الفناء غير مقصود ، فيظن فى بادئ الأمر أن هذا المكان لم يجدوا ما يملأونه به من المخلفات مع كثرتها وتنوعها ، ولكنه سرعان ما يرفض هذا الفرض حين يشاهد على أرض المكان مصاطب مربعة مما تستعمل لتثبيت المدافع الثقيلة التى كانت يومًا فى هذا المكان ، ونقلت لإصلاحها أو لإصلاح قواعدها هذه ، وسرعان ما يرفض هذا أيضًا حين يشاهدالصور الفوتغرافية التى لُصقت على حائط كل قاعدة من هذه القواعد الفارغة ، ثم يقرأ ما كُتب عليها .

أما الصور فتمثل هذا المكان نفسه وقد ركز على قاعدة من قواعده مدفع اختفى ولا شك الآن ، أما ما كتب تحت هذه الصور فيذكر الزائر - الزائر الألمانى والأجنبى على حد سواء - بأن محتويات هذا المكان

من مدافع مسلوبة فى مواقع حربية مضت ، قد ردت منذ نيف وسبعة عشر عامًا إلى فرنسا وطنها القديم ، عملاً بما نصت عليه معاهدة فرساى فكان أحد شروطها ، مع أن هذه الغنائم يرجع تاريخها إلى أبعد من الحرب العظمى .

ولو أن هذه الأسلاب قد تُركت حيث كانت لما تنبه إليها زائر عجل يجهل دقائق التاريخ ، ولكنها كما هى الآن بهذا الفراغ الذى دُس على نظام المكان دسًا ، ثم بهذه الصور ، وبما كتب تحتها كأنما هو عذر يقدمه المتحف لزائريه عن نقص ليس لهم فيه يد ، نعم بهذا الفراغ المقصود وبهذه الصور لم يدعوا زائرًا يشق هذا الفناء يجهل هذه القصة ، والتى ولا شك أن فكاهتها تغطى على مرارة حقيقتها .

* * *

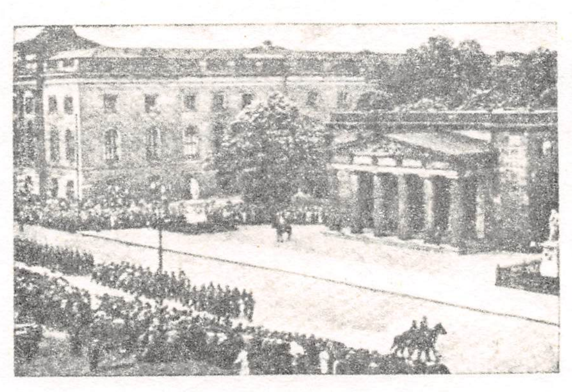
ثم يعتلى الزائر الدرجات العريضة المتفرعة ليصل إلى الطابق العلوى من هذا القصر ، فلا يكاد يتخطى بابه المرتفع حتى يلمح أكاليل الأوراق الخضراء والزهور ملقاة على الأرض تذكر الداخل بأن ما يستقبله تاريخ حربى نابض لا تزال قلوب الزائرين تخفق لذكره .

وأى تاريخ يثير النفس ويخفق له قلب الألمانى إعجابًا وتقديرًا وحسرةً غير تاريخ هندنبرج . نعم هندنبرج فى كل مكان وفى كل ركن من أركان هذا البناء .

فى وسط القاعة الفاخرة قاعدة من الحجر عليها صندوق زجاجى به وجه هندنبرج وهو على فراش الموت مصنوع من الجبس الأبيض .

ويتلفت الزائر ليجد حوله دائرة من هذه القواعد المرتفعة التى تحمل تماثيل نصفية لثمانية عشر رجلاً من رجال الحرب ، وفى صدر هذه الدائرة تمثال آخر لهندنبرج وعلى يمينه ويساره تمثالان لقائديه ليدندرف وفون مكنزن .

وأسماء كثير من هؤلاء القادة الألمان الذين خاضوا الحرب العظمى لا أزال أذكرها وقد كنت أسمعها وأنا صبى فى سنى الحرب ، وكان أبى وجدّى ومعارفهما يقرأون الصحف فى ليالى الشتاء القارسة فى أسوان ويعلقون على سير القتال ما شاء لهم الخيال ، ويصفون ما كانوا يظنون أن الصحف كانت عاجزة أو خائفة عن وصفه ، فكانت هذه المجالس بما كنت أسمع فيها عن بطولة هؤلاء القادة ، تصور لى أصحاب هذه الأسماء أبطالاً فى غير مستوى البشرية ! ولكن هذه تماثيلهم بينها الوجه الذى تراه فى كل طريق ، والجسم النحيف الأعجف



استعراض عسكرى أمام متحف وتذكار الحرب

والعيون الساهمة التى قد لا تدل على أن صاحبها اعتلى جواداً أو خاض حرباً ! لقد وجدت أن هؤلاء الأبطال ناسًا مثلنا ، حتى فى وجوههم وأجسامهم .

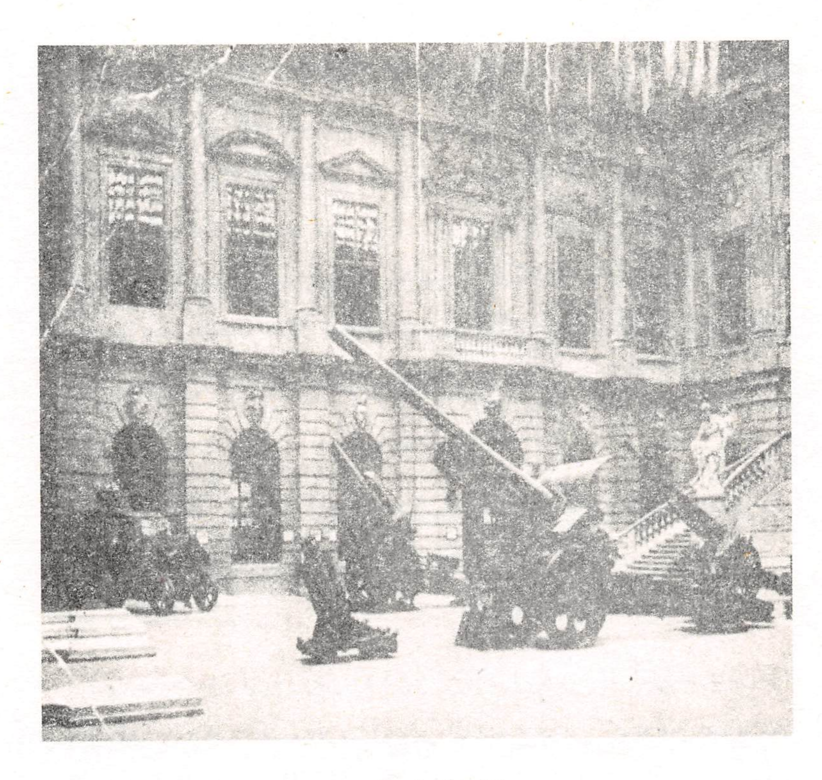
وما أبعد الفرق بين هذه التماثيل التى تنقل عن الطبيعة ، وبين شبيهاتها وجاراتها فى هذه القاعة ، هذه التماثيل التى كأنما صنعت لجبارين كانوا يعيشون على الأرض وانقرضوا كما انقرض الدنصور ، وقد صُنعت من النحاس الأصفر اللامع ، فازدادت بذلك فظاعة فوق فظاعة !

هؤلاء الفنانون القدماء كانوا كالأطفال يريدون أن يكملوا بخيالهم فى تخليد أبطالهم ما ينقصه هؤلاء الأبطال من أذرع مفتولة وسيقان متحجرة وصدور كأنما هى صدور الغورلا ، تطبل عليها عندما يدق ناقوس الحرب .

وفخامة هذا القصر تجلوها بعض قاعات هذا الطابق الحالية بعض الشىء حتى تبدو اللوحات الزيتية الهائلة على جدرانه والتى تمثل مراحل حربية هامة فى التاريخ الألمانى، وحتى تبدو التماثيل النحاسية للملوك والأمراء والقواد الذين عاشوا فى غير هذا القرن .

* * *

ثم تتتابع على عين الزائر المعروضات وقد ملأت عشرات القماطر الزجاجية التى صُفت صفوفًا متوالية منتظمة .



فناء المتحف الحربى

وتستقبلك قماطر الأوسمة والنياشين والأنواط الحربية ، مئات منها على كل شكل وفى كل وضع ، باهرة الألوان مرصعة الحوافى ، لا تختلف اختلافًا بينًا عن الحلى التى تزين المرأة به على صدرها أو تدليه من عنقها ! ولماذا يريدون منا رجال الحرب أن نقدر بطولتهم أو نذكر رجولتهم وتضحياتهم بهذه الحلى وهذه الجواهر وهذه الشرائط الحريرية؟ وهل قصر عقل الفنان عن أن يمثل هذه البطولة إلا فى هذا الوضع المسموخ الذى لا يمت إلى الرجولة برحم ولا صلة ؟ !

* * *

ثم تستقبلك قماطر الملابس العسكرية فى درجاتها وفى عصورها المتوالية ، بعضها بلى ورث ، ولكن رثها كان يستهوى نظر الزائر المتعطش لكشف الأسرار الذى يستهويه الشىء النابى الغريب .

ثم هذا فرس فريدريش الأكبر ، يقف مرفوع الرأس لم يبلِ مر الأيام جلده ولم يسقط شعره الأبيض الناصع فكان أثبت من صاحبه قدرة على مجالدة دورة الزمن .

والخيل والكلاب كالناس منها السعيد ومنها الشقى المحروم ، فملايين الناس تموت وتولد كل عام ، وآلاف الخيل تنفق فى كل صورة ولا يعرف أصحابها كيف يتخلصون من جيفها ، ولكن بين الخيل السعيد الذى لا يريد إلا أن يخلد سعادته وقد نفق منذ ثلاثة أرباع قرن مضى ؛ ولا يريد أصحابه إلا أن يذكِّروا الزائر لهذا المكان بقصة هذا

الفرس كاملة ، بصحبته لمليكه وتاريخها ويوم موته وعمره العزيز السعيد .

* * *

وعندما تبدأ صفوف الحناجر والسيوف والبنادق ، تعرف أنك قد بدأت قصة لا خاتمة لها ، الآلاف منها ، لا تكاد تشعر بفرق بين الواحدة والأخرى لا تكاد تشعر بهذا الغرض الذى من أجله جمعت هذه الآلاف من السيوف والخناجر فى هذه القاعات المتوالية .

وبين حين وحين تتمهل هنيهة تستوقف نظرك صناديق ضخمة مما كان يحمله القواد معهم فى رحلاتهم الحربية ، وتسترعى نظرك مجموعة من المفاتيح الضخمة الملتوية التى لا جمال فيها ، وعلى كل منها بطاقة باسم القلعة التى كانت تحرسها هذه المفاتيح فى يوم من الأيام .

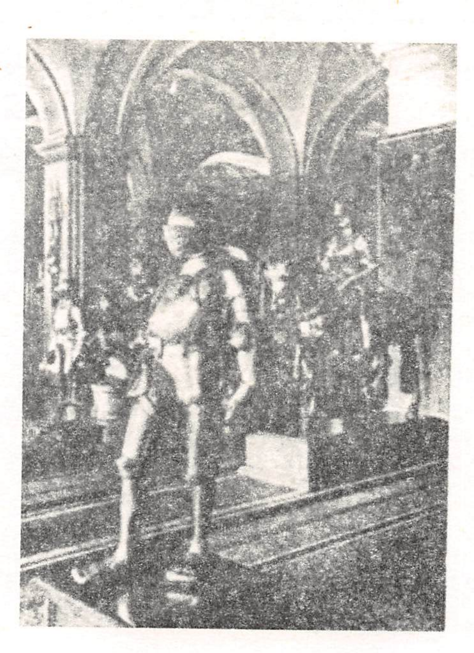
ثم تسترعى نظرك مخلفات تركية قديمة من خيام ومن حراب ومن سيوف وبنادق ، تذكرك إذا نسيت غارات الأتراك على قلب أوربا حتى ڤينا .

ثم تسترعى نظرك خناجر عربية مرصعة القبضات وسروج فاخرة مزركشة بالفضة وبالحرير والقصب ، هدية من محمد على منشئ مصر الحديثة .

ثم ترى ملابس شرقية من الزرد وقلانس غريبة الوضع جاء ت من

وراء البحار ، ومن اليابان ، وما أشبهها بملابس فرسان القرون الوسطى فى أوربا ، التى ولا شك ينقصها الشىء الكثير من دقة الصناعة التى لهذه الصناعة اليابانية العتيقة ، ولم يكتفِ هؤلاء الفرسان بوقاية صدورهم وسيقانهم بل إنهم صنعوا من هذه الملابس الحديدية ما كانوا يقون به أنوفهم وآذانهم وأطراف أصابعهم ..

وهكذا تختم زيارتك للمتحف الحربى بما يذكرك بالشرق وبجهاد طويل بينه وبين الغرب الحديث ، الذى لم يرعَ له حق الأبوة ولا حق الجوار ، منذ أن عرف الغرب البارود والفحم والحديد .





أن تطلب كوبة من الماء فى مطعم من مطاعم برلين ، سابقة لا يقرك عليها أحد ، وتقليد لا يعترف به إلا الغريب النازح . فجداول بافاريا كما يقولون تفيض جعة ، ومياه الراين تتدفق نبيذاً .

إذا طلبت كوبة ماء فقد لا يخطئ الخادم إذا قدم إليك ماءً معدنيًا لا ماءً قراحًا ، فإذا كان لا بد من الماء القراح فعليك أن تحدد وصفات هذا الماء ولونه وطعمه ، وأن تتقبل بابتسامة نظرة الخادم التى لا تدل على الرضا والقبول .

ولست أدرى هل أنشئت هذه المقاصف أصلاً للجعة والنبيذ واستحدث فيها الطعام ؟ أم هى قبل كل شىء مطاعم استحدثت فيها الجعة والنبيذ لفتح شهية الآكلين ؟

والألمانى مفتوح الشهية بطبيعته يأكل دون حساب ويلتهم أطباق اللحم والسمك والخضر الواسعة التهامًا ؛ والألمانى يشرب الجعة كما يشرب العطش الصادى أكواب الماء البارد دون تدبير أو مراجعة ، فهو يشرب الجعة فى الصباح الباكر قبل إفطاره ، وهو يشربها فى ضحاه

وعلى مائدة الغذاء وفى الأصيل وفى المساء ، وحول موائد السهرة حتى الساعة الأخيرة من الليل .

ومطاعم الجعة فى ألمانيا شىء مما تنفرد به هذه البلاد ، ومما لا تجد له النظائر والأشباه فى بلد آخر ، فكما أن مشارب الشاى قد صارت مظهراً من مظاهر الحياة الإنجليزية ، فمطاعم الجعة تحمل هذا التقليد فى العالم الألمانى .

فإذا دخلت أحد هذه المطاعم فى برلين وقد أمسى المساء ومدت أسمطة الطعام وانعقدت حلقات الدخان فى الهواء ، وهزت الموسيقى الداوية أركان المكان ، فإنك تشهد منظراً فريداً منقطعاً .

مئات من هذه الموائد المتجاورة الخاصة بالآكلين والشاربين والمدخنين ، تجد أفراد الأسرة الواحدة جلوساً يتناولون طعامهم فى هذا الخضم الصاخب ، أو تجد عصبة حافلة من الأصدقاء والرفاق قد احتلوا مائدتين متجاورتين وقد عقدوا مجلسهم حول أطباق السجق وأكواب الجعة .

وحول هذه الموائد يدرس هؤلاء الألمانيون مسائلهم العامة والخاصة ويبحثون شئون السياسة الحزبية والعالمية ، وحول مائدة من هذه الموائد وفى مطعم من مطاعم الجعة الصغيرة فى ميونخ عقد هتلر أول اجتماع لتكوين حزبه الذى يحكم ألمانيا اليوم ، وأخذت هذه المائدة تتسع حتى شملت اجتماعاته المطعم بأسره ثم انتقلت إلى قاعات الجعة الواسعة التى اشتهرت بها ميونخ والتى تشمل آلاف المقاعد ! وليس هذا بالأمر

الغـريب ؛ لأن مطاعم الجـعـة أرحب من أن تضـيق ببضـع آلاف من الجـالسين ، وليس هنالك من مكان أنسب للألمانى لبحث مسائل السياسة من الموائد التى حفلت بأكواب الجعة .

وبروسى الصميم بدين ممتلئ البطن من فعل الجعة ، والتى لا يشربها فى أكواب الزجاج التى يعرفها جمهور الشاربين ، بل فى أقداح الفخار الضخمة ذات المقابض الغليظة ؛ لأنه يتهم أقداح الزجاج الرقيقة بأنها لا تشفى غلته ولا تنقع صداه !

وليس للجالس فى هذه المطاعم أن يطلب من الخادم ملء قدحه الفارغ ، لأن من التقاليد المتعارفة أن يستبدل الخادم الأقداح بغيرها إذا ما اختفى شرابها فى بطون الجالسين ! ومطاعم الجعة الكبيرة فى برلين تسمى بأسماء شركات التقطير التى تصنعها كشولتها يس وانجلهارت وبرلينر كندى وغيرها .

والطعام الألمانى قريب فى ألوانه من الذوق الشرقى الذى ينزع إلى الدسم ، وهو فى وفرته إلى النزعة الشرقية التى تميل إلى الكرم والتبذير فى إعداد أطباقه ، فهى ليست بالأطباق المتواضعة التى نألفها فى المطاعم العامة ، بل الصحون الواسعة التى نشاهدها فى موائد الأفراح !

وكان لنا صديق يعجب كيف يتأتى لهذه المطاعم أن تقدم فخذاً سليماً لكل آكل تحيط به كومة من صنوف الخضر ولا يتكلف ذلك إلا ماركاً واحداً وبعض مارك !

وهذه الأكداس من اللحوم واللحوم البرية والأسماك كأنها تستورد بغير ثمن فهى زهيدة بخسة ؛ قد لا يتعدى ثمن الطبق السخى منها أجزاء المارك الواحد .

والسجق من الأطعمة القومية الألمانية ، يلتهمونه كما يأكلون الخبز ، يأكلونه باردًا ، وساخنًا ، حول موائد الطعام، ووقوفًا أمام مناضد البيع ، بل وفى أركان الشوارع فى ساعات الليل المتأخرة .

والخبز لا ثمن له ، يقدم للآكلين مجانًا كما يقدم الخردل أو الكامخ ، والخبز الألمانى أسمر له طعمه الخاص فهو مصنوع من الدخن والشوفان، قد لا يستريح إليه الغريب إلا إذا اعتاد عليه بعض الوقت .

* * *

والإنجليزى يجد فى مطاعم اشنجر ما يذكره بمطاعم ليونس فى لندن ، بأبوابها البيضاء وبالحرف الأول من اسمها وقد نقش باللون الأزرق ، تجد هذه المطاعم فى كل شارع من شوارع برلين بل وقد تصادف أكثر من مطعم واحد فى الشارع الواحد ، وتفتح أبوابها لآلاف من رجال العمل فى برلين لا سيما فى فترة الغداء .

وليس لك أن تجلس إذا كنت عجلاً ، لأنك تجد فى هذه المطاعم ركنًا يقدم فيه الطعام البارد على المناضد العالية والآكلون وقوفًا يتخيرون ألوان الطعام المعروضة وقد وُضع على كل صنف ثمنه .



مطاعم الجعة الصيفية فى برلين قبل الحرب

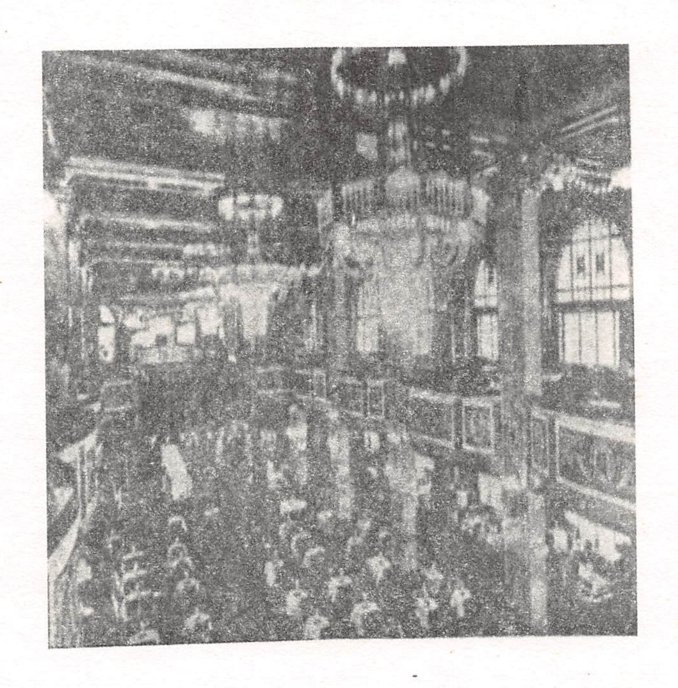
وفى هذه السنين الأخيرة انتشرت المطاعم الأوتوماتية فى برلين أيما انتشار ، وهى رخيصة جد الرخص لا يتجاوز ثمن الصنف الواحد منها عشرين فنشاً ؛ وهى أشد ما تكون مناسبة للأجنبى الذى لا يحتاج إلى سؤال أو استفهام إذ هو يبتاع حتى شرابه بنفسه فيضع القطعة ذات العشر فنشات فينساب الشراب إلى الكوبة التى يضعها تحت الصنبور المتخير .

وفى ساعات الغداء والعشاء يقدم كل مطعم من مطاعم برلين وجبة خاصة تحتوى على ثلاثة أصناف أو أربعة يطلقون عليها « فست جيدك» ،كما تقدم بعض هذه المطاعم صنفاً واحداً معيناً فى كل يوم من أيام الأسبوع يطلقون عليه اسم اشتام إسن وهو طبق وفير ممتاز لا يتجاوز ثمنه المارك الواحد يغنى بوفرته عن الوجبة الكاملة .

وهكذا ترعى برلين جمهور الآكلين بكل صنوف الرعاية وتقدم لكل فم ما يملأه .

* * *

وعلى هامش هذه المطاعم تجد قائمة من المطاعم الأجنبية ، فليس الطعام كالعلم الذى لا وطن له ، فالإنسان حيثما سعى على وجه الأرض حمل زاده على رأسه، وكأن نبت أرض هذه البلاد التى ينزح إليها لا يشبع له سغباً ؟



مطعم الفاترلند من مطاعم برلين المعروفة

وإلا فما الذى يحدو بالأجنبى فى عاصمة عظيمة كبرلين أن ينزوى فى طريق مهجور ، وفى مكان بعيد عن كل عين ، ما الذى يحدو بهذا الأجنبى إلى هناك إلا تناول أطباق الطعام الوطنية ، وهى التى فى سبيلها يهجر مطاعم العاصمة البديعة بزخارفها وموسيقاها لينزوى فى ركن صامت يلتهم هذه الأطباق تذكار الوطن فى بلاد الغربة ؟

وكم أتساءل عندما أطرق هذه الأماكن مستطلعًا أو إرضاءً لرغبة صديق ، وأجد على نوافذها المتواضعة أطباق الزيتون الأسود أو الفلفل الأخضر ، أو الحلاوة (الطحينية) أو لفافة من لفائف الكنافة ، كيف أن هذه جميعًا لا تكفى لإغرائى على البحث والتنقيب عنها ؟

وكان صديقنا الأستاذ ل - يسألنى كل ساعة فى كل يوم منذ أن وصل برلين ، أن أدله على مطعم من مطاعم اليونانيين لأن مطاعم أبناء اليونان لا غنى عنها - كما يرى - فى أية مدينة من مدن العالم .

وكان صديقنا الأستاذ ل - يقول إن مهمتى كدليل تنتهى بذلك ، ولكننى كنت أتحايل عليه عله يجد فى المطاعم البديعة التى نطرقها سلوى عن مطاعم أبناء اليونان وأضرابها فى المطاعم الشرقية ، وهى بطبيعة الحال لا تخلو منها عاصمة كبرلين ، تدفع فيها أضعاف ما تدفعه فى شبيهاتها ، ثمنًا لطبق من الباذنجان أو الأرز المفلفل ، مما تستورده هذه المطاعم من وراء البحار إرضاءً لشهوة الآكلين .

وموكا إفتى أحد هذه المطاعم التى أصاب أصحابها الجد فاستحال من مطعم منزوٍ لا يطرقه إلا الأجانب إلى مقصف رحب واسع ،

تميزه فى شارع فريدريش بزخرفته العربية . وتصعد إليه بدرجات متحركة حيث الطابق الأول ثم الطابق الثانى .

وتسود المكان مسحة شرقية مصطنعة ، فالأسقف مزخرفة مذهبة ، والأعمدة إسلامية ، والأبسطة فارسية ، والستائر والصور والرسوم مما تذكر ببلاد الشرق ، ثم القهوة التركية تكمل هذه الصورة .

ولا شك أن يد البلى قد امتدت إلى المكان فأصبح كتلك القصور القديمة التى قضى أصحابها ولم يتعهدها الوارثون بالرعاية والعناية ، فأصبحت عظمتها تولد الحزن والكمد بدلاً من الإعجاب والزهو . وعلى أطراف حدائق التير المقهى الجديد لموكا إفتى ، بحديقته الصغيرة المظللة وبمرقصه المذهب وبهوه الحديث الفاخر ، إلا أنه لم يبقَ من شرقيته إلا اسمه الأجنبى .

والمطاعم الإيطالية بما يقدم فيها من أطباق (المكرونة) الشهية لا تخلو منها عاصمة من عواصم الشمال ، والإيطالى فى أوربا الشمالية لا يعرف عنه إلا أنه طاهٍ حاذق ، أو خادم عارف بأصول رعاية الموائد وإعدادها ، وفى برلين عدد من هذه المطاعم الإيطالية ، ثم الروسية بما يقدَّم فيها من الأسماك وشراب الفودكا تزدحم أيام الآحاد بجموع الراقصين ، ثم المطاعم المجرية بما يقدم فيها من لحوم الطيور البرية والأوز المحشو بالأرز .

والنباتيون لهم مطاعمهم فى برلين ، ولهذه المطاعم جمهورها الزاخر ، وبرلين فى ذلك لا تفوقها إلا ڤينا ، حيث تجد عشرات من هذه المطاعم التى حُرمت فيها الدماء ، والتى تشعر وأنت بين جدرانها بأن حمائم السلام البيضاء ترفرف فوق رؤوسها ، وأنا كنباتى أحج إلى هذه الأماكن ، لأريح نفسى من الوصف والشرح عن خصائص الطعام الذى أطلبه ، هذا الشرح الذى كثيراً ما يضايق الخادم فينتقم منى بمضاعفة الثمن المفروض .



ليس « فرانسوزشه اشتراسا » من الشوارع المجهولة فى برلين ، وليس الرقم الثالث والعشرون من الأرقام التى تفوت الملاحظة ، وليس متحف الثورة الذى يحمل هذا العنوان فى كتب الأدلة من الأمكنة ذات المنزلة الثانوية فى بلد كبرلين .

ولكن الحقيقة أن كل هذا لم يجد نفعًا فى البحث عن متحف الثورة ، الثورة التى قلبت نظام الحكم فى ألمانيا من سنين ثلاث .

كان من المفروغ منه عندى أن ذلك الصبى الذى كان يتفرج على المجلات المصورة من وراء نافذة المكتبة يدلنى ببساطة عن مكان متحف الثورة ، لكنه لم يعرف أين هو !

ثم سألت موزعًا من موزعى البريد ، فاكتفى بإجابة ملتوية وإشارات لا توصل إلى مكان !

ثم سألت رجلاً من رجال البوليس ، فأخرج دفتره وأخذ يتأكد من رقم المتحف ونحن فى الشارع المبحوث عنه ! والشرطى الألمانى لا يخرج دفتره إلا فى حل سر خفى من أسرار المدينة العظيمة ، أما أن

يبحث عن عنوان متحف الثورة فى دليله الرسمى فهذا ما أثار فىَ الدهشة وأذكى حب الاستطلاع !

أما هذه الدار التى تحمل الرقم الثالث والثلاثين فلم يكن يدل مظهرها على شىء ، لقد كانت بالعكس تدل على السلام والهدوء ، وليس فى نوافذها المعلقة ما يدل على تمرد أو ثورة !

ولم أرد أن أسأل القصاب المجاور ، ولم يرد أن يدعنى العجوز بائع التبغ أتردد فى سؤاله بل ابتسم وشجعنى على الاقتراب منه ، وطرح مشكلتى بين يديه .

« نعم إنك تبحث عن متحف الثورة ؟! نعم إنه كان فى هذا الركن إلى عهد قريب ، ثم انتقل إلى بناء آخر ، سر إلى أن تصل إلى شارع فريدريش ثم انعطف يساراً ثم يميناً حتى تصل إلى يجر شتراسا ، إنه هناك فى المنزل الأول على يسارك .... » .

ولم يرد إلا أن يسير معى شوطاً وهو يعيد الشرح والإشارة ويبتسم لى بعطف ، أخذت أحلله وأنا فى طريقى إلى متحف الثورة ؛ نعم إن صاحبى ، لا شك من أبناء صهيون الذين قاوموا هذه الثورة والتى من أجلها أنشئ هذا المتحف ، ولا شك أنه كان يتهكم فى سره من القدر الذى جعله دليلاً لما هو أزهد الناس فى البحث عنه أو الإرشاد إليه !

* * *

طابق واحد أرضى ، وقاعة واحدة تقودك إليها ردهة متوسطة الحجم هو كل ما يحتله متحف الثورة فى برلين .

وعند عتبة البناء جندى هو تمثال من الشمع بملابس حربية باهتة رثة ، لست أدرى أهى براعة الفنان أم فعل الزمن الذى جعل ملامح هذا التمثال الشمعى تثير الانقباض والألم ! لقد كان حقًا تمثالاً ! أما العلم الذى ربط إلى ذراعه فلا يكاد يرفرف ، وكان صامتًا كصاحبه .

فإذا ما دفعت الفنشات الثلاثين رسوم الزيارة قادك أحد الشبان الهتلريين بابتسامة جذابة إلى القاعة . ولا شك أن هذا المكان قد نظمت معروضاته بعجلة ، فهو تنقصه تلك اليد الفنانة التى عُرفت عن الألمانى فى التنسيق والعرض .

إن هذه القاعة الممتدة ذات الجدران القديمة ، وهذه المناضد التى توسطت المكان ، تُشعر الزائر بأنه فى مخزن من مخازن المتروكات أو الأمتعة الضائعة لا فى متحف ، ومتحف عن الثورة ، ومتحف عن الثورة فى برلين !

والموسيقى لا تنقطع ولا تصمت ، وهى بضجيجها الذى يرن فى القاعة رنينًا ، وهى بنغماتها الحربية أو الثورية إذا شئت أن تقول ، لا تدع أعصاب الزائر تهدأ أو تبرد ، بل تهزه جسمًا وروحًا و تذكى الحماس فيه إلى أبلغ حد .

* * *

وهذه المعروضات التى تملأ المكان ، هى مخلفات ثورة برلين فى سبيل الحكم الجديد ، ثورة برلين منذ أن عُقدت الهدنة وخرجت ألمانيا بعد الحرب مغلوبة على أمرها فقيرة كسيرة النفس ، ولكنها خرجت من حرب إلى حرب ، إلى حرب داخلية أشد مراساً ، وأصبحت برلين ميداناً دامياً لهذا النزاع العنيف .

تمر أمام هذه الصور المعلقة ، وأمام قصاصات الصحف المصورة ، لترى كيف كانت برلين فى محنة وبلاء ، لترى كيف كانت شوارع برلين مجزرة ، وكيف أقوت ميادينها وهجرت بيوتها ، وكيف كانت النيران تلتهم قصورها ودورها التهاماً ؛ لترى كيف كان أهل برلين عصابة مسلحة !.

ثم تذكر برلين اليوم بمتنزهاتها ومسارحها ومقاهيها الفاخرة وموسيقاها الراقصة ، لتحمد الله الذى غيّر زماناً بزمان ، وعهداً بعهد ، وتشعر من صميم قلبك بمبلغ عذاب الإنسانية ، إذا تمرد الإنسان واحتكم إلى عواطفه .

وأول ما تستقبلك كومة من الشارات المعدنية مما كان يستعمله أعضاء الجمعيات الشيوعية ، أو السوفيتية ، أو الحمراء ، تلك الجمعيات التى طغت على برلين بعد الحرب ، وكادت تجرف ألمانيا فى تيارها إلى الأبد !

والتصقت اليهودية بهذه الشيوعية الحمراء أو قُل تفرعت منها أو شيدت على أسسها ، قل ما شئت إذا لم تكن من الحاذقين لدقائق السياسة ، ولكن كل ما هناك أن أصبحت اليهودية عدواً تناهضه الثورة هذه كما تناهض الشيوعية !



فى متحف الثورة

فها هى صور لينين وزعماء السوفييت يعرضون كأعداء للشعب ، كما يعرضون اليهود من الوزراء السابقين ورجال المال أو الصحافة أو الزعامة !

تنظر إلى أصحاب هذه الصور وإلى صاحباتها ، فتشعر كأن الفزع منبعث من وجوهها تشعر كأن هنالك شيئًا خسيسًا مختلفًا خلف هذه الملامح ؛ كما تستعرض صور جماعة من النشالين فى قاعة مركز من مراكز الشرطة ؟

ولكنها الحقيقة، غير ذلك إننا ننظر إلى أصحاب هذه الصور كأعداء لنا دون أن نعرف نوع هذه العداوة ؛ فلا نلمح فيها إلا الغل والحقد واللؤم والخسة .

وفى طرف المكان لمحت وجهًا أعرفه ، وجه تمثال نصفى من الجبس ، ومن الذى أتى بالدكتور هرشفليد الباحث التناسلى فى هذا المتحف ، ولأى صلة وأية رابطة !

ثم اقتربت من التمثال وقرأت ما كتب عليه بعجلة « . . هرشفليد الخنزير » لقد عرفت هرشفليد فى مصر حين هبطها زائرًا باحثًا ثم زرت برلين منذ سنين فزرت معهده التناسلى ومتحفه النادر فى أمور الجنسيات وامتدت صداقتى بمساعديه فتبادلنا الشاى وغير الشاى !

وفى ذلك الوقت كنت لا أكاد أميز معنى هتلر ؛ وكان حزبه إذ ذاك فى أول الطريق ، وأذكر أن كنا يومًا نتحدث عن شئونه السياسية وقد

نفذت أبواب الحديث الأخرى ، فأجابتنى الدكتورة فرست ، مساعدة هرشفليد إذ ذاك « . . وإذا شق هتلر طريقه إلى الحكم شققنا طريقنا نحن إلى ڤينا . . »

ومضت الأعوام وأنا لا أكاد أفهم مدى تلك الجملة العارضة حتى وقفت أمام تمثال هرشفليد فى متحف الثورة الذى كتب تحته ما كتب ، عند ذلك عرفت كل شىء .

* * *

والبنادق والمسدسات والخناجر والسيوف والمفرقعات والقنابل والبارود ، شىء لا بد منه فى متحف الثورة . وهكذا ترى فى هذا المتحف .

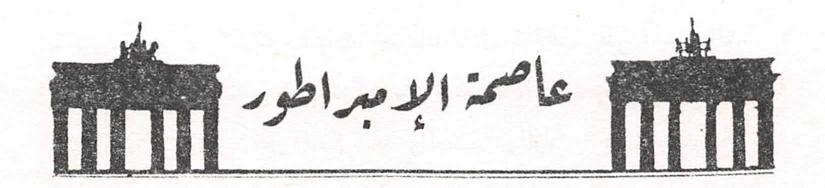
وأكوام الكتب والنشرات والصحف مما كان يتخذ وسيلة للدعاية الشيوعية ، ترى منه الشىء الكثير فى أركان هذه القاعة التى ولا شك ضاقت مناضدها ورفوفها عن ترتيب هذه الأكوام من الورق وتنسيقها .

لقد ضم فى هذا المتحف كل شىء حتى صناديق الإحسان لمساعدة اليهود ، وحتى أقراص (الفونغراف) التى سجلت عليها الأناشيد والأغانى الشيوعية أو اليهودية .

أما الأعلام الحمراء والشارات التى كانت تتصدر مظاهرات اليهود والشيوعيين فقد غطت جدران القاعة الخالية وصبغتها بلون قان مثير للأعصاب .

وبين هذه الأكوام من المعروضات ، لا بد وأن تجد ما يدفعك إلى السؤال: أو لعلك فى مثل هذا المتحف القومى ترى من الحكمة أن تبرز مبلغ عنايتك وعظيم رعايتك مما يحويه مثل هذا المعرض .

لقد كان ذلك وتخيرت تمثالاً أو صورة لا أذكر ، وقد تركت دون تفسير أو إيضاح وتقدمت إلى أحد الشبان الواقفين ، وطلبت منه هذا الإيضاح المفقود ، فما كان منه إلا أن صمت ، وما كان منه إلا أن استأذن ليراجع رفيقه ، وما كان منه إلا أن نسى أن يرجع إلىّ ، ثم ما كان منى إلا أن تغابيت ، وخرجت فى ضجيج النشيد كأننى الظل السارى .



عاصمة الإمبراطور

ليس هنالك من مكان فى برلين أمتع للأجنبى من شارع انتردن لندن .

ما أرحب أركانه وما أفخره وما أشد نبض الحياة فيه ! وهل هنالك من شارع فى العالم أجمع يذكر بجانب هذا الشارع الفاخر الذى يمتد من القصر الملكى ، من تمثال فرديريك الأكبر إلى قوس براندنبرج ؟

إن التاريخ البروسى جميعه يتبلور فى هذا الشارع ، إنه كثيراً - وكثيراً جداً - ما ردد هتاف مئات الآلاف من أهل برلين ، وأنه أيضاً شارك برلين فى بأسها عندما فتحت أبوابها مكرهة أمام نابليون ، وكم اهتزت جوانب الشوارع فرحًا وابتهاجًا عندما شد رحاله وتخلصت البلاد من نيره !

وفى هذه الأيام أصبح الطريق الذى تسوره أشجار اللندن فى وسط هذا الشارع ملعباً للأطفال ترتفع أصواتهم حتى إنها لتطغى على ضجيج الشارع .

وعلى جانبىّ الشارع حيث طريق العربات تجد اليوم عشرات من السيدات والرجال على ظهور الخيل فى طريقهم إلى حدائق

التـير جارتن ، وتسمع دفعات العربات بكل أنواعها على أرض الشارع الحجرية ، وعلى الطوار عشرات من ضباط الحرب بملابسـهم الزاهية والتجار والوزراء ورجال الحكومة ، والخدم ، والزوار الأجانب فى أيديهم دليل بدكر الأحمر ، والسيدات فى فاخر الثياب ، والعاملات فى أثناء راحة الظهر ، يسيرون ويروحون فى سيل لا ينقطع .

ولكن ها قد كثر رجال الشرطة وتجمعوا فى منتصف الطريق يحولون العربات إلى الجانب الآخر من الشارع . وسرعان ما أثار ذلك انتباه السائرين وسرعان ما تجمعوا على حافة الطريق .

إنه الإمبراطور !

ثم انحدرت العربة القيصرية يحرسها حاجب زينت قبعته بالريش يدل وجوده على وجود سيده العظيم ، فتعرف بأن الإمبراطور هناك ! وما أسرع أن خُلعت القبعات تحيةً وانحنت السيدات عندما مرت بهن العربة .

وكانت يد الإمبراطور لا تنفك تتحرك ترد التحيات ، ولم تدع عينه شيئًا يمر دون ملاحظة - تلك العين التى ترى وتلمح كالبرق .

وما كان الإمبراطور يبتعد ويستأنف الشارع هدوءه كما كان ، حتى ملأت الهواء نغمات الموسيقى الحربية ؛ لقد كان الحرس فى طريقه للتبادل اليومى ، يتقدم الموكب عدد من رجال الشرطة الراكبين ، ولم يرد بعض السائرين العاطلين إلا أن يسيروا جنبًا إلى جنب مع كوكبة

الحرس ويناسبون خطواتهم مع نغمات الهوخن فردبرج أو التورجانر ، الأنشودتين العسكريتين الشائعتين . وهكذا سار هذا الجمع العاطل جنبًا إلى جنب من قوس براندنبرج ، وفى كل يوم ترى هذه الوجوه



الإمبراطور

عينها تقطع هذا قوس براندنبرج ، وفى كل يوم ترى هذه الوجوه عينها تقطع هذا الشارع على نغمات موسيقى الحرس .

وكانت نوافذ الشارع مزدحمة بالناظرين فى أثناء سير الحرس ؛ ثم وقف السائرون من جديد يرقبون هذا الموكب العظيم حين عودته إلى القصر .

وفى تلك النافذة الأخيرة من القصر - النافذة التاريخية كما يعبرون عنها . كان الإمبراطور ولهلهم الأول يقف كل يوم ليحي الحرس فى طريقه وفى عودته ، وكان فى أيامه الأخيرة يحمل ولى العهد حينذاك على ذراعيه يلقن الأمير الصغير كيف يؤدى التحية العسكرية ، مثيراً بذلك ابتهاج الجنود والسائرين !

فإذا ما مر الموكب وتبدل الحرس ، خرجت فرقة الموسيقى من فناء القصر الملكى إلى اللوست جاردن تلك الحديقة الصغيرة التى تتوسط المكان بين القصر وبين المتحف من ناحية وبين الكتدرائية وبين الاسبرى من ناحية أخرى ، وأخذت تعزف نصف ساعة كل يوم وحولها الآلاف من المتفرجين .

فإذا ما انتهى العزف كانت تهرع هذه الجموع إلى عشرات الفنادق والمطاعم التى يجاور بعضها بعضًا فى شارع انتردن لندن هذا .

* * *

وكان من عادة الإمبراطور أن يخرج فى اليوم الأخير من العام وحيداً لا يصحبه حرس ، ليسير فى حدائق القصر أو فى الطريق إلى بوتسدام ، يلبس رداءً عادياً حتى لا يجذب إليه الأنظار .

ومنذ عام اكتشف الإمبراطور سائق عربة جعة فوثب من عربته وهنأ الإمبراطور بالعام الجديد ، فكانت مكافأته قطعة فضية براقة من القطع ذات الثلاث ماركات . .

وفى عام قبل هذا ، خرج الإمبراطور فى زيه التنكرى فلم يعرفه حراس القصر ولم يحيوه ، ولكنه ما كاد يحاذى أحد أولئك الحراس على أبواب بوتسدام حتى وثب فجأة مهنئًا الإمبراطور بالعام الجديد ، فما كان منه إلا أن قدم له الماركات الثلاث التى كانت عادة الإمبراطور أن يمنحها لأول مهنئ له بالعام الجديد، ولكن الحارس لم يقدم يده لأخذها وأبدى أسفه للإمبراطور راجيًا أن يتركها له على الجدار المجاور حتى تنتهى حراسته ، فأجابه الإمبراطور إلى طلبه مقترحًا أن يدفعها ثمنًا للشراب ، ولكن الحارس أجابه بأن هذه القطعة الفضية ستكون حلية فى سلسلة ساعته وتذكاراً خالصًا من الإمبراطور ، إذ قليل من الجنود الذين يحفلون بهذا الشرف ، شرف الحديث مع الإمبراطور غليوم .

وحدث فى أثناء إحدى هذه الجولات فى بوتسدام أن وجد الإمبراطور جمعًا من الأطفال متمنطقين بالأحزمة العسكرية والسيوف فتقدم إليهم وسألهم عما يصنعون . فصاح أحد الأطفال « إننا ننظم استعراضًا وأنا الإمبراطور نفسه » رافعًا رأسه وشاعراً بخطورة مكانته .

فما كان من الإمبراطور إلا أن حيّا رفيقه الصغير وهو يجاهد الضحك ثم أخرج قبصة من النقود الفضية من جيبه ونثرها على الأطفال ولكنه لم ينسَ أن يتحف الإمبراطور بجانب أكبر احتراماً لمقامه.

* * *

وحدث عندما قابل كارنجى الممول الأمريكى الإمبراطور أن سأله ، بأنه سمع عنه أنه لا يحب الملوك ! فأجابه كارنجى « بأنه يحب الرجل الذى يخفيه رداء الملك إذا كان هنالك أحد » ولا شك أن كارنجى قد وجد ذلك فعلاً فإن كل من اتصل بالإمبراطور يكتشف أنه أمام رجل ممتاز فى إدراكه ، ممتاز فى شخصيته واسع الدراسة صحيح الاطلاع يتتبع تطورات العلوم بعين مفتوحة، إنه رجل يمثل القرن العشرين .



برلين عاصمة الإمبراطور

وكأن الإمبراطور فى تدقيقه أستاذ ألمانى ؛ فقد حدث أن عالمًا ألمانيًا ألقى بحثًا طريفًا عن الكهرباء ، أدعمه بتجارب أدهشت رجال العلم حينذاك ، ولكن الإمبراطور ما كان ليصمت بل كان يلقى الأسئلة الدقيقة على المحاضر ، الأسئلة التى لا يدور حولها إلا إخصائى مطلع .

إن الإمبراطور غليوم القائد الأعلى لأكبر جيش فى العالم ؛ وهو عارف بأصول فنه ، إذ لا توجد معضلة حربية يعجز عن حلها ؛ ولا مسألة تافهة تخفى عليه ؛ وهو الرئيس الأعلى للأسطول الذى تحت رعايته حتى أصبح اليوم مثاراً لحسد بريطانيا ! ملكة البحار .



المدينة الأولمبية

كان الموعد فى شارع هارتمان ، حيث مقر اللجنة الأوليمبية للدورة الحادية عشرة ، وأراد الله إلا أن ترتج على الأسماء والأرقام فأصل إلى هذا الموعد فى عشرين دقيقة .

ثم وقفت فى اشتاينبلاتس أتصبب عرقًا وأتخير من جعبة الأعذار عذرًا مستملحًا عن هذا الإبطاء ، وأتلفت علىّ أجد علامة تدل على مقر هذه اللجنة . ثم يئست فطلبت عون الشرطى الواقف فى وسط الميدان ، فما أن سمع السؤال حتى رفع رأسه إلى البناء الضخم المطل على حيث كنا ، ولم يتكلم إذ إن العلامة الضخمة التى تدل على الألعاب الأولمبية كانت كافية لجذب نظر السائر بله الباحث المكروب !

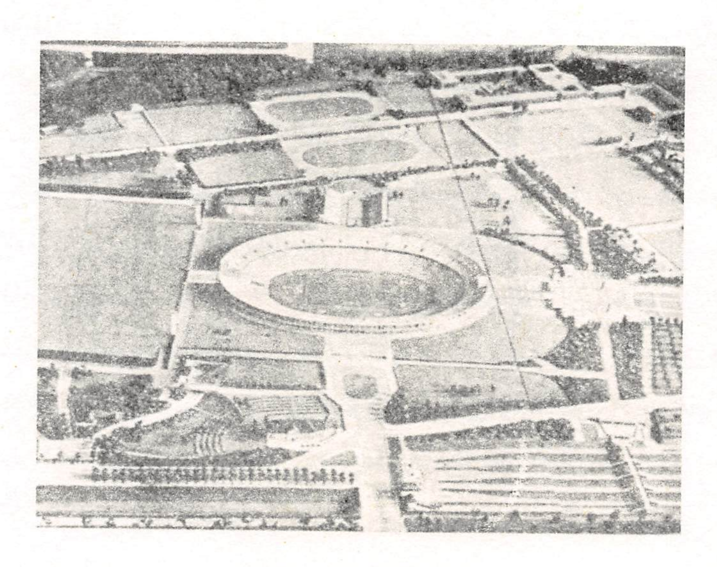
ولا أظن إلا أن هذا الشرطى قد نظر إلىّ بعد أن تركته مهرولاً ، نظر إلىّ نظرة المتعجب من هذا الذى يخطئ الملاحظة حيث لا حاجة إلى تدقيق فى الملاحظة ، هذا الذى لا تدل سيماه على صلة بما يبحث عنه ؛

ولا شك أنه ابتسم حين رآني أجر ساقيّ المتعبتين جرًا مخالفًا في ذلك أبسط قواعد الرياضة وأصولها !

فما أنا برياضي ، ولا يربطني بعالم الرياضة إلا ما يربط الصحفي بمحاكم الجنايات ، أو المصور الفنان بالرسوم المهجورة العافية ، ولكنك وأنت في برلين لا تقدر على كبح جماح هذه الرغبة وأنت لا ترى حولك إلا ما يذكرك بهذه الألعاب الأولمبية ، ولا تقرأ إلا أحاديث هذه الألعاب ، كأن الناس وكأن الصحف لم يعد لها شغل شاغل إلا حكاية الدورة الأولمبية، وعلى هذا الأساس قبلت الدعوة لزيارة المدينة الأولمبية في برلين ، ولم تكن بعد قد فتحت أبوابها إذ كنا في الصيف الماضي صيف سنة ١٩٣٥ . وما إن ارتقيت المصعد إلى الطابق الثالث حيث صاحب هذه الدعوة ، حتى كان هو ومن معه من المدعوين في أسفل السلم وقد يئسوا من وصولي . وما إن وصلت إلى قمة السلم حتى انحدرت راكضًا أعدو وراءهم حتى محطة الترام الأرضي .

* * *

ولأجل هذا الملعب الأولمبي أنشئت محطة ترام أرضي خاصة به ، كما أنشئت محطات حديدية لهذا الغرض عينه ؛ ولو كان هذا المكان ملعبًا لحسبنا ذلك من باب الدعاية أو الإسراف ؛ أما وأن الملعب الأولمبي مدينة هائلة من الملاعب ، لها ضواحيها وملحقاتها ، فليس بغريب أن تنشأ محطات لنقل آلاف الزائرين إليه إذا ما فتحت أبوابه .



قلب المدينة الأولمبية من الهواء

وفى وسط بحر صاخب من العمال ، وفى وسط أكوام الحديد والحجر والأسمنت والأخشاب سرنا نتفرج على بناء هذه المدينة الجديدة ، رأينا كيف تقام الملاعب الحديثة من الحديد ، وكيف تُبنى الشوارع والبيوت بين ليلة وصباح ، وكيف تعبد الطرقات ، وتغرس الحدائق غرسها دون إعداد طويل ممل .

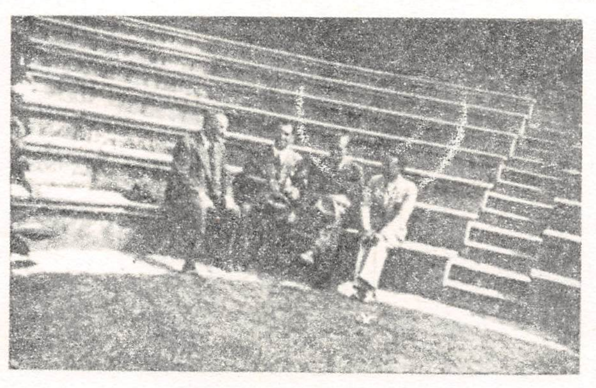
كان ذلك قبل عام على افتتاح أبواب هذه الملاعب ، وكأن كل عامل من هؤلاء العمال الذين لا يفترون عن العمل والحركة قد أجمع عزمه على أن يغسل يديه من العمل فى ليلته واضعًا نصب عينيه الحديث الشريف « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وهؤلاء القوم يعرفون كيف يقيسون الوقت ، ولا يقدرون أمورهم بالمقاييس التقريبية التى نتصورها تصوراً ، حتى إذا وضعناها موضع التنفيذ رأيناها أبعد شىء عن الحقيقة ؛ ونحن إذا وُكل إلينا يومًا مثل هذا المشروع الهائل ، ومنحنا من الوقت أطوله ، ألا ترانا ننتظر ليلة افتتاح هذا الملعب لنبحث عن الرمل الأصفر أو عن أصص الزهور أو عن دهان الجدران وزجاج النوافذ ؟

هكذا سار العمل فى هذه المدينة فى كل ركن من أركانها جنبًا إلى جنب ، حتى إذا ما انتهى بناء من وضع جدار ، تركه ليد الحداد ، فإذا ما انتهى كان النجار فى انتظاره . هكذا كنت ترى المدينة الأولمبية فى برلين ترتفع أبنيتها يومًا بعد يوم استعداداً ليومها المشهود قبل هذا اليوم بشهور .

فإذا ما خرجت من محطة « رايخ شبورت فلد » الأرضية واخترقت الحدائق والأدغال المترامية وعرجت إلى اليمين قليلاً كان أول ما يقابلك ملاعب التنس وكرة السلة ، تسع عشرة آلاف من المتفرجين ، وقد رصفت أرضها بالحشائش الخضراء وصنعت درجاتها من الرخام الأبيض مما جعل العين تستريح من تقليب النظر فيها .

ثم تترك هذه الملاعب ، لتقف قليلاً أمام ملعب الهوكى وهو أرحب من هذه الملاعب جانبًا إذ يسع عشرين ألفًا من النظارة ، ولكن هذا الملعب الكبير ليتضاءل إذا ما اعتليت الدرجات القليلة الموصلة إلى الملعب الكبير ؛ الملعب الذى يسع مائة ألف جالس من المتفرجين ؛ مرتبين فى أحد وسبعين صفًا مدرجة ؛ تصل إليه بستة عشر بابًا حتى يتيسر الدخول إليه أو إخلاؤه فى دقائق معدودات .



على درجات أحد الملاعب بعد جولة متعبة

وفى هذا الملعب الكبير ستقام ألعاب الكرة والعدو والقفز إلى ما هنالك من الألعاب الأولمبية الأساسية ، وقد جُهز بكل ما يحتاج إليه من مكاتب للبرق والبريد والتليفون ومكاتب للصحافة والاستعلامات .

ويقودك مدخل هذا الملعب إلى الفضاء الفسيح الذى سيعرض على أرضه أبطال العالم زهرة الشباب الرياضى يمثلون اثنين وخمسين أمة ، ترفرف عليهم الراية الأولمبية البيضاء ذات الدوائر الخمس الملونة التى تمثل قارات الأرض الخمس . فإذا ما ارتفعت إلى كبد السماء هتف لها أربعمائة ألف من اللاعبين والنظارة .

وفى صدر هذا الفناء يرتفع « برج الزعيم » الذى يتوجه الجرس الهائل ، رمز الدورة الأولمبية الحادية عشرة ، والذى نُقش عليه بالألمانية «إننى أدعو شباب العالم أجمع !» وليس أحق من الأجراس بدعاء شباب العالم ، وهم الذين قطعوا مراحل حياتهم منصتين إلى صلصلة أجراس المدارس . . .

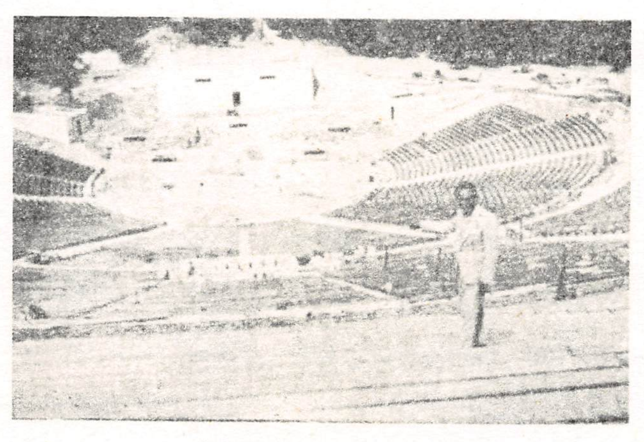
وإذا ما وصلت إلى هذا البرج تكون قد قطعت الملعب الأولمبى من طرفه إلى طرفه متناسيًا عشرات الملاعب الصغيرة وغيرها مما تحتويه المدينة الأولمبية .

ثم تسير شرقًا لتصل إلى مسرح الهواء الطلق ، وقد بنيت درجاته فى غور سحيق يضيق فى قاعه ، حيث بُنى المسرح على نسق المسارح الإغريقية ، وقد أُعد لحفلات المساء الموسيقية ، ولألعاب المصارعة

والملاكمة والرياضة الأخرى ، هو يسع عشرين ألفًا من الجالسين .

ثم إذا ما سرت بين صفوف الأشجار المتلاصقة وفى الطريق الضيق الذى انعطفت عليه أغصان هذه الأشجار وارتفعت على جانبيه تماثيل الشباب العارية وسرت فى سكون لا تعكره أصوات الآلات التى تعمل بين أركان المدينة الأولمبية ، تشعر حينئذ بأن وراء هذا السكون وهذه الخلوة وهذا الترقق فكرة ، ثم إذا مرت بك ربات هذا الركن من المدينة الأولمبية تشعر حينذاك بأن هذا حرم المرأة الرياضية ففيه الأكاديمية الرياضية للفتيات ومساكن هؤلاء الرياضيات .

لم أشعر مرة بصور الجمال متمثلة فى كل ركن من الأركان التى

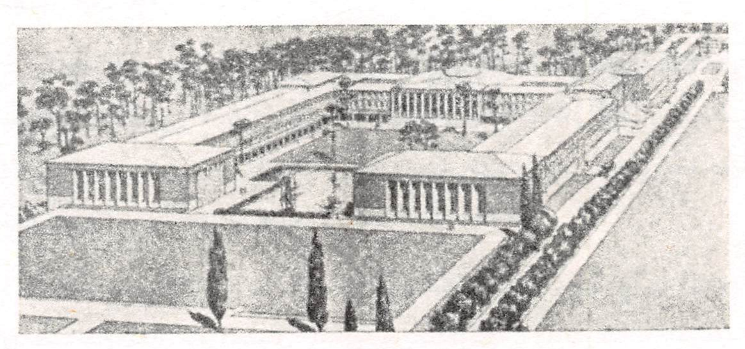


على درجات مسرح الهواء الطلق

تقع عليها العين كما شعرت فى هذا المكان ، لقد اجتمعت فنون الجمال كلها فيه جمال الطبيعة بأزهارها وشجيراتها وظلالها ، وجمال الإنسانية ممثلاً فى المرأة الرياضية الكاملة ، وجمال الشباب ، ثم جمال الأبنية .

فهذه الشرفات الدائرة البديعة وقد توسطتها موائد الشاى الأنيقة بمقاعدها وأغطيتها المخططة الملونة ، وكل ذلك يدلك على معنى الذوق والأناقة فى الحجرات التى تأوى إليها الفتاة الرياضية فى هذه الأكاديمية .

وتمر وأنت فى طريقك إلى هذا المعهد بملاعب مختلفة ، ومدرجات صغيرة كأنها مسارح نحتت فى صميم أدغال اليونان القديمة ، أعدت لدروس الهواء الطلق تتلقاها الطالبات بين أحضان أمهن الطبيعة ، أمهن الحنون الرؤوم .



الأكاديمية الرياضية

ثم يستقبلك المعهد الرياضى نفسه بأبنيته البيضاء الزاهية الحديثة وقد امتد أمامه بساط فسيح من الحشائش الخضراء ، وقد احتضن حوضًا فسيحًا للسباحة ، وإذا قلت حوضًا للسباحة فأخاف أن ينصرف خيال القارئ إلى تلك الأحواض المبنية بالأسمنت المسلح ، إذ إن الفرق بعيد والبون واسع بين هذا الحوض المترقرق الذى سورت جنباته بالرخام والمرمر ، وزينت أطرافه بأحواض الأزهار الفضاحة ، والذى تتورده هؤلاء الرياضيات و اللاتى كأنهن مثل من مثل الأنوثة الكاملة ، نعم إن الفرق واسع بين هذا وبين ما عرفناه من قبل .

ثم جُبنا قاعات هذه الدار العجيبة ، كل شىء فيها مصقول براق غطى أرضها بالخشب المصقول أو المشمع اللامع ، وزخرفت جدرانها بألوان تستريح إليها العين ، وانعكست عليها الأضواء حتى لتشعر بأنك فى مسرح من المسارح ، أو فى بهو من تلك الأبهاء التى يصورونها عن قصور ألف ليلة .

هنا تشعر بما يعنيه هؤلاء القوم من الرياضة ، الرياضة كما كان يعرفها الأثينيون لا الرياضة التى نقصد منها حمل الأثقال وتصلب الأذرع والسيقان ؛ الرياضة التى قال عنها أفلاطون فى جمهوريته إنها موسيقى الجسم التى ترفضه إلى حد الجمال المطلق .

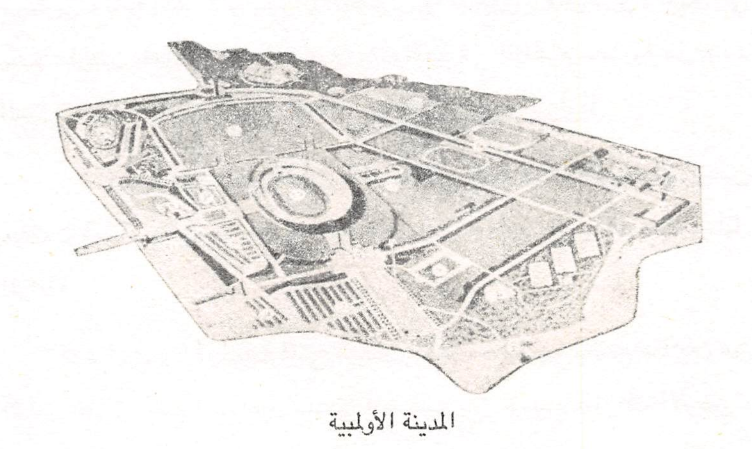
وأين هذه القاعات من قاعات الرياضة الإنجليزية بجدرانها المعتمة وبمصابيح الغاز ، وبالحبال المتدلية من سقوفها ، وبالدرجات الخشبية

الباهتة المصفوفة حولها ، ليس فيها ذوق وليس فيها جمال ؛ وسوف لا يغيرها الإنجليز إلا بعد عشرات السنين محافظين على تقاليدهم ، ونحن من ورائهم نقدس هذه التقاليد .

* * *

هذه هى المدينة الأولمبية التى أعدت لاستقبال شباب اثنين وخمسين أمة من أمم الأرض أو يزيد ، يمجد على أرضها العالم بأسره تقليد الألعاب الأولمبية للمرة الحادية عشرة بعد أن نسيها العالم عشرات القرون .

وهكذا يتهيأ لبرلين أن تقضى دين الرياضة بعد أن حالت بينها وبين أدائه الحرب العالمية منذ عشرين عامًا ، وهنا نرى برلين تتحدى



المدينة الأولمبية

تلك العواصم التى أقيمت فيها الدورات الأولمبية تسع مرات ما بين أثينا وباريس ولندن واستكهلم وانفرس ، ثم باريس وامستردام ولوس أنجليس ، تريد أن تتحدى هؤلاء جميعًا بما أعدته من ملاعب وأبنية ومعارض ومعاهد ؛ لتبهر أبصار العالم بما عندها من ثقافة وحضارة وعلوم وقدرة على الابتكار !

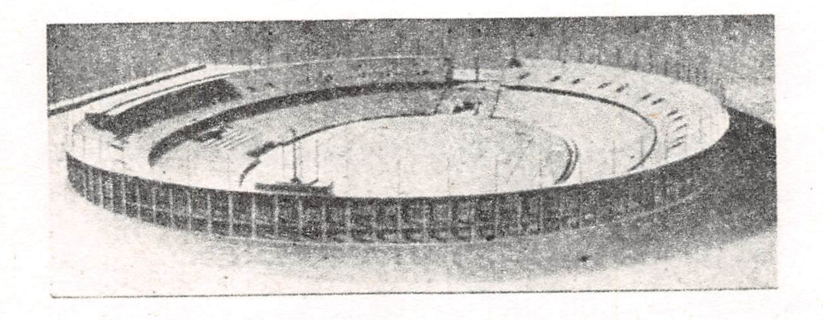
* * *

وبعد أن تخرج حيث برج الجرس الأولمبى تجد السيارات فى انتظارك لتقودك إلى القرية الأولمبية التى تبعد عن هذه الملاعب بعشرة أميال ، وفى هذه القرية المنثورة تحت ظلال غابة فسيحة ، تعيش بعض آلاف من اللاعبين فى بيوتات صغيرة أعدت جميعها بكل وسائل الراحة ، وجهزت بالحمامات وحجرات الجلوس والتليفون ، وعهد برعايتها إلى خدم عارفين بلغات هؤلاء اللاعبين وأذواقهم فى الطعام تخيروا من خدم السفن الألمانية التى تجوس العالم من اليابان إلى البرازيل .

وأعدت هذه القرية بكل ما يحتاج إليه هؤلاء الرياضيون من ملاعب ومكاتب للبريد والبرق ، ومخازن للأدوية وما إلى ذلك من وسائل الراحة .

هذه المدينة الأولمبية التى سيمر تحت بوابتها بضع ملايين من الناس جاءوا إليها ساعين سعى الحجيج من جميع أطراف الأرض ،

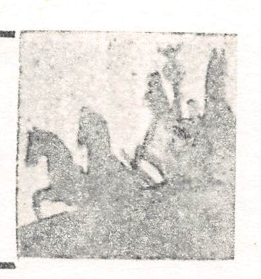
مجيبين نداء الجرس الأولمبى الذى « يدعو شباب العالم » كما نقش على حديده الذى لن يبريه مر الأجيال ، لأنه نداء الحياة . . .



الملعب الأكبر



الفاترلند



الليلة الأولى يقضيها النازح إلى برلين فى مقهى الفاترلند ؛ قاعدة قلما تشذ .

نتقابل فى الطريق ، أو فى قاعة الطعام ، أو فى الفندق ، ويسألنا القادم الجديد ماذا يرى فى برلين وكيف يقضى ليلة ممتعة ، فلا ترى إلا من يقترح أن يقضى الليلة الأولى فى مقهى الفاترلند ، كأن هذا أول ما يجب أن يراه الزائر لبرلين ، لأن الفاترلند إحدى تلك الأمكنة التى تنفرد بها بعض البلاد ، فترتبط باسمها ، وإذا انتقلت إلى غيرها كانت فكرة منقوصة قبيحة .

ومقهى الفاترلند مما تنفرد به برلين دون سواها ، ولست أدرى لماذا لم تنتقل بعد فكرة الفاترلند حتى إلى ڤينا ، معلمة برلين القديمة ؟

وإذا ما طلبت بطاقة تذكارية لبرلين فى الليل ، كانت صورة الفاترلند أولى ما يقدم إليك ، دار الفاترلند بقبتها الدائرة ، وبخطوط الأنوار التى تشع من قمتها ، وتنعكس أضواؤها على أرض ميدان

بوتسدام فتكسبه شخصية ، ينفرد بها عن ميادين برلين الأخرى .

ودار الفاترلند ليست مقهى من المقاهى ، بل هى مدينة كاملة ، مدينة من المقاهى ، هى العالم ممثل فى مقاهيه !

قد رأينا العالم ممثلاً فى جغرافية بلاده ، ورأينا الشعوب ممثلة فى منتجاتها ، والأمم فى آثارها ومخلفاتها مما تفيض به المعارض ، وتزدحم به المتاحف أما أن نجمع بين الشعوب ، ونستعرض حياة أهلها ، ونمثل حضاراتها ، وننظر إليها من هذه الناحية البعيدة فهو وجه الامتياز فى هذه الدار .

ولعل من بنى هذه الدار كان يسأل نفسه : كيف يقتل الناس أوقات فراغهم ؟ وهل هنالك أقتل للوقت من المقاهى ؟ وأقتل للحياة من حياتهم !

وها أنت إذا دخلت دار الفاترلند ، ترى كل شعب ، وتستعرض كل أمة بمقهى يمثلها ، فإذا ما خرجت منها بعد أن جُبت طباقها ونواحيها ، قد تحكم على عقلية كل شعب بنوع المتعة التى استباحها فى حياة مقاهى بلاده .

* * *

ورواد الفاترلند من كل شعب ، فهم يكملون ما ينقصه جو الفاترلند العالمى بأزيائهم ولهجاتهم وتقاليدهم .

وفى أيام الآحاد لا تكاد تجد موضعاً لقدم ، فوفود الأقاليم من

الفلاحين يخلقون جوًا بهيجًا فى هذه الدار ، بملابسهم الكلاسيكية الزاهية ، وبلهجاتهم النابية ، التى كأنها لهجة ابن الصعيد عند القاهرى الصميم .

ورواد الفاترلند على طبقات ثلاث ؛ أولئك الذين يفدون على الفاترلند ليقضوا ليلة كاملة ويدفعون ماركًا كاملاً ؛ حتى إذا ما انتصف الليل خفضت رسوم الدخول إلى النصف ، فتبدأ وفود الذين قضوا الليل إلى منتصفه بين المسارح والمطاعم ، ولا يريدون إلا أن يتزودوا بنظرة سريعة من عالم المقاهى الذى تضمه هذه الدار .

حتى إذا كانت الساعة الواحدة فُتحت الأبواب لوفود الطبقة الثالثة دون أجر أو حساب ، فكأن أصحاب هذه الدار يريدون أن يعتصروا آخر قطرة من الزائرين ، يريدون أن تنبض الحياة فى أركان الدار حتى تستقبل بشائر الصباح ؛ وسرعان ما تجد الفتيات اللاتى مللن الانتقال من طور إلى طور بين محطة انهالتر وميدان بوتسدام ، سرعان ما يجدن طريقهن إلى دار الفاترلند ، يلقين آخر رمية من نبالهن بعد أن أقوت الشوارع والطرقات . . .

* * *

يستقبلك المقهى التركى بمصابيحه المشبكة الخافتة ، وبرسومه العربية المزخرفة ، فإذا ما تخطيت بابه ، وتوسطت الردهة ذات الأعمدة الذهبية والسقف الواطئ الملون ، تقدم إليك خادم لعله من أبناء الكمرون

بطربوشه الرخو الأحمر وزره الطويل المرسل ، وانحنى إليك انحناءً شرقيًا تمثيليًا ، يذكر الوافد بقصص ألف ليلة .

وتقلب عينيك بين أرجاء الردهة ، وبين مقاعد المخمل الواطئة ، ومساند الحرير الشرقية ، وقد صفت فى أركان المكان المظلمة ، ومدت أمامها الموائد النحاسية المنقوشة .

ثم تنعطف يسرة إلى قاعة أخرى ، أشد عتمة فُرشت بالبسط الفارسية الغالية ، فيستقبل نظرك مشهد بديع ممتع ، البسفور فى الليل! إنه قطعة حية ناطقة ! تقف أمام الحاجز الزجاجى ، فكأنك واقف على جسر غلطة ، وها هى مياة القرن الذهبى تجرى تحت أقدامك وها هى قباب جامع السلطان أحمد ، وأيا صوفيا ، وها هى نوافير إستنبول ترمى بمياهها كأنها نثار من الفضة!

مشهد يذكرنا بسحر الشرق ، ويجعلنا نزهو ونتيه بين أولئك الواقفين فاغرى الأفواه ، وقد رسب هذا السحر الشرقى فى قرارة قلوبهم !

وترفع الفتاة الجالسة فى ركن المكان عينيها إلينا ، كأنها تختبر مدى فعل هذا السحر فى نفوس أبناء الشرق ، أو لعلها تنظر إلينا كأننا قطعة مكملة لهذا المشهد الشرقى بوجوهنا التى أحرقتها شمس الشرق ؛ حتى إن رفيقها ليجذب ذراعها ليحول عينيها عن الفحص والتدقيق !

وكثير من رواد الفاترلند ، هم من رواد هذا المقهى التركى يغرقون نفوسهم وخيالهم وغرامهم فى ظلامه وهم يحتسون قدحًا من القهوة التركية فى أركانه المعتمة ومقاعده الوثيرة ، وفى الضوء الخافت الذى ينعكس من مصابيحه المشبكة ، ومن مشهد البسفور البديع الرائع .

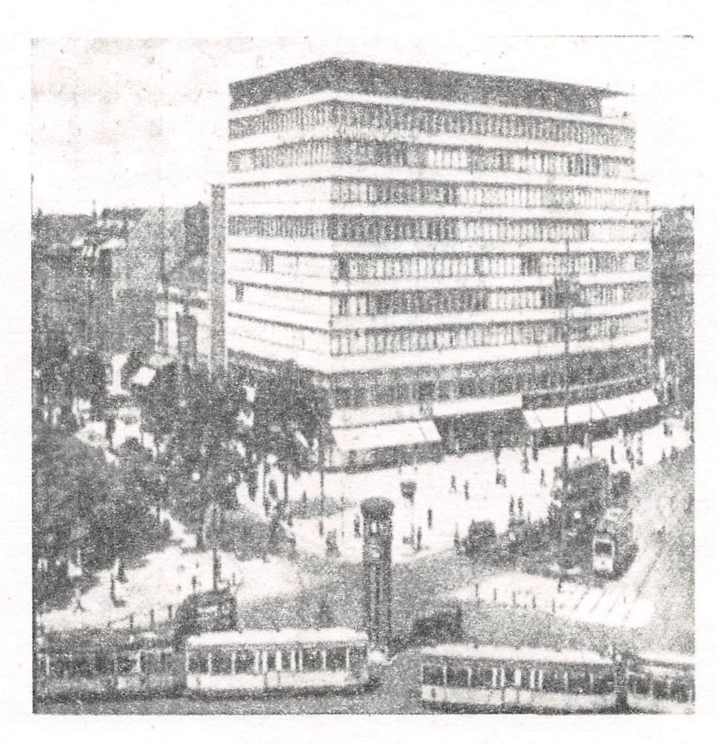
* * *

ثم هذا المشرب البافارى الفسيح ، بأنواره المتلالئة ، وبموسيقاه الراقصة ، أين هو من ذلك المقهى التركى المعتم !

لا تكاد تجد مقعداً خاليًا ؛ عشرات الزائرين حول كل منضدة ، وقد رصت عليها أكواب الجعة الضخمة ، أو زجاجة النبيذ المعلقة ، التى يضع تحت فوهتها المقلوبة كل جالس كأسه فيملأه كأنه من معين لا ينضب ، حتى إذا بدأ يشح ملُئ من جديد !

الموسيقى لا تنقطع نغماتها ، وهذه الفرقة من الفتيات بملابسها الوطنية القديمة تملأ المكان بأغانيها القديمة فيشترك معها الجالسون حتى إن المكان ليميد حماساً .

ولا تريد رائدة الفرقة بموسيقاها اليدوية إلا أن تشرك كل جالس فى المكان معها فى أغانيها ، فتنزل من منصتها وتجوس خلال المقاعد وتقف أمام المناضد ، تثير الحماس فى كل قلب ، لم تفعل به أكواب الجعة أو أقداح النبيذ الأبيض ! حتى خرج رفيقنا الرزين الهادئ عن طوره ، وأخذ يصفق ويصفر ، ويدخل فى حديث مع العائلة الألمانية التى نجلس بجانبها ، ويصيح بأسلوبه الألمانى المهلهل « ألمانيا جميلة ، جميلة جميلة ألمانيا!»



ميدان بوتسدام حيث دار الفاترلند

وهنا خرج الشاب اليابانى الذى يجلس بجانبنا عن رزانته ، ليداعب رفيقته الحسناء الألمانية دون أن يجد فى ذلك خروجًا على تقاليده المفروضة على كل يابانى فى أوربا !

* * *

والمقهى المكسيكى ، مثال بديع للدقة والبراعة فى نقل الحياة وتصويرها ، تشعر كأنك جالس فى إحدى تلك الحانات التى تراها فى أفلام رعاة البقر ، فى قرية منزوية فى مرتفعات أريزونا أو جبال المكسيك ، الأرض الخشبية ، والسقف المغطى بفروع الأشجار وسعف النخيل ، وقد تدلت منه المصابيح الزيتية ذات القبعات التى تذكرنا بريف الوطن .

وفى وسط المكان فرقة الموسيقى ، ارتدى أفرادها ملابس رعاة البقر وحملوا البانجو والمندالين وراحوا يكهربون جو المكان بموسيقى الجاز الراقصة !

وزينت جدران المكان بقرون الأبقار والوعول ، وصور مشاهد الصيد وأسراب الخيل على نحو ما نراه فى تلك البلاد النائية .

وخرج رفيقنا الوجيه الشيخ وهو يفكر تفكيراً عميقًا ، ويهز رأسه إعجابًا فقلت لعل الموسيقى قد هزت أعصابه ، أو أن جمال التنسيق قد بهره ، ولكن وجدنا أن ما بهره وأغرق تفكيره غير هذا كله ، إنها تلك المصابيح الزيتية التى ذكرته بعزبته فى الصعيد ، وكيف تمكن هؤلاء من

ثقبها وتوصيلها بأسلاك الكهرباء ؛ حتى إنه أجمع رأيه ألاّ يصل إلى الوطن حتى يصنع مثيلاتها فى منزله الريفى الحديث !

* * *

بين هذه المقاهى العريضة الواسعة ، تنعطف بين أركان المكان لتجد حانة صغيرة البودجا ! وهى حانة لحمًا ودمًا وقد صفت فيها براميل النبيذ بدلاً من المناضد ، وقد تصدرها بار ، رصت عليه زجاجات الخمور من كل لون .

وعلى مقاعد البار العالية جلست فتاة أو فتاتان تنفخ فى سجارتها ذات الفم الطويل ، صورة مكملة لجو المكان ، وفى مدخل الحانة لا تخلو أن تجد فتاة أخرى تزاحمك الباب الضيق ، وتمنحك ابتسامة لها ثمنها إذا أخذت مكانك فى حانة البودجا .

والحانة الصينية أو اليابانية بستائرها الحريرية ، وبمصابيح الورق الملونة المتأرجحة ، ثم بضوئها الخافت ، تمثل الشرق الأقصى فى دار الفاترلند ، وتذكرك بحياة الليل فى شنجهاى ذات المراقص الخفية!

* * *

والمقهى الإيطالى له شخصيته . وليس أحق من البندقية فى تمثيل حياة المقاهى الإيطالية فهذا المشهد رائع حقًا ، قصر الدوق بنوافذه المتعددة ، وميدان سان ماركو بأعمدته وأبراجه ، وصور الجند ولا فى

القنال الأكبر ، وقد انعكست عليها جميعًا الأضواء الاصطناعية ، كل هذا جعل الجلوس فى هذا المقهى الإيطالى متعة ممتازة .

وهذا المقهى أكثر هذه الأركان تذكيرًا بمصر وبحياة المقاهى عندنا فالفنان لم يرسل فى تنسيقها خياله بل نقل الحقيقة خالصة .

فجدران المكان ذات الدهان الجيرى المشقق ، والعرائش الخشبية القديمة التى قد أهملت فجفت فروعها المتدلية ، وهذه الدرجات التى صارت ملساء من فعل الزمن ثم هذه النوافذ الخشبية التى لا تراها إلا فى إيطاليا فتذكرك بمصر ، ثم المناضد الرخامية وقد صُفت حولها مقاعد الخيرزان العادية ، كل هذا يجعل جو المقهى الإيطالى خلواً من كل مبالغة أو غلو .

وتخرج من أحد أبواب المقهى الإيطالى لتدخل حانة صغيرة أنيقة ، لا تمثل شعبًا معينًا بل عالمًا كاملاً ، عالم البحار !

نحن الآن على ظهر باخرة ، فهذا السقف المائل ، وهذه النوافذ المستديرة المغلقة ذات الزجاج السميك التى تحبس أمواج البحر المائجة ، وهذه المناظر البحرية التى تلوح لك من خلال زجاج النوافذ ، وحلقات النجاة المعلقة فى أركان المكان ، كل هذا يكاد يجعلك تحس بأن المكان يميد تحت قدميك ، وتكاد تسمع طنين الآلات المحركة ، وتشم الرائحة التى يعرفها من جرّب السفر على ظهر البحر .

ولا شك أن الملاحين القدماء الذين يفدون على دار الفاترلند ، لا شك أنهم يجدون بعض السلوى من جلوسهم فى هذه الحانة وسيجدون لذة فى ارتشاف الجعة أو النبيذ ، لا يشعرون بها إذا ما جلسوا فى القاعة المجاورة ، لأنهم فى الحقيقة لا يحتسون إلا « الجو » الذى يفيض به المكان !

* * *

وفى الطريق إلى مقهى الراين العظيم الفاخر ، تمر على ركن أنيق ، قد شع نوره من ظهور المناضد الزجاجية الحمراء ؛ هو تذكار الفن الحديث فى مدينة المقاهى .

ومقهى الراين هو لا شك فخر هذه المدينة ، وقد حبوه بفرقة تمثيلية عازفة ، وامتدت فيه مئات المناضد ، يقدمون عليها أنواع النبيذ، الذى اشتهرت بها بلاد الراين .

تجلس فكأنك على مرتفعات الراين ، وكأنك تطل على مياهه المترقرقة ، وهذه الضفة الأخرى وقد كستها كروم العنب ؛ وتوجتها قلاع الراين القديمة ذات الأبراج المرتفعة ثم تحس بأن العتمة قد غشت المكان وأن الليل أخذ يرخى ستوره حيث أنت على ضفاف الراين ، ثم أخذت ضفة النهر تتلاشى فى الكلام وفى ضباب المساء !

ما أقصر الليل فى هذا المكان ! فقد أرعد وأبرق حتى هز المقهى ، ثم أخذ اليوم الجديد ينبلج على مرتفعات الراين وأخذت السحب تنقشع

، وبدأ نور الفجر الأول ينعكس على كروم العنب ، وعلى القرية المجاورة ، وعلى أبراج الراين وحصونه ثم أخذت الموسيقى تستقبل اليوم الجديد بنغماتها الوترية الهادئة ، حتى لحسبنا إننا نبدأ يوماً جديداً حقًا . كلام كأنه الخيال !

وماذا يقدم فى مقهى الراين سوى النبيذ ؟ وفى هذه المرة لم أكتفِ بالوقوف أشاهد انبلاج الصبح على بلاد الراين ، بل جلست برفقة صديق لنا ، قُدم إليه كتيب بصنوف النبيذ .

صحائف طويلة ليس بها إلا صنوف النبيذ وألوانه ، وقد قيد كل صنف بمكان عصيره وتاريخ خزنه ، ويقلب الشارب العارف هذه الصحائف الطويلة ، ليختبر صنفاً معيناً وكأنه يبحث عن كلمة مجمهولة فى قاموس من قواميس اللغة !

وتجلس العائلة الألمانية بأبنائها وفتياتها ، وأمامهم الأطباق الواسعة وزجاجات النبيذ ، وتحول الأم نظرها إلى الجالس بجانبهم إذا بدأت الموسيقى الراقصة ، وتبستم إليه ارتياحًا ، وقد يتشجع ويتقدم إلى فتاتها بأدب تقليدى ويحنى رأسه إلى أبويها مستأذناً ثم إليها طالباً ، فإذا ما دخلا فى صفوف الراقصين ، تبادل الأب وزوجه نظره خاصة لها معنى عندهما !

وبجانبنا جلس حبيبان خطيبان ، جاءا يقضيان ليلة فى برلين ؛ ولعلهما من بلاد الراين ، جلسا وكأنهما ليسا معنا فى ذلك المكان ، لا

يأكلان ولا يشربان ، ولا يستقبلان فجراً جديداً على الراين ولا يفزعهما دوى الرعد الاصطناعى ، ولا هما يرقصان ولا يصفقان إعجاباً بأغنية أو نشيد ، لقد كانا فى عالمهما الخاص !

مسحة الألم لم تصبغ وجهيهما ، حتى الغبطة والمرح لا يجدان طريقهما إليهما ، بيد أنه فى ذلك الانكسار والذل التى تفيض بهما عيونهما كل السعادة .

يتبادلان حديثًا خافًا لا معنى له ، وسرعان ما يبتسم الفتى لترد عليه رفيقته ابتسامته بأخرى أشد فتوراً ! ولكنها ابتسامة تشجيع ورضاء ! وهذا كل شىء . .

* * *

ثم تخرج بعد هذا من مدينة المقاهى ، وقد انتصف الليل لنجلس على مقهى من مقاهى الزارلند ونحتسى قدحاً من الشكولاتة الساخنة ، وكأنك لم تتنقل فى تلك الليلة بين مقاهى العالم جميعها ، وكأنك كنت فى مسرح تمثيل .



هل هذه الحدائق الواسعة العظيمة ، وهل هذه المدرجات الطويلة المنسقة بشجيرات الفاكهة والزهور ، وهذه النوافير الضاربة بمائها إلى السماء ، وهذه العشرات من التماثيل المرمرية ، أهى جميعًا قد نسقت حيث مكانها من أجل هذا القصر الصغير الذى لا تتعدى حجراته أصابع اليد ؟

ولكنه قصر سانسوس أبدع قصور برلين إطلاقًا ؛ وأكثر قصور العالم أناقةً ورقة !

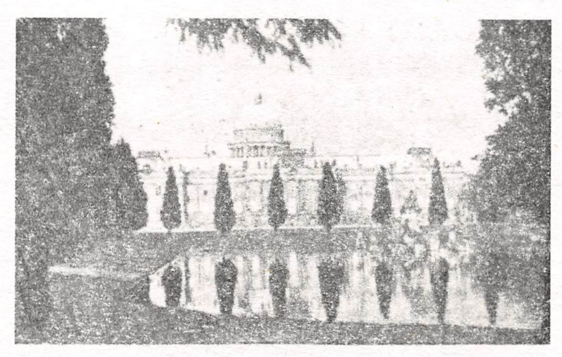
ليس هنالك من قصر ملكى فى تاريخ العالم ارتبط اسمه باسم صاحبه كهذا القصر ، باسم صاحبه فريدريش الأكبر ملك بروسيا ، الذى قضى فى وحدته أربعين سنة ، حتى ارتبطت حياته بحياته ، حتى إن الزائر ليحس بشخصية ذلك العاهل العظيم وهو يجوب الحجرات المعدودة لهذا القصر !

إنها شخصية فريدريش الأكبر هى التى جعلت من سانسوسى قصرًا يفوق قصور بوتسدام وبرلين ، تلك الشخصية الغريبة ، شخصية

الملك الحربى الذى جمع ألمانيا حوله وخلق منها شعباً ووحدة ، شخصية الرجل الذى مل عظمة الملك ليقضى أيامه وحيداً عن الناس لأنه يكرههم ، شخصية هى مزيج من كل شىء تتقلب كما تتقلب الحرباء وهى فى كل ذلك محبوبة يتقبلها شعبه قبولاً حسناً .

فريدريش الأكبر بنسانيسه وببغاواته كما يقول عنه جيته ، وإمبراطور ألمانيا العظيم الذى كان يتكلم الفرنسية وينسى لغته ، فريدريش صديق فولتير الحميم ، الملك الذى كان يعيش وسط الفلاحين ، بعيداً عن قصوره وبلاطه بعيداً عن المرأة !

كل هذا تشاهده فى سانسوسى ، وهذه الذكريات هى التى جعلت من هذا القصر الريفى تحفة يتميز بها عن قصور بوتسدام التى ترتفع برؤوسها وأبراجها حوله ، وتحس فيه بأن ساكنه كان إنساناً مثلنا ، وتستريح نفوسنا إلى الحجرات الصغيرة الواطئة والردهات الضيقة ، التى لا تعرفها قصور الملوك!



سان سوسى

كل هذا يجعل زائر قصر سانسوسى الريفى يحس بأنه لا يبحث وراء جدران هذا القصر على ما تحويه القصور من تماثيل أو نقوش ، على نحو ما جرى الناس فى البحث عليه إذا ما طرقوا مثل هذه الأمكنة ، لأن ذكريات سانسوسى الشخصية هى فوق كل هذا اعتباراً .

* * *

تصل إلى قصر سانسوسى بعد أن تسير شوطاً فى حدائق القصر الواسعة ، حدائق من النوع الذى يذكرك بحدائق فرساى ، أو شن برن فى ڤينا ، الحدائق ذات الطرقات العظيمة التى ترتفع على جانبيها صفوف الأشجار كأنهما حائطان شاهقان ، والتى تشاهد فيها عند كل خطوة تمثالاً مستوراً تحت غصون شجرة متدلية ، له تاريخه وذكرياته عند رائدى هذه الخمائل المنزوية .

وبين أشجار هذه الحديقة الملتفة تشاهد نافورة سانسوسى بمياهها المرتفعة إلى قلب السماء ، لعلها أعظم نافورة فى العالم، تشاهد مياهها من بعيد كأنها عمود من المرمر الأبيض الناصع .

وتصل إلى هذه النافورة من كل مكان ، وتقف تحت رذاذها المتساقط ، وتدور حولها وحول المقاعد الرخامية وتماثيل المرمر التى تحيط بهذا الميدان .

وهناك فى خلال رذاذ هذه النافورة تشاهد قصر سانسوسى ، كأنه معبد من معابد بوذا جاثم على مرتفع ، تصل إليه بدرجات طويلة

تصعدها وأنت رافع العين إلى هذا الهيكل ، درجات واسعة من أحواض الزرع ومن أشجار الفاكهة التى يرجع تاريخها إلى عهد بانيها الأول الذى كان يرعاها بخبرته وبشخصه .

وارتفع كل درج على صناديق من الزجاج أينعت فيها شجيرات الفاكهة التى لا تحتمل برودة الشتاء ؛ فإذا ما زرت القصر فى الصيف وجدت شجيرات العنب مائلة بعناقيدها والبرقوق بثمره الأحمر الزاهى والكمثرى بقطوفها الذهبية .

وتجد هناك من تبيع لزائرى سانسوسى شيئًا من هذه الثمار الناضجة ، فتقطفها لك من أشجارها أو تراها مقطوفة فى ساعتها محفوظة فى أطباق من الورق البديع . ولا أظن أننى قد أكلت العنب طازجًا كما أكلته من حدائق سانسوسى .

نعم قد أكلنا من ثمار الأشجار التى غرسها فريدريش الأكبر بنفسه لنفسه ، أكلناها نحن وقد أثمرت من جديد ، بدراهم معدودة وكنا فيها من الزاهدين .

ثم تستقبل قصر سانسوسى نفسه ، خميلة من خمائل باخوس إله الخمر قد ارتفعت على أكتاف اثنى عشر عملاقًا من عمالقة الخرافات الإغريقية .

ثم تدور حول القصر حيث الباب وقد أحاطت به نصف دائرة من الأعمدة الرخامية ونثرت فى فنائها المقاعد الرخامية الواطئة ، حيث

يتجمع الزائرون ينتظرون دورهم فى الدخول ، وقد اشترى كل واحد تذكرة الدخول وثمنها مارك واحد .

كل هذه مقدمات لدخول القصر ، مقدمات تثير فى نفس الزائر رغبة ملحة فى رؤية هذا القصر الريفى الصغير ، ذى الطابق الواحد ، الذى لم يرد صاحبه العظيم إلا أن يقيمه على طابق أرضى مقفل حتى لا يأخذ منظر القصور من حيث الارتفاع والضخامة ، كما اقترح ما وكل إليه الملك بناءه .



قاعة القصر الوسطى من الحديقة

وفريدريش الأكبر لم يرد إلا أن يكون سانسوسى قصره فى كل شىء ، لأنه هو الذى صمم بناءه بيده ووزع حجراته بقلمه ، وحاسب مهندسه على تكاليفه بنفسه ولم يترك له إلا مهمة النقل من الورق إلى الطبيعة ! وهو الذى لقبه بهذا الاسم "Sans souci" القصر الذى لا تعرف طريقه الأحزان !

* * *

تفتح أبواب القصر ، ويصف الدليل الزائرين ويدخل بهم حيث مئات من الخفاف المصنوعة من اللباد يلبسها الزائرون فوق أحذيتهم حتى لا يجرحون أرض القصر الخشبية اللامعة ؛ وهكذا عندما تدخل أى قصر من قصور برلين ، لا بد وأن تلبس هذه الخفاف التى ولا شك تعمل على صقل أرضها بأرجل زائريها . . .

تدخل القصر من الردهة الرخامية ذات الأعمدة المصنوعة من المرمر وقد زينت أبوابها الخشبية وسقفها بصور الخمائل ، وآلهة الخمر ، مما يتمثل فى بناء القصر .

ثم تنعطف يساراً وتمر فى ردهة ضيقة ممتدة ، ردهة كأنها متحف للقصر قد تدلت من سقفها الدائر ثلاث ثريات فرنسية الصنع من البلور وصُفت على جانبها الأيمن خمسة مقاعد ذهبية مغطاة بالحرير ما زالت فى مكانها منذ بناء القصر ، وقد ازدحمت بجدرانها عشرات من الصور الزيتية منها اثنتان شرقيتان للسلطان فى الحريم والسلطان فى الحديقة ،

هذا كل ما يخلدونه عن الشرق ، وكل ما يعرفون عن حضارة العرب منقول عن قصص ألف ليلة إذ هى قاموسهم عن الحضارة الشرقية .

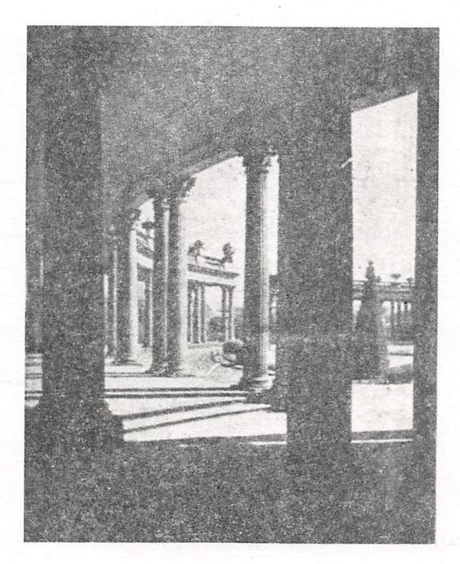
وعلى الجانب الأيسر صفوف من التماثيل النصفية المرمرية ، لم يبقَ منها بعد أن نُقلت أصولها إلى متحف برلين إلا ثلاثة فقط .

ثم يفتح الدليل باب الردهة الأخرى بعد أن أحكم إقفال الباب الأول ، فإذا بك فى حجرة دائرة هى ولا شك أكثر حجرات القصر حياة ؛ هذه حجرة المكتبة ، وأعز حجرات القصر على نفس فريدريش ، فقد كان لا يسمح بدخولها إلا بإذنه الخاص .

فقد صُنعت جدرانها من الخشب المطعم بنقوش من النحاس على شكل الفروع والأغصان والأزاهير؛ وهى تمثل فن ذلك العصر أبلغ تمثيل . ومن قمة السقف تدلت ثريا من البلور الفرنسى وعلى جوانب المكان صُفت خزائن الكتب التى تركت محتوياتها حيث هى ، تحدث عن نوع الحياة الفكرية التى كان يعيشها فريدريش العظيم .

وهذه الحجرة تحدث حديثها ، وتثير فى نفس كل ألمانى ذكريات لا شك أنه يريد أنها لم تكن ، هذه الكتب التى تبلغ المائتين والألفين عداً ، والتى كانت غذاء ذلك الإمبراطور العظيم فخر ألمانيا ، هذه الكتب لم يكن بينها كتاب ألمانى، جميعها فرنسى ! ولو كانت هذه بالإنجليزية أو الروسية لكان أهون على نفس الألمانى ؛ ولكنها فرنسية !

لقد كان فريدريش يعيش فى أخريات أيامه وقد خلف ثوب القائد المنتصر ، لقد كان يعيش بين هذه الكتب وكان يقول « إننى أعيش الآن بين كتبى ، وفى عصر أوغسطين ، وسرعان ما أفقد الصلة بينى وبين شعبى وأعيش غريباً عنهم كما كان يوردان غريباً فى شوارع برلين .» .



تحت ظلال القصر

وكان فريدريش لا يستسيغ إلا الأدب اليونانى و الرومانى القديم مترجماً إلى الفرنسية ، وها تقرأ على كعوب هذه الكتب المخزونة أسماء هومر وجوزيفس وبلوتارخ ، ثم مؤلفات فولتير ورسو وراسين وغيرهم من زعماء الأدب الفرنسى .

وفى أدراج المنضدة المكسو ظهرها بالقماش وصية فريدريش الأكبر وصورة لتصميم قصر سانسوسى رسمها بقلمه ، وتقرأ توزيع حجرات القصر بالفرنسية .

ثم تخرج من باب آخر يقودك إلى غرفة نوم الإمبراطور وغرفة مجلسه ؛ تفصل الواحدة عن الأخرى ستائر وأعمدة ؟ وفى هذه الحجرة الفسيحة كان فريدريش الأكبر يقضى أيام وحدته ولياليه ؛ وفى الحجرة الصغيرة الملحقة بها ، وعلى ذلك المقعد القديم الذى يحتل صدر هذا المكان ، على هذا المقعد تُوفى الإمبراطور العظيم !

لم يبقَ من أثاث هاتين الحجرتين حين كان يسكنها ذلك العاهل إلا جمع حول ذلك المقعد ، لأن الإمبراطور حين مات منحت مخلفاته إلى من قام بدفنه إلا هذا المقعد الذى كان يجلس عليه الإمبراطور وكان ينام عليه ، وترك الدنيا وهو بين ذراعيه !

هنا ولا شك تتذكر صورة فريدريش المعروفة ، بقبعته الحريرية العالية ورياشها الطويلة ، التى قد بليت من فعل الزمن ، وتذكر معطفه الأزرق بنقوشه الصفراء بهتت من القدم ثم حذاؤه الطويل الذى لم يمسه الطلاء الأسود منذ زمن طويل حتى بدا نحاسياً !

هذا الإمبراطور الغريب الأطوار ، الذى لم يرد أن يخلع عنه هذه المخلفات العتيقة ولم يعبأ بملاحظة خادمه حين صرح له بما يقوله الناس عن هلهلة ملابسه.

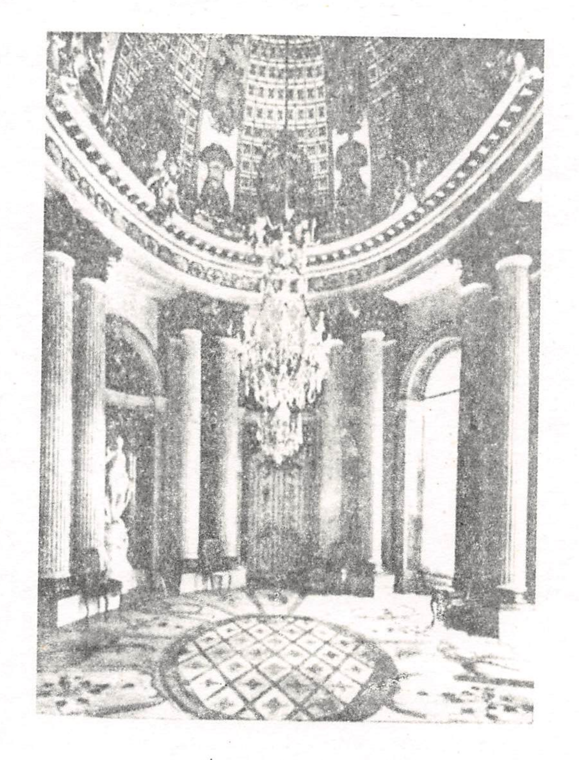
ثم تخرج من الباب الآخر إلى حجرة الاستقبالات وهى ككل حجرة فى القصر بثرياها الفرنسية المتدلية وبالصور الزيتية التى تغطى جدرانها ، وعلى المنضدة الرخامية خمس جرار إيطالية ، وعلى هذه المنضدة كنت ترى فى أيام القصر القديمة سلال الفاكهة المقطوفة من حدائق القصر كل صباح .

ثم تستقبل حجرة الموسيقى بجدرانها البيضاء ونقوشها الذهبية المشبكة ، وبمراياها العديدة وبسقفها المنقوش الذى يمثل كيوبيد إله الحب الصغير يطارد الأرانب البرية بسهامه .

وإلى جانب المكان تجد المعزف الكبير الذى كان يستخدمه الإمبراطور ، وتجد الناى الذى كان سلواه فى شيخوخته وكان يعزف به إذا ما أمسى المساء .

ومن هناك تخرج إلى قاعة المرمر الدائرة التى تتوسط القصر والتى تطل نوافذها على مدرجات الحدائق ، وقد ارتفعت على ثمانى أعمدة من المرمر ، وقد تدلت منها ثريا من البلور الصافى المشغول بالفضة الناصعة .

ومن هذه الردهة تنعطف إلى الجانب الأيسر من القصر وهو الذى خصصت حجراته للزائرين أو لكبار رجال البلاط .



قاعة المرمر فى قصر سانسوسى

حجرات متشابهة زينت جدرانها بالصور الزيتية العديدة وبتماثيل المرمر ونقشت سقوفها بنقوش الذهب ، وفى صدر كل منها مخدع صغير موضوع فى فجوة من الحائط إذا أسدلت عليه الستائر اختفى ، وقد كُسى بأقمشة كأنها صُنعت فى المحلة الكبرى مما نستعمله فى لباس القفاطين الحريرية .

تمر على هذه الحجرات حتى غرفة الزهور ، أو غرفة النسانيس والببغاوات كما سماها جيته ، أو غرفة فلتير كما يعرفها الناس .

غرفة لها شخصيتها ، لها مخدعها الخاص الصغير الذى لم يكن ولا شك يحتاج فلتير الضئيل إلى أوسع منه وقد وضعت فى مكانه منضدة عليها تذكارات صاحبها الأول وزينت جدرانها الخشبية بالفروع والزهور الملونة بببغاواتها ونسانيسها ، ونُقشت المقاعد المصفوفة حول الغرفة ، بصور تمثل قصص لافونتين ؛ وفى صدر المكان تمثال نصفى لڤولتير صنعه فريدريش الأكبر لصديقه من القيشانى (البروسلان) وأهدى أصله إليه .

. . .

تخرج بعد أن تجوس بقية الحجرات إلى حدائق القصر ، وتسير الهوينا وأنت تذكر تلك المتناقضات الذى حواها هذا القصر الريفى ، وتذكر شخصية فريدريش الأكبر « أوفرتن العجوز » كما كان يسميه أهل بوتسدام ، وتذكر فولتير وتذكر المكتبة الفرنسية !

ثم تكتشف كيف أن المرأة لم تمثل فى هذا القصر ، لم يكن لها من أثر بين قاعاته وردهاته ، لم يكن لها من أثر فى حياة صاحبه ، لم يكن لها أثر فى فنه وذوقه . .

وقد تكتشف بعد ذلك لماذا دعا فريدريش هذه الدار ، بالقصر الذى لا تعرف طريقه الأحزان «سانسوسى» . . .



روح التربية الألمانية

منذ عشرين سنة أو أكثر ، كنا نقرأ فى المدارس الابتدائية فى كتاب إنجليزى ، أذكر من بين مقطوعاته قصة موضوعها أطفال ألمانيون .

وإننى وإن كنت قد نسيت القصة وأبطالها فلا زلت أذكر الصورتين اللتين كانتا تحليان صدر المقطوعة .

فالأولى تمثل مجموعة من الأطفال فى حجرتهم الخاصة بعضهم يغتسل وبعضهم يتعهد زهوراً على حافة نافذتها المطلة على أحراش مترامية، وهنالك فى الصورة الثانية أُمٌ تقرأ لطفلها من كتاب وضعته على حجرها أو هو الذى كان يقرأ لها لا أذكر !

ومن الذى يزور ألمانيا ، ويعيش فى بيت ألمانى ولا يذكر هذه الصورة الأولى ، ومن ذا الذى يزور مدرسة ألمانية ، وتغيب عن ذاكرته الثانية ، ولو عفت على عهدها السنون والأعوام ؟

إن التربية الشعبية أبعد غوراً وأعمق أثراً ، فأنت تتلمسها فى كل بيئة وبين كل جماعة مثقفة مترفة أو فقيرة معدمة، وهذه هى الناحية التى يجب أن أتلمس منها روح التربية الألمانية ، تلك النزعة التى تبثها الأم فى طفلها منذ أن ضمته لأول مرة بين ذراعيها ، بل التى تبثها البيئة بأجمعها منذ أن تنشق الطفل هواءها لأول مرة .

كل طفل تقابله ، كل منظر تراقبه ، كل كلمة تقرؤها حتى فى إعلان الشارع تحدثك من ناحيتها عن هذه الروح التى تتميز بها التربية الألمانية التى جعلت لكل ما هو ألمانى صبغة خاصة ، وجلالاً وتقديراً .

هذا الطفل الهادئ الذى تلقاه فى طرقات برلين ومتنزهاتها يغدو ويروح يقول لك ! أيها الزائر المستعرض - وإن لم يجد من وقته وهلة للتحدث إليك - يقول لك : إننى سوف أبتكر فتأخذون عنى ، وأفكر فتصيخ الآلاف لتفكيرى ، إننى سوف أكون فى الغد جندياً أو طبيباً أو صانعاً أو معلماً أو أباً ، فأنتصر وأنجح وأستفيد وأفيد ! الطفل الألمانى تلمح فى تكوينه الصحة الكاملة ، وهذه ذخيرته إذا ما صار رجلاً كاملاً فيعمل ، ويعمل بجلد ونشاط وغيرة هى كل رأس ماله ، بل هى أساس كل عمل يرغب صاحبه فى إتقانه والبراعة فيه .

انظر إلى الشاب المصرى ولم يكمل بعد العقد الثالث أو الرابع ، قد يكون بطبيعته نزاعاً إلى الجد والعمل ، ولكنه يجاهد فى كل ساعة من ساعات عمله ضعفه ، فهو مشتت الانتباه يتسرب إليه اليأس إذ أطال تفكيره ، أو فشل فى محاولة من محاولاته ، فما هو معروف عنا ، مفكرين كنا أو أيدى عاملة ، إننا ينقصنا الجلد فى محاولاتنا لا سيما فى دورها الأخير ، فنضيع بهذا الإهمال ثمرة مجهود طويل . ثم انظر إلى الألمانى !

حدثنى طبيب مصرى يقوم ببحث خاص فى إحدى مستشفيات برلين الكبرى ، إنه حاول أن يتلمس موضع البراعة من رجال الطب من الألمان الذين ملأوا السجلات باكتشافاتهم ومبتكراتهم الطبية ، فلم يعز

ذلك إلى أن الاستعداد العقلى عندهم أعلى منه بين المصريين مثلاً ، ولكنها الكثرة أولاً ، كثرة عدد المثقفين والكثرة بطبيعتها توجد مجالاً للنبوغ ، ثم الجلد والصبر ثانيًا ، فقد يجلس الطبيب الألمانى الساعات المتوالية ، دائبًا على عمله دون ملل أو ضجر ، وإذا ما فشل فى تجربته أو إذا كانت النتائج التى وصل إليها بها مسحة من الشك لا يقبلها على علاتها ولا يطرحها سأمًا ولكنه يوالى استقصاءه ويعيد تجاربه من ألفها إلى يائها .

إنهم يريدون أجسامًا كاملة ، لا لأنهم يريدون مصارعين وحمالين للأثقال ، ولكن أجسامًا لا تنوء بعبء ما هو مفروض على أصحابها من واجبات وأعمال ؛ ومن مظاهر هذه العناية بأجسام الأطفال فى ألمانيا ، تخفيف ما تحمله أكتافهم ورؤوسهم وأقدامهم من قلانس وأردية وجوارب وأحذية .

إن الزائر لبرلين ليتملكه العجب إذ يرى الأطفال والصغار فى حكم العراة ، يسيرون فى الحدائق عراة الرؤوس عراة الأقدام ، لا يستر أجسامهم إلا سروال منعقد بين الكتفين كلباس البحر ، وليس الأطفال هم المنفردون فى ذلك دون غيرهم ، بل إن الآباء والأمهات كذلك يحملون هذا التقليد ، الذى أثبت الطب من ناحية والتربية من ناحية أخرى أهميته .

فالرجال يسيرون دون معاطف مرتدين سراويل قصيرة ، وقمصاناً

دون أكمام ، مفتوحة الصدر إلى نهايته ، وتسير السيدات فى أردية بسيطة فضفاضة دون الجوارب الطويلة المحكمة ، وينتعلن أحذية أشبه بنعال الأعراب ذات سيور من الجلد والمطاط ، ويجلسن الساعات الطويلة مغمضات الأعين تحت أشعة شمس الظهيرة يردن أن تلوحهن الشمس وأن تنضج بشرتهن البيضاء !

حتى إن طائفة من الألمان تغالت فى تطبيق هذا المبدأ فقالوا بضرورته المطلقة ، وأنشأوا ما سموه مستعمرات العراة ، وهى أدغال منعزلة يعيشون فيها رجالاً ونساءً وأطفالاً ، عراة لا يسترون رأساً ولا قدماً ولا عورة ، ويقومون بأعمالهم اليومية من دراسة وطهى ورياضة تحت أشعة الشمس أو مساقط المطر . بيد أن هذه المستعمرات قد أغلقت منذ أن دخلت ألمانيا فى عهدها السياسى الجديد ، واعتنقت من المبادئ ما تنافى مع هذا الشذوذ !



الفتاة الرياضية الألمانية

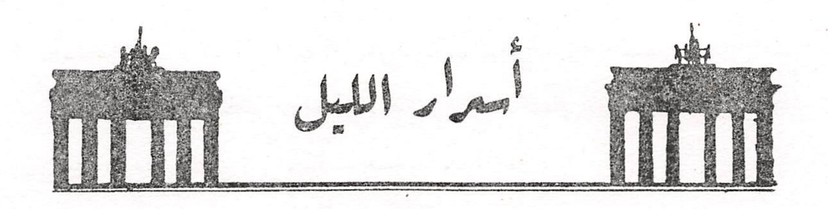
ولكن ما من وسيلة لبث روح النشاط والحركة فى نفوس الأطفال إلا واستخدموها فى كل مجال وفي كل مكان وفى كل صورة .

ففى كل حديقة من حدائق برلين العامة ، أو فى كل متنزه من تلك المتنزهات الصغيرة التى تزين بها ميادين العاصمة ، تجد بها ركنًا خاصًا للأطفال هو حديقة الصغار وملعبهم . يجد الناظر إلى هذه الحدائق الخاصة بالأطفال أكوامًا من الرمل، يجد فيها صغار الأطفال مجالاً لألعابهم يبنون عليه بيوتًا ويحفرون آبارًا ويخططون فيه ويرسمون ، ثم هنالك الأراجيح وما إليها مما يستخدم للوثب والركض ثم غيرها من أدوات الألعاب الرياضية .

وعدا هذه الحدائق ، تجد حمامات الأطفال الخاصة وأحواضهم ، وهذه ليست فى خارج المدينة أو على ضفاف الأنهار أو على شاطئ البحر، وليست هى بالحمامات المقصورة على المشتركين فحسب ، بل هى فى أكثر الميادين وفى كل منطقة من مناطق المدينة حتى لا يضطر الطفل لأن يذهب بعيداً عن بيته ، وهى من أحواض غير عميقة متجددة المياه تحيط بها حديقة صغيرة ومظلات للجلوس ، وهى مفتوحة لكل طفل دون حاجة إلى دفع أجر أو اشتراك خاص .



اجتماع لإحدى جمعيات الفتيات الحديثة



أسرار الليل

لم أجد فى باريس ما يدفعنى إلى تعرف سر حياتها الليلية ، لأن سر باريس من الأسرار المفضوحة ، ولأن باريس تتاجر بهذا السر ، تجاهر به ، ولأن باريس جعلت هذا السر صناعة ، تتناقلها الأجيال ، لجذب تلك الخفافيش التى لا تخرج إلا فى الظلام ، أولئك الذين يريدون أن يشربوا هذا السر جرعة واحدة ، جرعة واحدة مركزة !

ولكن برلين تعرف كيف تكتم هذا السر ، وتكسبه صبغة فنية ، وتصبغه بلون علمى ما أبعده عن حياة التبذل ، ولو كان التبذل عينه .

وما حلا لى أن أقضى الليل إلى هزيعه الأخير إلا فى برلين ، وما حلا لى أن أتغنى بقصص الليل إلا عن برلين .

ثم هبطت برلين من جديد ، فوجدتها قد ضاقت بذلك السر ، فوجدت برلين قد ثارت على تلك الأقبية الليلية ، فجعلت الهواء الطلق يدخلها ، وجعلت ضوء الشمس يبهرها بعد أن كانت لا تعرف إلا الظلمة أو ضوء الكهرباء .

ولم تمضِ علىَّ فى برلين ساعة حتى وجدت نفسى فى الطريق إلى متزشتراز ولم أعرف لماذا انتحيت ذلك الطريق ، ولم أعرف لماذا كنت

أحملق حيث يلتقى ذلك الشارع بلوترشتراسا ، ولكننى وجدت ذلك الركن الحافل خاويًا ، ولم أجد صورة واحدة على نوافذه العديدة ، ولم أجد ما ينبئ على أن أحدًا ما يحتويه هذا البناء .

نعم لقد قفل الالدرادو أبوابه !

ثم تشجعت . . فانتقلت إلى الطوار الآخر ، وأخذت أدور حول ذلك البناء ، فوجدت إعلان الإيجار على نافذة ؛ وكنت أدارى بعض السائرين وأحملق إلى الطابق الأعلى كأننى أبحث عن غرفة خالية أو أنظر عرضًا من خلف الستائر المسدلة ، الستائر البالية التى قد بهت لونها ؛ كأننى غريب عن ذلك المكان لا أعرف قصته ولم أكشف فى ذات ليلة عن سره .

ثم دلفت فى تلك الطرقات الساكنة التى تصب فى ميدان فتنبرج ، أجهد فكرى فى تذكر تلك الأبواب التى طرقتها منذ عامين ، فاستعجم على البحث واختلطت على الأمكنة ؛ ورجعت إلى ميدان بوتسدام ، أتسلى بما تبقى من آثار برلين الراقصة ، فوجدتها قد أبدلت رقصات الجاز الثائرة بالفالز الهادئة الوديعة .

نعم لقد وجدت برلين الجامحة قد سكنت ، لقد وجدت برلين الجديدة لم تحتمل أعصابها ما جاءت به الحرب .

* * *

كان ذلك منذ عامين ، وكان الموعد فى مكان غير مطروق . وفى ساعة غير باكرة . أما الموعد فعند ملتقى شارع مارتن لوتر بشارع فورمسر وأما الساعة فكانت الحادية عشرة ليلاً .

كنت أول من لبى نداء ذلك الموعد ، وكنت أسير مردداً اسم ذلك المكان الذى سنطرقه تلك الليلة ، أردده حتى لا أنساه ، ولم أرد أن أسأل أحداً حتى لا أثير شكاً بى أو ظناً بمقصدى ، فالأجنبى فى كل مكان موضع الظنون ومجال الريب ، ولم تنتصف الساعة الحادية عشرة حتى كنت أتمهل حول ذلك الركن وأقرأ « . . . » وقد كتب بخط متواضع على باب متواضع حجب بالستائر ، درت حول المكان فلم ألمح إلا بصيص النور من بين الستائر التى لم يحكم إسدالها، ولم أسمع إلا همس الموسيقى ، من معزف واحد ، وأثار هذا التستر فى نفسى رغبة ملحة إلى تكشف سر المكان ! طبيعة فى نفوسنا جميعاً .

وطال بى الانتظار حتى الساعة الحادية عشرة فى مشرب الجعة المجاور ، دارت الساعة ربع دورة ، وأنا أنتظر هؤلاء الرفاق ، وكان رفيقى فى ارتياد ذلك المكان سيدة ، بيد أنها لم تكن من رواد هذه الأقبية الليلية ؛ سيدة طبيبة فى عقدها الخامس ، توثقت بيننا المعرفة فى معهد الدراسات الجنسية الذى كنت أتردد عليه طويلاً ، عند ذاك جاءت السيدة ، جاءت تهرول وتدور بعينها فى أركان الشارع المظلم تبحث عنى ؛ غير أنها لم تكن وحيدة ، جاء ت تصحبها أخرى هى فى سنها ، ثم آخر عرفت من وجهه أنه أجنبى غير شرقى ، أما السيدة فشقيقتها تعمل

معها فى المعهد ، أما السيد - إذا جاز الاصطلاح - فطبيب يونانى يدرس فى ألمانيا .

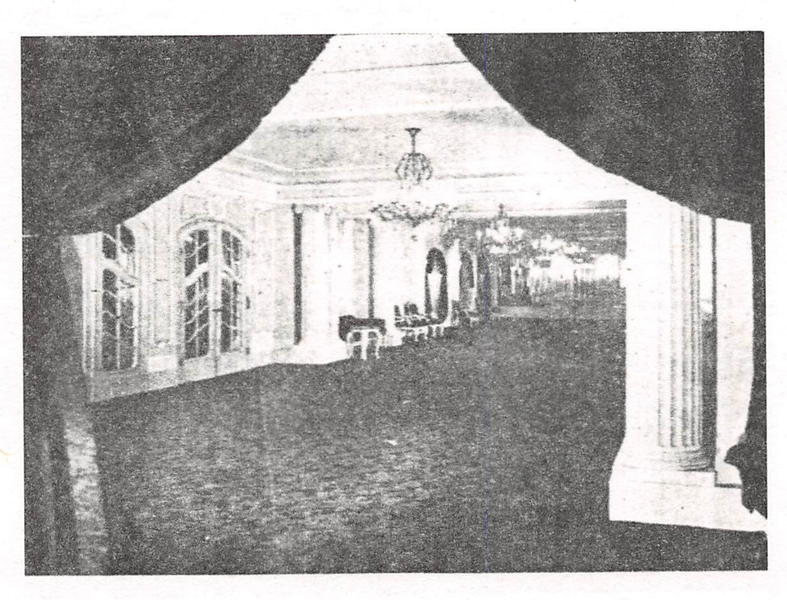
* * *

انتظرنا قليلاً حول المكان ، وقد دقت السيدة الطبيبة الجرس دقًا رفيقًا ثم ولجت المكان واختفت بضع دقائق وجاءت من جديد تدعونا للدخول .

ولماذا كل هذا التستر ، وليس فى المكان رجل واحد ، أليس هذا الخلط والمزج بين الجنسين هو كل ما يدعو إلى التخفى والتحفظ ؟ أما أن نطرق ناديًا ليليًا ليس به إلا النساء ، نساء لا يبدو عليهن سيماء السلاطة أو التبذل فليس فى هذا من عجب ! ولكن أن يحرم قانون ذلك المكان الرجال من ولوجه ، هو الذى جعل له هذه الصبغة السرية .

* * *

وليس فى المكان إلا حجرتان ، بهما كل ما بالأندية الصغيرة ، المقاعد الوثيرة ، والمناضد الصغيرة ، والمشرب بمنضدته العالية ومقاعده المرتبة ، ثم المعزف والردهة الصغيرة المُعدة للرقص ، وكل من يغدو ويروح فى هذا المكان من السيدات ، المرأة فى كل مكان حتى وراء منضدة المشرب ، تحولت أعين الجالسات إلينا عند دخولنا ، وانتحينا ركنًا على مقربة من الباب وجلسنا نحاول ألا نبدى اكتراثًا بما يدور حولنا ، ودخلنا فى نقاش خافت نريد بذلك أن نصرف عنا العيون ، وقد انصرفت بعد قليل .



قاعة للجلوس فى دار سينما « الاوفا »

عزفت موسيقى الرقص ، وقامت بعض السيدات ، يطلبن من بعض الجالسات شرف الرقص ، يطلبن بأدب وانحناء ، وبابتسامة وترفق كما يفعل الرجل سواء بسواء .

ودارت الراقصات تحول المكان ، تهصر كل واحدة رفيقتها بحنو ، وتنحنى عليها كما يفعل العاشق الذى تثير فيه الموسيقى كامن عاطفته ، وقد تقبلها بحرارة ليس فيها تصنع أو مداراة . .

وتصمت الموسيقى ، وتتبع كل راقصة رفيقتها إلى مقعدها ، وتنحنى أمامها باسمة شاكرة . . وقد ترافقها إلى المشرب تقدم لها كأسًا من هذا أو ذاك ؛ تحتسيانها جنبًا إلى جنب ، بشفاه متقاربة وأذرع مطوقة . .

ونحن فى حديثنا كنا نستلب النظرات استلابًا تحت ضغط شعور خفى ، كأن ما نراه ليس فيه نبوة أو شذوذ ، ولكى نشعر مضيفتينا بأننا من رواد هذه الأركان الخفية ، فلم نعد بعد تثار فينا رغبة للتطلع نزعة إلى التعليق بالحديث عليها كما يفعل الأجنبى الغريب .

ثم جاءت القهوة فشربنا ملء أكوابها الكبيرة وفعلت فينا ما تفعله الخمر فلم أعد بعد ذلك المزوّر الحذر ، وجاء وقت الحساب فتجاهل صديقنا اليونانى الطبيب وجود تلك الورقة الصفراء على المائدة محاولاً أن يغرق نفسه فى حديث مع مضيفتينا ، اللتين لم تفتهما حركة الدوران والالتفاف هذه ، إذ كانتا من بنات إسرائيل أعرف بأسرار الجيوب من

أسرار القلوب ؟ فكان لا بد أن أنقذ الموقف ، فأنقذته وأنقذت نفسى ، عندئذ شعرت بأننى بطل تلك الليلة ، فأشعلت غليونى وأسرفت فى الكلام والقهوة ، ثم قمت أخترق صفوف الراقصات دون هيبة أو تردد إلى حيث حجرة المعاطف فى صميم ذلك البناء ، وهناك فى ذلك الركن رأيت رجلاً ! ياللعجب ، رجلاً منبوذاً فى مملكة النساء نظرت إليه وابتسمت وابتسم بدوره ابتسامة طفيفة لا تكاد تصبغ الشفاه ، نظرت إلى جسمه المهضوم فتذكرت ذكر النحل الذى تفترسه الملكات فى الخلية . . !

وجدران المكان قد زينت بكثير من الصور الفنية الجذابة ، ليس من بينها صورة رجل واحد ، جميعها صور نسوية عارية تماماً فى كل وضع وفى كل ضوء .

ووراء منضدة البار وقفت سيدة مفتولة العضلات ، تلمح فى عينيها وفى تجعدات وجهها حدة الرجل ، تراها تهز قنينة الكوكتيل وتوزع الشراب على الفتيات الجالسات على مقاعد البار وتنظر إليهن بشغف ولذة عميقة .

ثم تعزف الموسيقى للرقص مرة أخرى وتخرج هذه السيدة من وراء منضدة البار تدك أرض المكان الخشبية بحذائها ذى الرقبة الطويلة والنعل الغليظ ، ما أشبهه بأحذية رجال البوليس ، ثم ترى عن كثب معطفها بجيوبه المنفوخة ذات الأزرار الكبيرة ، وكانت تحمل فى يدها

سوطاً صغيراً تلوح به فى الهواء مقهقهة ، ثم تأتى إلى الفتاة التى سقتها أكواب الكوكتيل ، وتنحنى لها تطلب الرقص وهى تبتسم ابتسامة لها معنى عند الفتاة ، ثم تحتضنها برفق ولين وتدللها وتمسح بأصابعها على وجهها ، ثم تثير فيها الموسيقى ثورة كامنة فى قرارة نفسها فتهصرها بشدة وقسوة وتنحنى على وجهها وتقبلها بعنف ، ثم ترتميان على أحد المقاعد الوثيرة إعياءً وتعباً وتشعران بأنهما كانتا تجاهدان نزعة غالبة . .

وترى الفتاتين اللتين تجلسان فى أحد أركان المكان جنباً إلى جنب تدخنان السجارة بعد السجارة وتتحدثان بصوت خافت وأعين معقودة كما يشعر العاشقان اللذان يقنعان بالجلوس والخلوة البريئة والحديث الهادئ وقد يعيدانه مرة وأخرى ، ويتجاهل كل منهما أن رفيقه قد أعاده . .

* * *

ثم كانت الساعة الواحدة صباحًا ، وخرجنا إلى حيث الالدرادو بأنواره الساطعة وموسيقاه المرتفعة كأنه لا يخشى فضيحةً ولا عنتًا ، وكأنه لا يحمل وراء جدرانه سراً ولا قصة . .



بين الشوارع



ليس للغريب النازح إلى عاصمة واسعة كبرلين متعة أقل كلفة وأيسر طريقًا من السير على غير هدى ، والضرب فى شوارعها دون غاية أو قصد !

وأى لذة أمتع من أن نسير فى شوارع عاصمة عظيمة كبرلين دون غاية، اللهم إلا لنغرق أنفسنا وهمومنا بالسير دون قصد فى شارع كفريدريش لا يهدأ فيه نبض الحياة فى ليل أو نهار !

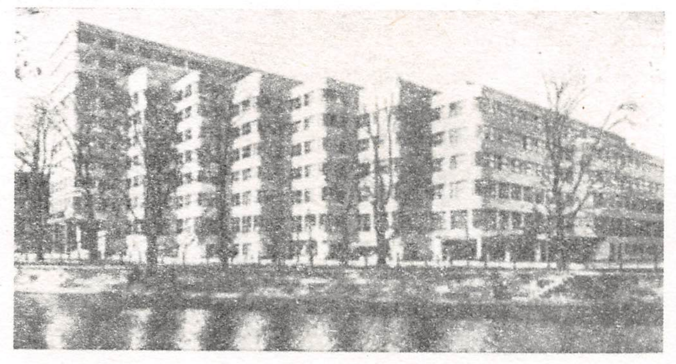
وهذا الرجل السبهلل كثيراً ما تراه فى طرقات برلين أو تصادفه فى منتدياتها ، والطبيعة الألمانية مع ميلها للدقة واستغلال الزمن ، ولا تتنافى مع الميل إلى التشرد بين الطرقات العامرة .

فليس أولئك الذين تراهم فى توانترين اشتراسا ينتقلون من نافذة إلى نافذة ، ومن مخزن إلى مخزن ومن دكان إلى دكان ، وليس هؤلاء جميعاً من الغرباء الذين لا عمل لهم إلا التسكع والتفنن فى قتل الوقت ؛ لا ! لأن كثيراً منهم من أهل برلين ذاتها يروِّحون عن أنفسهم بهذا التسكع وبالتطلع إلى نوافذ المتاجر المنسقة البديعة .

وشوارع برلين أرحب طرقات أية عاصمة أوربية وأكثرها اتساعًا ، يبلغ عرض الواحد منها عشرات الأمتار تظلل جانبيها صفوف الأشجار الوارقة المتدلية ، وتخترق الكثير منها أحواض الحشائش الخضراء .

وحيثما انثنيت تجد الحدائق الصغيرة التى تزين بها الميادين، فاللون الأخضر أشد الألوان غلبة فى طرقات برلين ، فإذا ما نظرت إلى العاصمة الألمانية من برج الإذاعة أو من أحد الطائرات ألفيتها صحيفة خضراء تتخللها خطوط بيضاء منتظمة هى الشوارع والميادين .

وفى وسط هذه جميعًا بقعة خضراء داكنة ، كأنها غابة فى وسط هذه العاصمة الفسيحة ، هذ هى التيرجارتن ، وما هى إلا غابة حقًا . وقليل من العواصم ما تحتل فيها الأحراش والحدائق قلب المدينة الخافق .



برلين الحديثة

والتيرجارتن « أو حدائق الحيوان » التى تمتد شرقًا من بوابة براندنبرج إلى شارلتنبرج غربًا ، والتى يسورها مجرى الاسبرى ويخترقها العديد من القنوات ، هذه الحدائق ليست وقفًا على أقفاص الحيوان ؛ إذ إن هذا الاسم لا ينطبق معنى إلا على جانب ضئيل منها ليس إلا ، هو ال (تسو) .

وأنَّى سرتَ فى برلين لا بد وإنك قاطع أطراف هذه الحدائق ، إما على قدميك أو بإحدى مركبات الترام أو السيارات العامة .

ونهير الاسبرى لا تكاد تكتشفه إلا عرضًا فى برلين ؛ فبرلين التى تبلغ قناطرها نحوًا من سبعمائة جسر ، لكثرة ما بها من جداول الماء ، تكاد أن تكون خلوًا من سحر الأنهار .

وهذه الجداول والقنوات تتفرع فى برلين وتنساب فى كل ركن حتى إذا خرجت من قلب العاصمة تجمعت لتكوِّن تلك البحيرات الساحرة حيث ضواحى برلين البديعة بوتسدام وكلادو فانزى وغيرها .

* * *

وهذه الأحراش والحدائق ، وهذه القنوات والجداول ، وهذه الميادين الفسيحة والشوارع الرحبة ، كل هذا جعل برلين أوسع عواصم العالم طرًا .

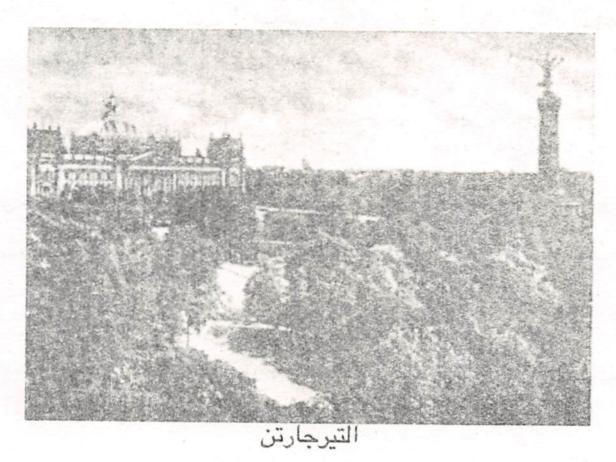
ومع ذلك فوسائل الانتقال عديدة ميسورة ، ارتبطت مع تنوعها ،

وهى مع ذلك رخيصة جد الرخص إذا نظرت إليها من بعض نواحيها ، أو إذا قارنتها بمدينة مثل لندن .

وما من وسيلة من وسائل الانتقال إلا فى برلين ، فالترام يسير على الأرض وفى الهواء وتحت الأرض .

والقطارات الكهربائية المختلفة تسور برلين وتضرب حولها نطاقًا ، وسيارات الأوتومبيس ذات الطابقين تخترق كل طريق ؛ وسيارات الأجرة التى تميزت بلونها الأخضر وبنطاق المربعات السوداء حولها تنسجم ألوانها مع خضرة الشوارع التى تنساب فيها انسيابًا .

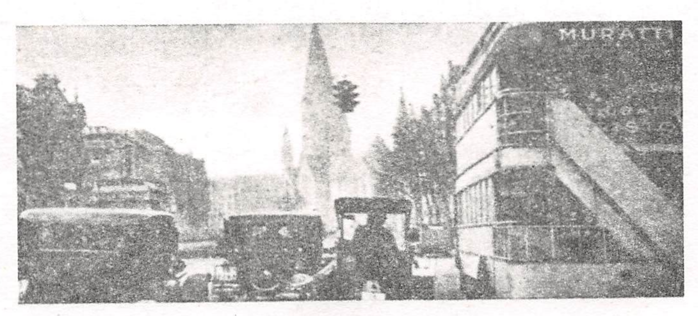
وأجور الانتقال بأية وسيلة من هذه الوسائل فى نطاق العاصمة خمسة وعشرون فنشًا طالت الرحلة أو قصرت ، ولك إذا أردت أن تستبدل سيارة بأخرى أو ترامًا بترام بتذكرة خاصة قدرها ثلاثون فنشًا



التيرجارتن

ولك أيضًا أن تقطع جانبًا من رحلتك بالترام الأرضى وتكملها بإحدى السيارات العامة .

ولا شك أن هذه المساواة فى أثمان هذه التذاكر غبن على الذين لا يقومون بجولات طويلة ، لعله لأجل رفع هذا الغبن يُسر للراكب أن يشترى تذكرة جزئية بين عدد معين من محطات الترام أو الأتوبيس فى وسط العاصمة قدرها خمسة عشر فنشًا أو عشرة فنشات .



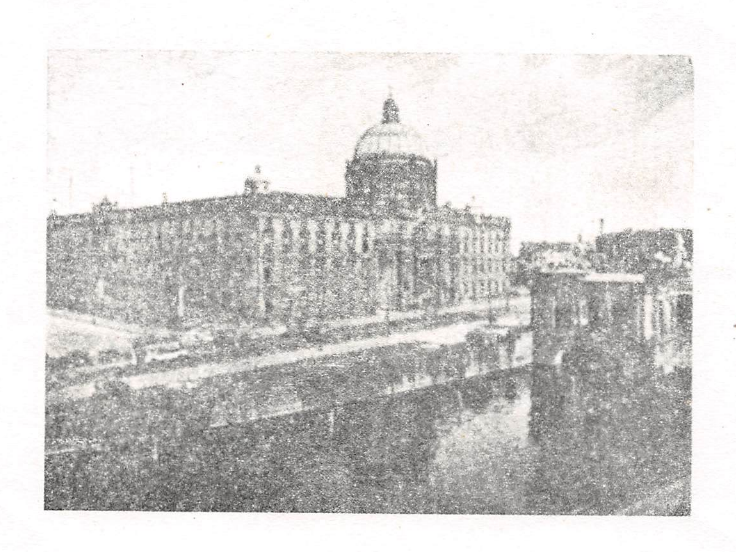
أنواع المواصلات فى برلين

والترام الأرضى فى برلين لا تنحدر إليه بعدد هائل من الدرجات كما هى الحال فى لندن ، فهو أقرب إلى المتروبوليتان فى باريس بيد أنه أحدث بناءً وأجمل تنظيماً وأبهج تنسيقًا ، به عربات خاصة للمدخنين .

ومع أنك لا تكاد تجد أحداً لا يدخن فى برلين ، بيد أن التفريق بين جمهور المدخنين وغير المدخنين واضح وضوحًا قاسيًا ، فالطابق الأعلى

من عربات الأتوبيس مخصص كما فى لندن لجماعة المدخنين ، وقد ميزت مقاعده بأنها خشبية جامدة ، إذا ما قيست برفاهة الطابق الأول .

وميزت العربات الحديدية وعربات الترام الخاصة بالمدخنين بلونها الخاص وبالبطاقة الحمراء الملصقة على زجاج كل نافذة وقد كُتب عليها ممنوع التدخين (Nichtraucher) ، ولا أنسى يوم كنا فى فانزى فى أحد أيام الصيف وبصحبتنا صديقنا الظريف الأستاذ . . ولم تكن قد مضت له فى برلين إلا الليلة الأولى . فلما جاء القطار اندفعنا إلى أقرب



عربة لشدة الازدحام فى ذلك اليوم ولكننا لم نكد نخطو إلى داخل العربة حتى اكتشف صديقنا من أنصار الواقفين بأنها لغير المدخنين ، فأعجم عليه الرأى وسرعان ما قرر الانتقال إلى العربة الأخرى مفضلاً ذلك على إطفاء سيجاره اللذيذ ، ولكنه ما كاد يصل إلى طوار المحطة حتى أقفلت أبواب العربة وجد القطار فى السير . . .

وانقضت ساعات كأنها أجيال ونحن نبحث عن صديقنا الأستاذ ! وهو لا يعرف كلمة ألمانية ، ولم يحفظ بعد اسم الفندق الذى ينزل به ، ولا عنوانه ، ولا اسم الجهة التى يقطنها .

وكان يوماً قاسياً علينا جميعاً ، حتى إذا أقبل الليل لم نجد بدأ من الرجوع إلى حيث ينزل صديقنا عازمين على بحث الأمر فى ضوء جديد ونحن نلعن سيجار برلين الفاخر الذى أغرق صديقنا بما حدث ؛ فوجدناه هادئًا باسماً فى سريره وهو يقرأ ويأكل رطلاً كاملاً من العنب ويدخن سيجاراً أضخم وأفخر من تلك السيجارة اللعينة . . .

ومحطات برلين الحديدية عديدة وإذا نظرت إليها على مصور المدينة ألفيتها حلقة دائرة يقف عليها القطار ليتخير المسافر أقربها للحى الذى يسكنه .

ومحطة انهالتر لها شخصيتها ، فهى التى تربط برلين بالجنوب ، بميونخ وڤينا ، وهى التى تربطها بالشرق ، بمصر . .

وفى أيام الأحد تجد شارع السارلند حيث هذه المحطة حافلاً بالغرباء من أقاليم ألمانيا العليا بملابسهم القديمة ، وبأحمالهم على ظهورهم وبقبعاتهم الخضراء الزاهية ذات الرياش الطويلة ، وبسراويلهم المزركشة المنقوشة ، وتمر فى الساعة المتأخرة من الليل أمام محطة انهالتر لتجد مقاهيها زاخرة بهؤلاء الغرباء وقد صفت أمامهم أكواب الجعة السوداء ، أو كوبات القهوة فى انتظار القطار الذى يقلهم إلى الجنوب .



الترام العلوى والأرضى فى برلين

وكم ظفرت محطة انهالتر بجموع المصريين من القادمين والمسافرين فإذا كانت أخريات شهر سبتمبر لا تنقطع الأقدام المصرية عن التردد على الانهالتر لتوديع ضيف أو ترحيل نزيل .

شارع التماثيل التذكارية « رنجر اللاى » فى التيرجارتن



شارع التماثيل التذكارية « رنجر اللاى » فى التيرجارتن

ومحطة فريدريش اشتراسا لها صبغتها الخاصة ، وجوها الإنجليزى الذى تتميز به ، وهى كمحطة فكتوريا فى لندن أكثر محطات العاصمة شهرة بين الغرباء ، وإذا تفاهم الغرباء عى حقيقة ولو كانت خاطئة ، لم يجد المواطنون بدأ من تحقيق هذه الرغبة !

فترى حول محطة فريدريش اشتراسا ، عشرات من المقاهى والمطاعم التى تشعر بأنها للسائحين والغرباء ، وترى عشرات المخازن التى تبيع التحف والهدايا ، وتجد مكاتب السفر ومكاتب تغيير النقود الأجنبية ، ثم المكتبات التى تبيع الصحف والكتب الأجنبية لا سيما الإنجليزية منها .

وليس بعيداً من محطة انهالتر تجد محطة بوتسدام فى طرف شارع السارلند ، وهذه محطة أهل برلين تربط برلين بضواحيها الفاتنة ببوتسدام وما حولها ؛ ثم بفانزى وما يجاورها . وفى صباح أيام الأحد الصائفة تضيق رحاب محطة بوتسدام بالنازحين إلى حيث بحيرات فانزى . . .

ليس فى محطات برلين تلك الرهبة والجمود الذى تجده فى محطات لندن الضخمة أو بعض محطات باريس « إذا استثنينا محطة سان لازار » لأنها محطات أنيقة لا يشعر الإنسان فيها بالوحدة والقلق إذا كانت خالية فى ساعات الليل المتأخرة .



كان صديقى كأنما أقسم ألا يخرج السيجار من فمه ما دام فى برلين، فكنت ترى السيجار الضخم بين شفتيه فى كل مكان ، فى أثناء أكله وسيره ونومه وجلوسه ، وكنت أراه إذا دخلت عليه فى حجرته وهو يحلق وذلك السيجار الضخم من بين شفتيه ، حتى خرج من برلين وفى كل سترة من ستره وسروال من سراويله أثر لهذا النهم العجيب !

لست أظن بلداً يفقد فيه السيجار الفاخر ارستقراطيته العتيدة كما يفقدها فى برلين ! ترى سائق عربات الجعة وهو فى منصته المرتفعة فوق البراميل الفارغة والدخان يتصاعد من سيجاره الضخم ، فتقول فى نفسك سبحان الله المعز المذل !

ليس أكثر من دكاكين السيجار فى برلين ، عند كل ركن ومنحنى وأينما تلفت تجد مخزناً كبيراً من مخازن السيجار ، تجد عشرات العلب الخشبية التى تحوى السيجار ، ومتدرجة فى أثمانها من خمس فنشات إلى ستين فنشاً ، بأحزمتها المذهبة ، أو أغلفتها الفضية اللامعة .

ومن الذى لم يدخن السيجار فى برلين ولو مرة ، وهو يحتسى

قدحاً من القشدة فى أحد مراقص برلين أو مطاعمها الأنيقة ، إن ذلك الشعور العجيب الذى يخلقه دخان السيجار المتصاعد هو الذى يستفز الغريب إلى نداء البائعة التى تدور الفينة بعد الفينة بين مناضد المطعم أو المرقص وتنادى على سيجارها الفاخر .

أما السجائر فهى متعة غير شعبية ، ولا يعرفها كل ألمانى اللهم إلا الفتيات ، فهى مع ذلك غالية لا يعرف طريقها كل مدخن . وكم من أجنبى فتح فاه مدهوشاً عندما يطلب من بائع السجائر تلك العلبة الصغيرة التى كتب عليها ست فنشات ليعلم أن هذه الفنشات هى ثمن السيجارة الواحدة ، إذ إن أثمان السجائر تكتب بحسب اللفافة الواحدة لا بحسب العلبة الكاملة .

والسجائر المصرية لها سوقها فى برلين ، لا سيما بين الفتيات وفى المراقص حيث يستباح التبذير ولكنها سجائر مصرية تصنع فى فرانكفورت ، كما تصنع السجائر الإنجليزية فى همبرج بيد ألمانية !

والإنجليزى الذى يفد إلى برلين سرعان ما يكتشف أن هذا التبغ الرخيص الذى يبيعونه فى ألمانيا هو والهشيم سواء ! مساكن مدخنى الغليون فى برلين ، هم أشد طبقات المدخنين حرماناً ، فهذه العلب المنفوشة من التبغ الناشف ، تلتهب كأنها أوراق الخريف الجافة .

ولعل فى برلين وحدها ، يهون علينا أن تكسر لفائف السيجار الفاخرة لنحشى بها الغليون ، طعماً للنار !



أهل برلين

ذكروا أن فتاة إنجليزية ذهبت إلى برلين ، وبينما كانت فى طريقها وقف القطار فى هانوفر فأسرعت إلى مقهى المحطة لتتناول قدحًا من القهوة ، وحدث أن الخادم وكان أحمر الشعر متوتر الأعصاب لم يفهم قصدها ، فأحضر لها قهوة لم تستسغها ، فأسرعت فتاتنا وكتبت خطابًا إلى أهلها تقول فيه .

« إن الألمانيين حمر الشعر ، ينفرون من سحنة الغريب ، ولا يتكلمون الإنجليزية ، ولا يعرفون كيف تُصنع القهوة ! »

ومثل هذه الأحكام السريعة التى يصدرها بعض الزائرين خاطئة متطرفة ، فليس لأحد أن يعرف نوع الحياة التى يعيشها أهل بلد مثل برلين ما لم يمكث بينهم وقتًا مناسبًا ، ولم يعرف لغتهم وتقاليدهم . إن الألمانى اجتماعى بطبعه كريم ، والبرلينى بوجه خاص يفتح صدره للغريب ، والشاب الإنجليزى والفتاة الإنجليزية التى تدرس فى برلين لا ينسيان أيام برلين والحياة المرحة التى يعيشها البرلينيون .

وبرلين تختلف عن لندن ، وأهلها يعيش أكثرهم فى المدينة نفسها ،

يسكنون بمختلف طبقاتهم الاجتماعية البيت الواحد ، دون تفريق ، فكثيراً ما تجد فى أحد هذه البيوت الفاخـرة ، بقالاً صغيراً أو خبازاً أو إسكافًا يعيش فى الطابق الأرضى يشمله ساكنو البيت بالاعتبار والرعاية .

والسيدة الألمانية من الطبقة الوسطى لا تنزع الميدعة ، وشد ما تندهش إذا ما رأيتها وخادمتها فى الطريق لا تكاد تعرف السيدة من الخادمة ، والميادع جزء من زى المرأة الألمانية تعنى بها عناية ممتازة ، ففى فهرس بعض مخازن الأزياء فى برلين خصصت اثنتى عشرة صحيفة لأنواع الميادع ؛ من الميادع الكبيرة التى تستخدم عند الطهى إلى الميادع الحريرية المزخرفة الأطراف التى تلبس فى أثناء نزهات بعد الظهر .

وبيوت برلين غنية بشرفاتها ؛ وأهل برلين يقضون فى هذه الشرفات أيام الصيف ، فإذا كانت الشرفة متسعة تناولت فيها العائلة الإفطار والعشاء ، وهذه الشرفات تُضاء بالكهرباء وتترك فيها المقاعد المديدة للراحة ، وتُزين أركانها بأصص الزهور ، وفى أيام الصيف لا تصمت فى هذه الشرفات الأصوات إلى الساعات المتأخرة .

وأهل برلين يعنون باقتناء الكلاب مع ضخامة ما يدفعون ضريبة عنها - ثلاثين شلنًا ، ولا يستثنى منها إلا الكلاب التى تجر العربات ، ومن عهد ليس ببعيد كانت الكلاب لا تخرج إلى الشارع إلا مكممة ؛

ولشد ما كان ابتهاج أهل برلين عندما أُلغى هذا القانون فاستبدلت الكلاب الكمائم بشرائط الحرير والزهور . وأهل برلين لا يحبون القطط وقلما تجد شيئًا منها .

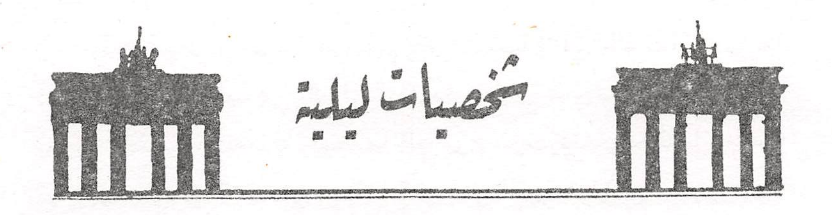
وأيام الشتاء ممتعة فى برلين وراء جدران البيوت فإذا انتهى العشاء جلست العائلة تستمع لما يقرأه أحد أفرادها ، بينما تجلس الفتيات تحيك بمهارة . ولا تخلو ليلة من عزف الموسيقى سرعان ما يرفع بساط الحجرة استعداداً للرقص وتقوم الأم بعزف بعض قطع الفالز .

وأهل برلين يميلون إلى المرح ، وهم كثيراً ما يتناولون طعام العشاء فى أحد المطاعم الفاخرة ، وفى ليالى الشتاء تحجز المقاعد لأكثر من عائلة واحدة يجتمع أفرادها يومًا كل أسبوع لتناول العشاء سوياً ولاحتساء الجعة ولقضاء السهرة .

وفى هذه الأيام بدأت بعض السيدات بتدخين السجائر، وفى أيام الصيف تزدحم مطاعم الهواء الطلق ومشارب الجعة التى هى ضرب من المطاعم ، هى لا تخلو من بعض فرق الموسيقى العسكرية .

وأهل برلين يتكلمون بصوت مرتفع ، ولا يأبهون للتحدث بأسرارهم أمام الغرباء ، وإذا اجتمع صديقان فى عربة الترام ؛ سرعان ما يعرف الذين معهم فى العربة كثيراً من أسرارهم الخاصة - كيف أن جرتشن مخطوبة لهانس ، وكيف أن طفل مارشين قد نبتت سنه الأولى ، وكيف

أن « زوجى » سيذهب إلى كارلسباد للقضاء على سمنته والميل إلى الفكاهة والفكاهة اللاذعة معروف عن أهل برلين ، وكثيراً ما يصبون نكاتهم على رؤوسهم ، وكثيراً ما تسمع « ما الذى يسبق التفكير ؟ » فيجيبك البرلينى ساخراً « حصان عربة الركوب ، لأنك عندما تفكر فى احتمال كبوته تجده فعلاً ممدداً أمامك على الأرض ! »



شخصيات ليلية

برلين مارس ١٩١١

ليس أسمح من وجه هذه العجوز السائلة ! وجهها الصبوح الذى تتدفق الحياة من تجاعيده وغضونه ، وشعرها الأبيض المسترسل كأنه جدائل من الكتان النقى ، وابتسامتها التى لا استعطاف ولا خسة فيها !

أمر عليها كل ليلة ، وأجد لذة فى منحها قطعة صغيرة من النقود لكى أقترب منها وهى فى ركنها لا تبرحه ، وهى فى ركنها واقفة بقامة ممدودة ورأس مرفوع وأعين معقودة بالسماء ، وأشعر نحوها بحنو ، وأشعر فى قربها براحة ، ولا شك أنها أم أو كانت أمًا لفتيان وفتيات فرقها عنهم الزمن .

تقدم إليك صندوقها إذا ما اقتربت منها ، لتشترى إحدى علب الثقاب الذى تعمل على بيعه ، وتشكرك حين ترفض أخذ ثمن ما دفعت بابتسامة حلوة خالصة ، وهى تحدق إليك النظر حتى تشعر كأنه يصل إلى قرارة نفسك ، وإلى مكان الإحسان من قلبك !

ولكنها نظرات تحدق فى غير شىء ، تحدق فى اللا نهائية ؛ إنها عمياء ! وتمر عليها فى الليالى الباردة المطيرة فتجدها فى مكانها لا تتحرك وبقامتها المعتدلة وبوجهها الصبوح ، وقد فتحت مظلتها ممسكة بها بهوادة ورفق كأنها فى صباها تسير فى التيرجارتن !

إن هذه القناعة ، وهذه الثقة بالنفس ، وهذه الوداعة ، وهذا اليقين والإيمان الذى يفيض به وجه هذه السائلة العجوز العمياء يعلمنا أن الرحمة والإحسان متعة لا تقاس بما يدفعه المحسن من سحاتيت ودراهم .

* * *

بائع « السجق » شخصية ممتازة من شخصيات الليل فى برلين ، وهو لا تراه إلا فى الليل ، فى أركان معينة فى كل شارع ، يعرفها الضاربون فى هذه الطرقات .

والسجق عند الألمانى كالبطاطس المقلى بالزيت عند الإنجليزى ، شىء متمم لمتعة السهرة الرخيصة ، إذ خرجوا من دور المسارح أو المراقص فى الساعة المتأخرة من الليل .

وبائع « السجق » يحمل بضاعته فى صندوق من المعدن اللامع الذى يولد الثقة بنظافة صاحبه وقد وضع لفائف اللحم فى الماء الفاتر ، فإذا ما اقتربت منه صاد لك بشوكته إحدى هذه اللفائف السابحة ، وسرعان ما يقطعها بسكينه الماضية وينثر عليها الملح المدقوق ويدهنها بشىء من الخردل ثم يضعها على قطعة من الخبز !

وإذا أقفرت الشوارع من السائرين تجد بائع السجق فى موقفه وقد تجمّع حوله أولئك الذين تزعجهم وحدة الطرقات أو فكرة الإسراع إلى بيوتهم ، تراهم يجعلون بائع السجق مركزًا لمقابلاتهم واجتماعتهم ، وهو يحمل حانوته بقطعة من حبل مدلاة من عنقه ؛ هذه كل بضاعته .

* * *

وفى أماكن مختارة قد تجد بائع الكعك المملح ، وقد وضع كل واحدة منها فى كيس من الورق الشفاف ، ولكن ليس له ولا لبضاعته عراقة الأصل كما لزميله بائع السجق .

وهذا الكعك الناشف المملح لا تكاد تراه إلا عند مثل هذا البائع وفى مثل هذه الساعة المتأخرة ، التى تستطيب فيها وأنت متعب مجهد خاوى البطن مثل هذا الكعك . وقد تجد مع بائع الكعك المملح فى بعض الأحيان شيئًا من الشكولاتة أو بعضًا من الفاكهة ، فتحس كأنك لم ترَ هذه الألوان من الأطعمة منذ أجيال طويلة وأين لك بتفاحة شهية فى هذه الساعة المتأخرة وقد بدأت برلين تستقبل الصباح الجديد ؟

* * *

وفتيات الشارع لهن مناطقهن بين أركان الميادين والطرقات ، وتمر فى الطريق الذى اعتدت الذهاب فيه إلى البيت لتجد تلك الفتاة فى مكانها تقطع الطوار جيئةً وذهابًا ، ولكنها قلما تخرج عن هذه الدائرة .

وهؤلاء الفتيات لهن من ملابسهن وأزيائهن ما يتميزن به عن غيرهن ، ولعلهن لا يحاولن بذلك تخفياً أو مداراة . وكنت أمر على أولئك الواقفات أمام أبواب الكاديقى المقفلة فى طريقى إلى ميدان فكتوريا لويزا ، بأحذيتهن الحمراء الروسية الطويلة ، وبمعاطف المطر المقفلة يفحصن كل سائر بنظرة لا تخطئ فى تقديرها ، وكأنهن فى ذلك رجال الحدود خبرة ومعرفة !

وكانت نظراتهن – لا سيما أولئك الواقفات حول أبواب الكاديفى جارحة قاسية ، وكانت قاماتهن المديدة تشعر بعنصر الرجولة فيهن ، وكن يسرن بثقة يضربن أرض الشارع بأحذيتهن الروسية لا تقل عن ثقة رجال الشرطة أنفسهم ، فكنت إذا ما اقتربت من شارع انزباخر تركت الطوار الأيمن حيث الكاديفى، وأنا لا أجسر أن أقترب من نوافذه المضيئة خوفًا وخوراً .

إن المرأة الفاجرة أشد قسوة من الرجل ، لا يعرف العطف إلى قلبها ولا المنطق إلى رأسها سبيلاً !

وأولئك الفتيات اللاتى تمر بهن فى منعطفات التسول ، أو اللاتى يقطعن الطريق بين ميدان بوتسدام ومحطة انهالتر ، أو اللاتى يتلكأن فى شارع فريدريش ؛ كل طائفة منهن تمثل طبقة معينة لها تقاليدها واعتباراتها .

وفى يوم من الأيام كان شارع موتز من بين هذه المواقف المختارة ، ولكنه الآن أقوى وأقفز بعد أُقفلت أبواب الألدرادو وأُغلقت تلك الأندية الليلية التى كانت منتشرة بين أركانه .

وهؤلاء الفتيات يخففن من شر الوحدة فى شوارعها المعطلة ، ويفضن بشىء من الحياة على السائرين فى الهزيع الأخير من الليل وقد ملت أقدامهم المشى ، ودارت رؤوسهم من سماع الموسيقى الراقصة حيث كانوا !

* * *

وعربات الخيل القديمة ؟

أليست هى صورة فريدة من صور الليل ببرلين ! العربات ذات الخيول الهزيلة بسائقيها من ذوى القبعات العالية ، والمعاطف الطويلة الرسمية البالية ، وقد فتلوا شواربهم وجلسوا على مقاعدهم بثقة وبشىء من العظمة التقليدية ، هم وعرباتهم بقية عصر مضى !

ولهذة العربات التى لا تظهر فى طرقات برلين إلا ليلاً - لهذه موقف خاص أمام محطة بوتسدام ، ولها روادها وزبائنها من الخارجين من مقهى الفاترلند أو غيره من مشارب هذا الميدان ، يجلسون فى العربة عشرة كاملة يصفقون ويغنون كأنهم يعبرون نهراً فائضاً على رمث من الأرماث ، وهم لا يسيرون إلا دقائق معدودة حتى مقهى أوربا أو محطة انهالتر .

وقلما ترى هذه العربات تسير فى غير هذا الاتجاه ، قلما تراها فى حدائق التير (جارتن) وهى لا تبعد إلا دقائق من موقفها أمام محطة بوتسدام .



معسكرات العمل

بين عشرات الأردية العسكرية وشبه العسكرية التى يغدو بها أصحابها فى شوارع برلين ، وفى المطاعم والمقاهى والمراقص الليلية ، فيصبغون المدينة بصبغة رومانتيكية كما كان يفعل الفرسان فى القرون الوسطى : بين أصحاب هذه الأردية العسكرية الزرقاء والسوداء والصفراء والخضراء ، قلما تكتشف الشبان الذى جعلوا شعارهم « العمل » فى جوف الأرض لا الجهاد فى ساحة القتال ، وجعلوا شارتهم الجاروف يحملونه على أكتافهم بدلاً من السيوف والمدى ، والذين بعد أن أتموا دراستهم الثانوية يعيشون فى معسكرات كما تعيش الجند ، يتسوغون شظف الحياة جزءاً من تبطرهم حياة التعليم الناعمة المدللة .

هؤلاء الشبان قد هجروا العاصمة العظيمة ، وراحوا إلى صميم البرية حيث لا ترى العين إلا غابات البلوط تغطى كل سهل وواد، وكأنها بسيقانها العارية المستقيمة ورؤوسها الخضراء كروم النخل فى مصر ، وهناك وطدوا العزم على أن يعيشوا فى أحضان أمهم الطبيعة ستة شهور كاملة أو يزيد .

* * *

سارت بنا السيارة ساعة إلى أحد هذه المعسكرات ، وكان اليوم من أيام الربيع وكل شيء يدعونا إلى حيث الأدغال والوديان والجداول النائمة التى لا يعكر صفوها معكر ، وأخذت وحدة برلين تتفكك أمام عيوننا حتى تلاشت ، وأخذت مظاهر العاصمة تضمحل رويداً رويداً حتى ابتلعتها القرى الهادئة التى كنا نخترقها واحدة إثر واحدة ونحن فى الطريق إلى معسكر العمل .

ثم انعطفت سيارتنا فى طريق ضيق ظللته أشجار الفاكهة وانحنت عليه بتفاحها وخوخها وكمثراها ، فملأت المكان بثمرها الناضج والمعطوب الذى لم ينتظر قاطفة .

ثم وقفت السيارة أمام المعسكر ، الذى يحرسه أحد أفراد هذه الفرقة بملابسه الصفراء العسكرية الذى يحمله على كتفه ، وبعد تحية عسكرية بهذا الجاروف علمنا أن المعسكر فارغ من أصحابه إذ هم يعملون على بضعة أميال من هذا المكان ولا يعودون إلا فى الساعة الثانية ظهراً استعداداً للغداء .

رجعت بنا السيارة من حيث أتينا وسارت بنا دقائق ثم وقفت لنسير فى حقول برية تغوص أقدامنا فى طينها حينًا وحينًا فى حشائشها ، المتوجة بالزهور البرية الصغيرة التى كثيراً ما ترى أهل برلين يحملون باقات منها فى أيام الأحد بعد يوم يقضونه فى صميم هذه الغابات .

وكان السير ولا شك مجهداً ، حتى وقف رفيقى الأستاذ المصرى عن التقدم وقد رأى أن حذاءه اللامع الذى أعده للسير على أرصفة شارع توانزين - لا للضرب فى هذه البرية المنقطعة - لم يعد يساعده على التجوال .

وما أن وصلنا إلى حيث الجدول الذى يحفره هؤلاء الشبان ، لم يجد توسلى سبيلاً عند صاحبى ، وحلف ألا يخطو خطوة بعد ذلك وليس لى أن أثقل عليه بالرجاء إذ لم يكن ممن يحبذون نشر العمل اليدوى بين الشباب المثقف ، ولكننى أرى غير هذا الرأى ، أرى أن العمل مظهر الحياة المتجددة ، واليد العاملة أقدر على الإنتاج إذا ما وجه صاحبها الوجهة المناسبة ؛ وحول هذا البحث قطعت مع صديقى الأستاذ الفاضل الوقت فى المناقشة والجدل حتى سئمنا الكلام .

وعلى حافة المجرى وقفت أشاهد عشرات من الشبان عارى الأجسام إلا من السراويل والأحذية الغليظة ، رأيتهم يخوضون فى الوحل حتى أفخاذهم رأيتهم يعملون بالفأس والجاروف كأنهم أبناء السخرة الذين حفروا قناة السويس ، ولكنهم ليسوا مسخرين مكرهين



شبان ألمانيا الجديدة فى معسكرات العمل

وما هم من أبناء القرى الذين يعيشون بأذرعهم لأجل بطونهم ، ولكنهم من أبناء الجامعات ومن حاملى لواء الثقافة وهم ما بين طالب فلسفة ولاهوت وأدب وفن وعلوم ، جمعتهم الأرض فى حجرها وضم شتاتهم الجاروف رمز الجهاد والعمل .

إن هذا الناشئ الذى كان منذ شهر مضى غارقًا بين الكتب والمراجع ، والذى كان أبعد ما يكون عن هذه الحياة الخشنة ، أصبح اليوم ينظر إلى حياته الماضية كأنها عهد طفولة تعوزه المعرفة وينقصه النضوج .

* * *

ثم تركنا أصحابنا فى وحدتهم يعملون ورجعنا إلى حيث المعسكر لنجوس أركانه قبل إياب أصحابه .

وأبنية المعسكر مشادة من الخشب ومن الأحجار الخفيفة ، هو مقسم إلى أقسام على شكل مربع يتوسطه فناء واسع نمت حشائشه وأينعت أزهارها البرية ، وفى وسطه ارتفعت سارية العلم .

بدأنا بمخازن المعسكر حيث ملابس هؤلاء المعسكرين وأرديتهم وما يحتاجون إليه من أدوات ومن أجهزة . وهى لا تتعدى الأحذية الضخمة والسراويل الصفراء والقمصان التى على شاكلتها .

وليس فى كل هذا من غريب ، لكن روح المتفرج الزائر لا تهدأ إلا

بنسج خيوط الغرابة حول ما يرى ، فلم يخلُ ركبنا من هؤلاء الذين يخرجون الصابون من صناديقه للتفرج عليه ، ولم يخلُ من الزائرة التى تلقى سيلاً من الأسئلة على مضيفنا بشأن ما رأت من أطباق وحلل مخزونة !

ثم زرنا بعد ذلك قاعة الطعام وهى قاعة المعسكر الرئيسية التى يجتمعون فيها للدرس والتسلية كما يجتمعون فيها للطعام ، وهى قاعة فسيحة من الخشب مدت فيها موائد خشبية عارية طويلة ، زينت جدرانها ببعض الصور الرسوم والتعليمات .

وما أن وصلنا إلى حيث هذه القاعة حتى كانت الأرجل قد كلّت والبطون قد خويت ، لا سيما وإننى قمت فى ذلك الصباح فزعًا فلم أتناول قدحًا من قهوة ولا لقمة من الطعام ، فهرعت إلى نافذة « الكانتين » واشتريت بعض ما يعرضونه للبيع على أبناء هذا المعسكر من زجاجات الليمون ، وقطع الشكولاتة والسجاير بأثمان بخسة كأنها لا شيء .

ولم نرد إلا أن نزور المطبخ حيث يعد طعام هؤلاء الشبان ، يعده إخوان لهم من العارفين ببعض أصول الطهى ، ثم زرنا المخبز ، وأجهزة الإضاءة والماء ، والحمامات وأماكن الغسيل ، ثم قاعات النوم بأسرّتها المصقولة كأنها عنابر النوم فى البواخر الكبيرة .

ثم انتقلنا إلى المعامل حيث يتلقن هؤلاء الشبان بحذق بعض الصناعات العامة كالحدادة والنجارة وغيرها مما يجعل الناشئ قادراً

على الاعتماد على يديه فى معالجة ما يكون فى حاجة إليه فى هذه الأمور .

وإذا ما جبت هذه الأقسام من المعسكر تشعر بنوع الحياة التى يعيشها هؤلاء الشبان والمهمة التى ترجى من ورائهم ، ثم تشعر فوق ذلك بأن هذه المعسكرات ليست خيام الشعر المنصوبة فى مهب الريح ، والتى يعيش اللاجئ إليها عيشة نكد وشظف ، إذا أكل لا يعرف كيف يغسل يديه وإذا جاع لا يعرف كيف يعد طعامه ، وإذا هبط الليل لا يعرف طريقه فى ضوء الشمع الخافت الذى تطفئه الريح مرة كل دقيقة !

عندما هبط علينا وحى « الكشافة » فى مصر كنت إذ ذاك فى الفرقة الأولى الثانوية ، وشاء الله أن ألتحق بفرقة الكشافة لأشترك فى معسكر لها تحت ظلال الهرم .

اللهم إننى لا أذكر تلك التجربة إلا وتسرى فى دمى رعشة من السخط ، حين أذكر كيف كنا نأكل « المكرونة » التى كانت كأنها فتائل من العجين ، و نشرب شاياً قد مزج برغوة الصابون ، ونمسح أيدينا فى الرمل لانقلاب صفيحة الماء على الأرض !

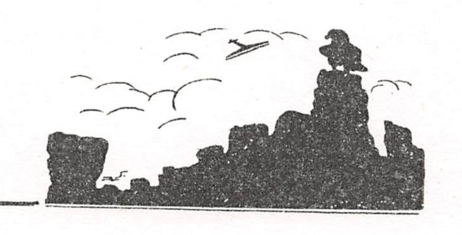
دارت هذه الخواطر وأنا أرشف زجاجة الليمون الباردة فى قاعة المعسكر البسيطة النظيفة ، واستمع إلى دقات الطبل البعيدة ، وإلى أصوات المنشدين وهى تقترب من المعسكر ، أصوات أولئك الفتيان بعد أن عملوا سبع ساعات كاملة فى الوحل والطين من الساعة السابعة

إلى الساعة الثانية بعد الظهر . وها هم الآن يؤبون إلى معسكرهم للاغتسال ثم للغذاء فى هذه القاعة البديعة ثم للنوم والراحة ؛ مَن الذى لا يقبل على العمل المضنى القاسى إذا وثق بما أعد له من راحة كما أعد فى هذا المعسكر ؟

ثم دوت الأناشيد فى فناء المعسكر ، ثم صُف هؤلاء الشبان صفوفًا يحملون جواريفهم على أكتافهم حتى إذا دوت الصفارة ذهبوا للاغتسال ، ثم كانوا بعد قليل فى قاعة الطعام يلتهمون ما قُدم إليهم من البطاطس المسلوقة والسجق وأقداح القهوة المصنوعة من الذرة .

ثم يقضى هؤلاء الشبان ساعة للراحة ، فإذا كانت الرابعة قضوا ساعة أخرى سباقًا ورياضة ، ثم أخرى يستمعون فيها بحثًا فى الوطنية أو التاريخ القومى أو سياسة الدولة ، ومن ثم يهرعون لإعداد ملابسهم ومسحها وتنظيفها . حتى إذا كانت السابعة هبطوا هذه القاعة للعشاء بعد أن يستمعوا لما يلقى عليهم من أوامر اليوم . وتنتهى هذه الواجبات فى الساعة الثامنة حيث تبدأ ساعات التسلية والسمر .

وهؤلاء الشبان يستيقظون فى الساعة الخامسة ، ولا تنقضى دقائق معدودة حتى يكونوا فى ساحة الرياضة ، ثم يذهبون للاغتسال ولإعداد أسرتهم . وفى الساعة السادسة يتناولون فطورهم الأول ثم يحيون العلم ويستمعون لواجبات ذلك اليوم ولكلمة السر ومن ثم يتركون المعسكر إلى حيث العمل فى الوحل والطين عندما تدق السابعة .



الثقافة الألمانية

لماذا يستفيد الشاب الألمانى الذى لم ينل إلا قسطًا متوسطًا من التعليم أكبر فائدة من كل بيئة يوجد فيها ، ويستطيع أن يكيف ظروفه الخاصة ولا يرضى أن يصير ضحيتها ذلك لأنه يتعلم تعليماً عملياً .

لقد استخدم الألمانى العلم وطبقه فى كل نوع من أنواع الحياة حتى فى حياة المساخر واللهو ، لقد تميز التعليم الألمانى بالنزعة العلمية والطفل لا يزال فى أعوامه الأولى ، لهذا نراها اصطبغت بتفكيره وبآماله وبرغباته وبسلوكه .

فالعلم فى نظرهم ضرورة وتسلية فى حد ذاته ، لأنهم يشعرون بما يمدهم من قوة ، وبالغنم الذى يجرونه منه كلما ازدادوا دراسةً وبحثًا ، فلا تكاد تقرأ مجلة أو تزور معرضًا أو تستعرض مخزنًا من مخازن البيع دون أن تجد شيئًا جديداً ، ابتكاراً مستحدثًا ، أعجوبة من الأعاجيب فى العالم .

ذلك كله لأن العلم ليس مقبوراً لديهم فيما نسميه الكتب المدرسية وليس هو بمقصور على المتعلم فى فصله ، بل إن الشباب الألمانى ليبحث عن العلم فى كل مكان .

ولقد يسروا طرقه ومهدوا سبله .

فهناك دور الكتب فى كل ركن من أركان المدينة العظيمة ، وفى كل قرية من قرى الريف ، وهناك المتاحف من كل نوع هذا للصناعة وتطوراتها ، وهذا للطب وذلك للمحاضرات، عدا المعارض التى تُقام فى فترات مختلفة لأغراض خاصة ؛ ثم هنالك السينما وقد استعملها الألمان استعمالاً علمياً رائعاً .

فتخصص دور السينما فى بعض الأحيان لعرض كثير من هذه الأبحاث الفنية أو لنشر فكرة تهذيبية فقد شاهدت فى برلين فيلماً خاصاً عن مجهودات المقاطعات الألمانية فى سبيل تعليم الصم والبكم ونوع العمل الذى يقوم به هؤلاء ، كل ذلك لكى لا يكون جمهورهم بعيداً عما



محاضرة فى كلية العلوم الطبعية

يدور فى معاهدهم ومدارسهم وجامعاتهم من أبحاث ودراسات .

وفى برلين مكتبات صغيرة أنيقة لا عدد لها ، لا تحوى إلا الجرائد السيارة والمجلات الدورية والكتب الحديثة ، ولا شك أن هذه تؤدى خدمة جدية عملية لتثقيف الجمهور ، الذى قد لا تيسر له حالتـه الاجـتماعية أو المادية الاطلاع على المؤلفات الحديثة .

دعى أصحـاب لنا لزيارة مـدرسة من مـدارس صـغار الأطفـال فى برلين ودخلوا فى الصباح الباكر إحدى هذه الفرق ، ولم تكن المعلمة قد اختارت بعد درسًا معينًا ، وإذا بطفل يفتتح اليوم فيعين اتجاه الدرس ، لا بإخراج كتاب خاص ، أو باقتراح إعادة درس معين بل بأن طلب من معلمته حل مشكلة عُرضت عليه ، وهو يشعر أن الفصل من مهامه فض كل إشكال يواجهه تلاميذه .

عرض الطفل مشكلته التى صادفته ذلك اليوم وملكت عليه تفكيره فلم يجد بدًا من عرضها على أفراد فصله وهم مجمع علمى فى نظره . أما هذه المشكلة فزهرة وجدها هذا الطفل فى أثناء مروره من البيت إلى المدرسة ، ولما كانت هذه الزهرة من نوع لا يعرف فصيلته ولا يعرف تاريخًا لحياتها - وهذا فى نظره جهل لا يحسن السكوت عليه - لم يرَ إلا عرض المسألة على أكاديميته العلمية وهكذا كان !

تصوروا رعاكم الله ! طفلاً فى الرابعة أو الخامسة من عمره ، يشعر بمسيس الحاجة إلى المعرفة ، طفلاً يميز فى تلك السن بين

الزهور ويبحث عن غريبها ونادرها ! ومن فينا ، ونحن قد درسنا النبات وشرحناه ، من يذكر أسماء أكثر من عشرة زهور أو أن يقدر على تمييز أكثر من هذا العدد !

لقصة هذا الطفل بقية !

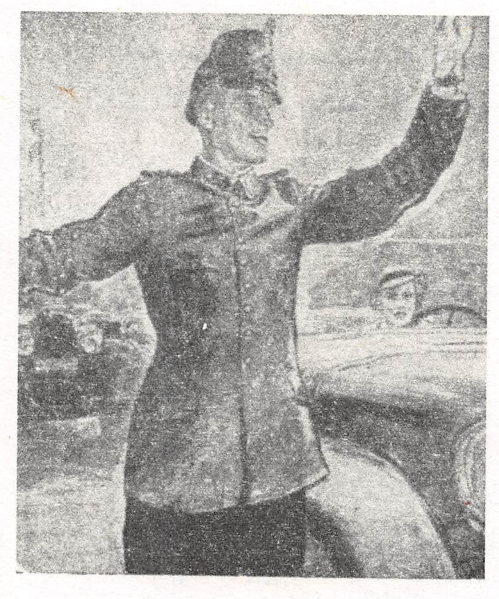
لقد قبلت معلمته عرض البحث على أطفال الفرقة فقبلوه ، وتركت لهم طريقة البحث ، فأخذ الأطفال يبحثون الساق ثم الأوراق ويعللون ويستقرون ، على أفضل ما يسير عليه بحث علمى معقد .

ثم لما ضاقت دائرة البحث والدراسة عمد كل طفل إلى مجهره فأخرجه ، ومجهره عدسة مكبرة ، تجعل لحب الاستطلاع والكشف عند الأطفال لذة خاصة فلما اكتفوا بما وصلوا إليه من حقائق ، أخذوا يدلون باقتراحاتهم ويدعمونها بما لديهم من براهين ، بعد أن أعملوا عيونهم وأصابعهم وآذانهم وأنوفهم وذاكرتهم ، نعم لقد وصلوا بأنفسهم إلى حقيقة ما كانوا يجهلون .

* * *

لقد تخلفت إلى معاهد التعليم فى برلين ، رأيت الرضيع الألمانى فى أرجوحته ، كما رأيت الشباب الألمانى فى معمله يبحث وينقب ويخترع ، لقد زرت حتى أولئك الذين حرمتهم الطبيعة من نعمة البصر أو السمع أو الكلام أو العقل ، لقد زرت مدارس البلهاء فرأيت هذه الصبغة التى تصطبغ بها التربية الألمانية ، الصبغة العملية .

ففى « بستالوتزى هاوس » وهو معهد معلمات الأطفال ، رأيت هؤلاء الفتيات يعملن تفكيرهن لابتكار أجهزة جديدة للتعليم ولاختراع لعب جديدة من لعب الأطفال ، حتى إذا جربن نجاحها على هؤلاء الصغار الذين يحويهم المعهد أرسلنها إلى نورنبرج وغيرها حيث معامل اللعب التى اشتهرت بها ألمانيا ، لصنع الآلاف منها ، لهذا نرى كيف أن المصنوعات الألمانية، حتى هذه التى لا يظن الرجل العادى أنها تحتاج إلى دراسة وبحث، قد صُنعت بأيادٍ عارفة ، وعلى أصول علمية صحيحة .



الشرطى الألمانى مثال للتربية العسكرية الألمانية

وهذا الميل للتجديد ، والنزعة إلى بث روح الجمال تشاهده فى كل معهد من معاهد التعليم فى برلين ، إنها لمتعة من المتع الغالية أن تزور روضة من رياض الأطفال فى العاصمة الألمانية ، لتشاهد أحدث ما وصل إليه عقل الفنان ابتكاراً وتجديداً ، وهذه الألوان الزاهية التى يفيض بها كل ركن من أركان المكان ، تجعل العلم تسلية ومتعة لا واجباً قاسياً سقيماً على نفوس الصغار .

* * *

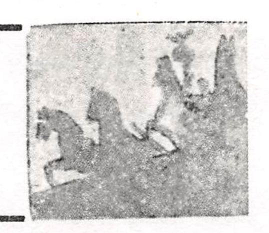
والنزعة العسكرية أقدم تقاليد التربية الألمانية ، فالألمانى قبل كل شىء جندى فى تربيته وثقافته وهو بطبيعته يميل إلى الجندية الخشنة ، حياة الطاعة والنظام .

وفى يوم كنا نزور مدرسة لضعاف العقول وما أن دخلت إحدى هذه الفرق حتى تقدم إلىّ المعلم مسلّماً وهو يضرب الأرض بحذائه ويعتدل ثم ينحنى محيياً تحية عسكرية ، كأننا فى معسكر لا فى مدرسة للأطفال . والفتاة الألمانية تميل بطبيعتها إلى هذه الرياضة العسكرية العنيفة ، تشعر بشىء من الأنفة المستملحة وهى تسير مرفوعة الرأس بخطوات منتظمة وقامة مستقيمة .

وإن هذه النزعة العسكرية التى تصطبغ بها الثقافة الألمانية ، هى التى جعلت الشعر الألمانى أروع ما يكون فى الأناشيد القومية الحماسية ، وهى التى جعلت الموسيقى الألمانية حية قوية تملأ النفس حماساً وشعوراً ووطنية .



يبعن الزهور لإعانة الفقراء فى الشتاء



قلعة برلين



ليست قلعة برلين ، وهى القصر الرسمى للإمبراطور ، بالبناء الذى إذا جزته يسترعى منك انتباهًا ويثير فيك استطلاعًا ، اللهم إلا لضخامته واتساع رحابه .

هنالك على جزيرة المتاحف حيث كتدرائية برلين ، وحيث عشرات المتاحف المتجاورة على ضفتىّ الاسبرى تستقبلك القلعة الملكية ، بجدرانها المرتفعة وبطباقها الأربعة ، ثم بنوافذها التى تبلغ ألفًا ! تمر عليها ولا تحس نحوها برغبة فى تفقد جوانبها لأنها ككل بناء حكومى لم يضع الفنان وقتًا فى زخرفة جدرانها وأبراجها الخارجية !

ولم أكن أحسن الظن بهذا القصر حتى زرته ، ولم أكن أظن أن وراء هذه الجدران المغبرة المعتمة ، وهذه النوافذ المتجاورة العديدة قاعات من المرمر ، وردهات من الرخام ، وتحفًا من الذهب .

تدخل إلى فناء القصر من إحدى البوابات الستة الضخمة فلا يسألك أحد ، حتى إذا توسطت المكان ، وجدت نفسك فى فناء واسع أجرد مرصوف بالحجارة الضخمة التى انبرت جوانبها حتى أضحى

السير عليها مجهداً شاقًا ، وتنقلت حولك فإذا بالجدران خالية جرداء ، إلا من صفوف النوافذ التى تدل على مئات الحجرات التى يحويها هذا القصر سبعمائة حجرة بالتمام والكمال !

وهذه المئات من الحجرات لست أدرى ما الذى تحويه وسيد القصر على سريره ؟ وهو لم يكن يستغل منها إلا عشراً أو بعضها ليس إلا ، أما اليوم وقد فتحت أبواب هذا القصر ، فزادت هذه الحجرات عن الحاجة ، فأصبح من القصر متحفًا ومعرضًا ، ومكاتب للدعاية وما إليها ، وبعد هذا ما زلت ترى مئات من هذا الغرفات فارغة خالية .

ثم تخترق البناء الأوسط ، إلى فناء القصر الثانى ، هو شبيه بسابقه وضعًا وفراغًا ومن أحد أبواب هذا الفناء تعتلى الدرجات ، إلى حيث الجناح الملكى فى القلعة ، وهو الذى كان مقر الملك إلى عهد غليوم الثانى آخر من سكن هذا القصر من أباطرة ألمانيا .

ولك أن تعتلى الدرج إلى حيث هذا الطابق ، أو أن تسير فى الطريق الحلزونى الدائر الذى أعد فى عصر مضى لعربات ترتقيه إلى الطابق الملكى ، أو للجياد التى تنتظر راكبيها على الأبواب ، أو لتلك المحفات الملكية التى كانت تنتقل عليها سيدات القصر حتى لا يعرف أحد الجالسة خلف ستائرها المسجاة المسدلة .

وعندما تقدم لك أخفاف اللباد الواسعة على عتبة أحد هذه الأبواب المغلقة تعرف بأنك على عتبة الحرم الملكى ، فأول ما يستقبلك هيكل دينى ، له من فنه وذوقه ما يجعل الزائر يقف بعض الوقت يتفقد جوانبه ويمعن

النظر إلى قبابه التى زخرفت بما يشبه أوراق النخيل المتدلية ؛ ثم إلى أبوابه الصغيرة الواطئة التى تُذكرك بأبواب الحمامات فى بيوتنا القديمة .



قلعة برلين الملكية

ولا شك أن بعض الصور التى تزين جدران هذا الهيكل مما يجذب نظر الزائر ، لا سيما الصورتين التى تمثل جدنا الأكبر « آدم » وزوجه «حواء» ، وقد انتحى المصور فى رسمها منحًى جديداً يلذ لمن يجد متعة فى الفن أن يقف أمامها بعض الوقت فاحصاً مدققاً.

ثم إلى الحجرة الدائرة التى كانت غرفة المطالعة لفريدريش الأكبر بعد أن تمر على مخدعه ، تذكرك بحجرة المكتبة فى قصر سانسوسى بثرياها الفرنسية وبجدرانها الخشبية المذهبة وبنقوشها وأزهارها ، ثم تقف بعض الوقت أمام صورة الراقصة بربارا ، بملابسها الفضفاضة الحريرية وهى تحمل دفًا فى بعض رقصاتها ، لست أدرى من هى بربارا ، ولكننى أشعر بأننى أعرفها من كثرة ما رأيت لها من صور ، كانت ولا شك غانية فاتنة فى عصرها شقت شهرتها طريقًا لها إلى هذه القصور الملكية ، فحظيت منها بكل ما ترجوه راقصة مثلها .

* * *

وإذا توسطت الحجرة الفسيحة المجاورة التى تحتل أحد أركان القصر الأربعة ، تشعر بأن الحياة ما زالت نابضة فى هذه الغرفة التى كانت مجلسًا لفرديدريش الأكبر ثم الملكة الياصبات من بعده ، وقد غطيت جدرانها بالحرير الأخضر وزينت بعشرات الصور المتجاورة ، وحفلت بكثير من المناضد والمقاعد والتماثيل وما إليها من أثاث كان يستعمله أرباب هذا القصر وكانوا يتناقلونه جيلاً بعد جيل .

ثم تنتقل إلى الغرفة المجاورة « حجرة الشاى » عندما كانت الياصبات سيدة هذا القصر ، وكان تعقد حول مائدتها كل مساء مجالس السمر يتوردها عظماء العصر دون تفرقة ، وليس لك إلا أن تتخيل هذا تخيلاً لأن هذه الغرفة قد أصبحت اليوم فارغة إلا من المقاعد ذات الظهور الواطئة التى صُفت حول جدرانها فلا تُشعر الزائر بدافع إلى التخلف إليها .



قاعة فى قلعة برلين

ثم الحجرة ذات الجدران المغطاة بالحرير الأحمر والتى كانت غرفة للطعام ثم استحالت غرفة للجلوس فى عهد الإمبراطور السابق ، والتى تمرق منها إلى قاعة النجوم ، أبهج قاعات هذا القصر ، قاعة من المرمر الأبيض الناصع ، الذى ينعكس عليه بريق الذهب الذى كسيت به أبواب القاعة ، ونقش السقف بدوائر من النجوم الذهبية التى تضيق كلما اقتربت من وسط السقف .

ومن هذه القاعة تخترق عدداً من الحجرات يوصل بعضها بعضًا كانت منذ عشرين سنة أو أقل الجناح الخاص بالإمبراطور السابق ، لهذا فقد نقل أكثر الأثاث الذى كان يشتمل عليه هذا الجناح إلى دورن فى هولندا حيث يقضى الإمبراطور السابق أيام منفاه .

وهذه الغرفات الملكية والردهات الواسعة إذا كانت خالية خاوية ، تصبح كأنها دهاليز المعابد تفيض على النفس روعة مصطبغة بشىء من الألم المجهول . وهذه الغرفات يرثها هؤلاء الملوك أبًا عن جد ، فإذا ما خلصت لهم راحوا يبدلون ويغيرون فى نظامها وأثاثها تبعًا لأذواقهم ، فحجرة الطعام تصبح غرفة للسمر ، وحجرة المطالعة غرفة للنوم ، كما يفعل صعاليك الناس بما يرثون عن آبائهم .

ولعل أروع ما يراه الزائر فى هذا الجناح غرفة المطالعة التى كان يشغلها غليوم الثانى إلى يومه الأخير فى برلين ، هذه الحجرة أصبح اسمها تاريخًا كما أصبحت قاعة المرايا فى قصر فرساى !

تشعر بالحياة تنبض فى هذه الحجرة بما فيها من أثاث ، ومن خزائن للكتب ، وهذه المنضدة التى تراها فى وسط الغرفة بمحبرتها الخشبية الضخمة قد تمر عليها دون إمعان أو تريث حتى تسمع بقصتها ، فترجع إليها من جديد محملقًا فاحصًا متعجبًا .

هذه المنضدة بما عليها من محبرة خشبية ضخمة هدية لغليوم الثانى من أحد تجار الأثاث فى لندن عند زيارته لها ، وعلى هذه المنضدة جلس غليوم نفسه فى الساعة الخامسة من مساء أول أغسطس سنة ١٩١٤ ودون إمضائه على ورقة كانت أمامه ، ليست كتلك العشرات من الأوراق التى كان يمهرها الإمبراطور ولكنها القرار الذى أعلن به الحرب ، التى كان نصيبه منها أن أخلى هذا القصر ونزح إلى بيت ريفى فى قرية نائية فى بلد أجنبى .

* * *

ثم تسير بعد ذلك فى عدد آخر من هذه الحجرات ليست أقل رواء ولا عظمة ، أبدعها قاعة الأعمدة ذات الأركان الثمانية ، التى كان ذوقها شائعًا فى يوم من الأيام ، ولكنك بعد أن رأيت ما رأيت يهبط حماسك وتبرد نزعتك إلى التطلع ، اللهم إلا إذا وقفت أمام تلك الصورة التى يخبرك الدليل بأن ثمنها مليون من الماركات ، والتى تمر عليها دون أن تستلفت منك نظرًا خاصًا .

ثم تزور بعد ذلك مكتبة القصر ، ومن هذه المئات من المجلدات التى

تقرأ أسماءها من خلف زجاج الخزائن تعرف نوع الثقافة التى كان متشبعًا بها الإمبراطور السابق ، تجد كثيرًا من الكتب الإنجليزية ، كتب السياحة ودراسة الشعوب ، كتبًا عن اليابان ونهضتها ، كتب الفنون الحربية ، هذا ما كان يشغل بال الإمبراطور غليوم الثانى .

وآخر ما تطرقه فى هذا الجناح قاعة المائدة ؛ التى أغلقت أبوابها ولا يسمح بدخولها إلا مع الدليل ، فإذا ما ولجتها وقد أضيئت أنوارها المنبعثة من أركان السقف وجدت مشهدًا فريدًا ، مشهدًا قَل أن تراه فى أى مكان ، تجد قاعة المائدة كما كان يجلس حولها الإمبراطور وقد صُفت عليها أطباق الفضة اللامعة وعشرات الكوبات البلورية ، وأطباق الزهور الحمراء القانية ، وحلو لك أن تتسمع ملاحظات الزائرات وهن يبدين إعجابًا أو دهشة أو يبدين رأيًا خاصًا بما حوته هذه القاعة من تحف فاخرة ، أو نظام خاص فى إعداد المائدة الإمبراطورية العتيدة .

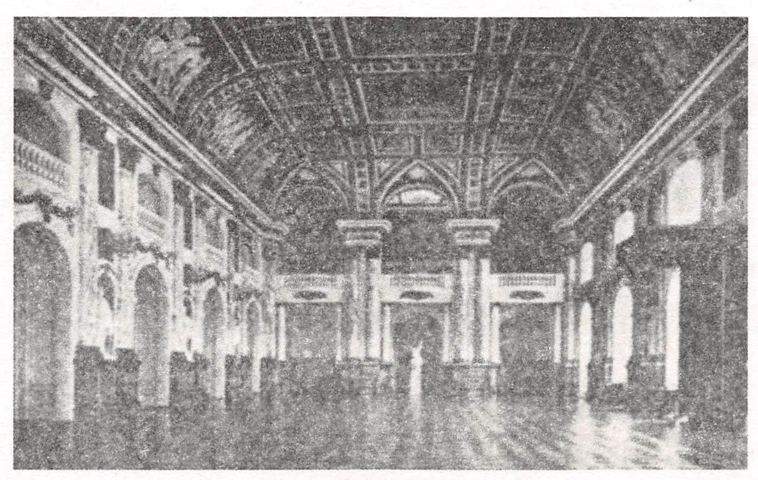
* * *

وإذا خرجت إلى الفناء الأوسط ثم إلى الفناء الكبير وأنت فى طريقك إلى البوابة الكبرى التى تطل على الاسبرى حيث تمثال فريدريش الهائل ، إذا كنت فى طريقك إلى هناك فإنك تمر على جناح آخر من القصر يفتح أبوابه للزائرين . هذا الجناح قد أصبح اليوم متحفًا للأثاث .

وماذا يصنعون بتلك الأكوام من المخلفات الملكية والإمبراطورية من مقاعد ومناضد وسرر وأطباق وتحف ، إلا أن تجمع وتنسق وترتب فى متحف ، فهى غير قابلة للبيع وغير قابلة للخزن إلى ما شاء الله .

والطابق السفلى من هذا المتحف معرض للأثاث الخشبى من مناضد وصناديق ودواليب ومقاعد ، كلها من خشب البلوط الجامد المعتم الذى تذكر الإنسان صلابته بالأبدية وبالفناء والعدم . وهذه المخلفات فى مجموعها مُقبضة ثقيلة على النفس .

ولكنك إذا اعتليت الدرج إلى الطابق العلوى ، كان أول ما يصادفك قاعة الرقص الكبيرة ، أفخر قاعة رأيتها فى قصر من قصور أوربا ، صالة هائلة من المرمر والرخام تطل عليها شرفات يتطلع من خلفها الجالسون على جموع الراقصين من الأمراء وعظماء الدولة وضباط الجيش والسفراء الأجانب بملابسهم الزاهية وأوسمتهم ونياشينهم ،



قاعة الرقص

والسيدات بملابسهن الفضفاضة الغالية ؛ كانت هذه القاعة فى يوم من الأيام أبهج مكان فى ألمانيا ، ولكنها اليوم أصبحت خالية ومع ذلك فلا تشعر فيها كما تشعر فى البيوت المهجورة من حزن أو رهبة .

ثم تترك هذه القاعة لتدخل عالمًا هائلاً من القاعات والردهات والغرف المتصلة المتجاورة ، وقد صفت فيها آلاف التحف ، تدخل تلك الغرفة التى كان نزلاؤها ضيوف برلين من الملوك، ثم تمر على الغرفة التى كانت مخدعًا لنابليون منذ نيف ومائة سنة ، ثم على تلك الغرفة التى وقف غليوم الثانى من شرفتها يحيي الجمهور بعد إعلان الحرب وينادى « لا أعرف اليوم أحزابًا بل شعبًا ألمانيًا واحدًا » .

وليس لكاتب أن يعدد ما يحويه قصر ملكى من تحف ، فهذا التراث الملكى الذى تراه فى قلعة برلين لا حد له ، تحف من كل مكان صنعتها كل يد ماهرة عارفة فى العالم ، وهدايا من الملوك من روسيا ومن فرنسا ومن النمسا ومن تركيا ومن مصر !

ثم تمر على خزائن الخزف الذى كان فى يوم من الأيام هوية ممتازة يتسابق إليها الملوك ، تعجب لهذه الأطباق والأكواب وما إليها من أدوات الطعام الخزفية المذهبة والمشجرة والتى إذا ألفيتها فى بيت من البيوت فإنك ترمى أصحابه بجمود الذوق وبلادته ، ولكنها فى قصور الملوك لها احترامها واعتبارها .

وفى القاعات التى جمعت فيها صفوف الساعات الصغيرة والكبيرة

المذهبة والمزخرفة ، تجد ملاحظًا هرمًا يستوضحك الكثير عن مصر ويقص عليك أنه زار مصر منذ نيف وثلاثين سنة بصحبة ولى العهد الألمانى ويسألك عن فندق سافوى وهل ما برح مكانه فى القاهرة.. ؟

وبعد أن تتوه وتدور ساعة طويلة وأنت لا تقف ولا تتريث أمام شيء معين ، تسترجع خطاك وتهبط الدرجات حيث ضفة الاسبرى وحيث تمثال فريدريش الهائل وأنت منهوك متعب ، قد فترت منه كل عزيمة وميل إلى التجوال فى القصور الملكية .



على درجات تمثال فريدريش

برلين في انتظار سيدانه

لقد كان الهياج في برلين عندما نشبت الحرب «بين ألمانيا وفرنسا» لا يمكن أن تصفه الكلمات ، فما كاد يبلغ بروسيا بأن بندتي قد أهان الإمبراطور حتى ثار كل قلب في ألمانيا ، وما أن وصلت أخبار إعلان الحرب حتى شعر كل بروسي بشيء من الراحة ، شعر بأن ذلكم النزاع الدائم بين ألمانيا وبين الإمبراطورية الفرنسية سيسوى في النهاية النزاع الذي طالما كان في طريق سعادة هذا الشعب .

ولم يكن هنالك من يشك في برلين ، بأن لويس نابليون قد كتب بيده وثيقة موته السياسي ، وأن فرنسا ستكون في الغد القريب تاريخًا ليس إلا ، وليس هنالك إلا الفرنسي المعتوه الذي كان يظن أن نداءه «إلى برلين» حقيقة يقبل العقل السليم تصديقها ، ومع ذلك فكانت الوجوه في برلين واجمة تشعر بثقل المسئولية التي أمامها .

ولكن الثقة التي كان يشعر بها الشعب جنده وقواده ، لم تجعل الشك يتطرق يومًا إلى نفسه أن النصر حليفه في النهاية ؛ ولقد كان حماسه حقيقيًا وظاهرًا ، لأن الدافع كان شريفًا فلم تكن الحرب للغزو بل كانت لحماية الوطن من أعدائه النازحين .

وفى مساء اليوم الثانى من إعلان الحرب ، رجع الملك من ايمز إلى برلين إعداداً للحملة، وكنت إذ ذاك أحد الذين رأوا جلالته فى الطريق إلى القصر عند بوابة براندنبرج ، ومنذ ذلك الوقت كنت أرى الإمبراطور وله مركز محافل فاخرة ، ولكن ذلك الموكب الأول موكب دخوله برلين استعداداً للحرب كان أبلغ هذه التذكارات أثراً فى نفسى .

ولقد كان باريزر بلاتس خير ميدان لمثل هذا الاحتفال يموج ببحر من الرؤوس الإنسانية ، فما كادت العربة الملكية المعروفة تعبر البوابة الأثرية ، كما كاد هذا الشعب المائج يلمح شبح الإمبراطور الهادئ الرزين حتى علا الهتاف إلى السماء كأنه الرعد ، هتاف لم يسمعه الإمبراطور نفسه من قبل، وفى المساء كان القصر الملكى قلب برلين الخافق وذلك عندما وفد بسمارك ومولتكه ورون للاشتراك فى المجلس العسكرى ، ولقد كان تمثال فردريك الأكبر أمام بوابة القصر مزدحماً بالناس، حتى إننى لم أذكر حين رأيته إلا أنه خلية نحل، ولقد كان الهتاف الذى يرسله الشعب الهائج أمام القصر تحية لهؤلاء الوافدين مثيراً لأعصاب الذين اجتمعوا وراء جدرانه يدرسون ويتباحثون ، ولكن لم تكن هنالك وسيلة لإسكات هذا الفيضان من الناس . وبعد أن انتصف الليل ما كنت ترى إلا هذه الأفواج الغفيرة تروح وتغدو فى شارع اللندن تتنسم أخبار الحرب القادمة .

وكان من المناظر التى كثيراً ما كنت أراها أيام الحرب الأولى فصائل الخيل المحملة وهى فى طريقها إلى ميادين القتال ، ولم يكن

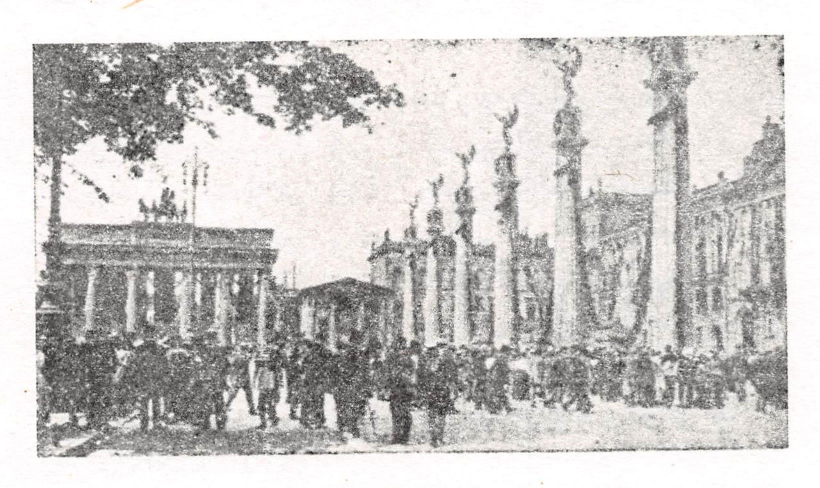
هنالك من منظر يثير نفورى من الحرب أشد من رؤية هذه الكائنات البكماء وهى فى طريقها إلى المجزرة التى تنتظرها ، ولا عجب فكانوا يطلقون عليها «طعام المدافع » ولم تكن مناظر الوداع بين الآباء والأبناء إلا مثيرة للحزن والألم .

ولقد كان انتصار فرس مثيراً للحماس والابتهاج فى برلين إذ كان أول موقعة حربية هامة ولأن ولى العهد كان بطلها المنتصر ، ثم جاءت موقعة سيدان والقبض على لويس نابليون فأثارت ما كان يحمله الشعب من حماس ومن حب ومن شعور بالذات ، لقد بلغ الحماس أشده ، وكنت ترى كأن برلين الرزينة قد أصيبت بحمى هزت أركانها .

ولطالما رأيت برلين فى مواقف عديدة مبتهجة مرحة ، ولكن يوم سيدان كان فوق الأيام ، لقد كان اليوم الذى خلعت فيه برلين الحيية عذارها وارتمت فى أحضان ثورة نفسية لا تكبح جماحها ، وكان كل مكان فى برلين مسرحاً لهذه المحافل ، وكانت نغمات الموسيقى وأصوات الغناء والهتاف فى كل مكان ، حتى حدائق التيرجارتن التى عُرفت بسكوتها وهدوئها ما كانت لتبقى فى خلوتها ذلك اليوم ، بل غزتها مواكب المبتهجين المغنيين . لقد كان جميع أهل برلين فى ذلك اليوم فى لوثة جنون ، لقد وقف دولاب الأعمال فى المدينة ، ولم يكن إلا المرح والفرح فى كل ركن من أركانها .

وهرعت الجموع إلى القصر الملكى لتحية الملكة أوجينا ، حيث كانت

تطل عليه من شرفة القصر وترفرف عليه بمنديلها ، وكانت مجهدة متعبة حتى أنقذها المساء ؛ إذ لم يكد من موكب يختفي حتى يفد آخر لا يقل ولاءً ولا حماساً عن سابقه .



برلين يوم انتصار سيدان

ولم تكن برلين تعرف ظلمة الليل ذلك المساء ، فقد كانت النوافذ مضاءة بآلاف الشموع والقناديل، وكانت الشوارع مزدانة بكل وسائل الإضاءة ، وكان الشعب ثائراً لا يعبأ بتقاليد أو مجاملة، يضحك ويصرخ كالمحموم ، وكانت هذه الزينات متكررة متوالية إبان أيام الحرب حتى مجها الناس بعد قليل وصارت لا تثير عناية .

وفى كل شارع كنت تجد أعمدة الإعلانات مزدحمة بالقارئين إذا ما ألصق عليها خبر جديد عن سير القتال .

وكان الصبية الذين يشتغلون ببيع النشرات البرقية عن أخبار الحرب من الشخصيات البارزة فى تلك الأيام ؛ وكان عملهم ناجحًا مربحًا .

ومن المناظر الشائعة أن ترى جموع هؤلاء الصبيان وهم يخرجون من دور الطباعة وتحت آباطهم رزم من هذه النشرات يتسابقون فى الطريق موزعين نشراتهم ركوضًا موقنين بأن السوق للسابق ، وكثيرًا ما ترى المتقدم منهم ينظر من حين لحين إلى الوراء يقيس بعينه المسافة بينه وبين رفيقه . وكثيرًا ما كان هؤلاء الصبيان يثيرون حماس الجماهير بهتافاتهم المكذوبة الجذابة فيبيعون آلاف النشرات معلنين سقوط متز قبل سقوطها متز بشهور ، ولكن البوليس وقد تنبه إلى ألاعيب هؤلاء الصبية أنفذ على رؤوسهم حكم السجن إذا ما لجوا فى نشر هذه الأخبار المكذوبة .

ومن المناظر الأخاذة رؤية صفوف مدافع المترليوز فى حدائق التيرجارتن وأمام القصر القديم وهى التى استولى عليها من ميدان القتال، ولا شك أن هذه المدافع الفرنسية كانت بديعة المنظر ، ولكنها ما كانت لتولد الثقة بالنصر فى نفوس ملاكها الأول . ولما كان الألمانيون فى غنية عن هذه المخلفات ، أمر الإمبراطور بتكسيرها ثم إذابتها من جديد ، ومن معادن هذه المدافع أقيم تمثال النصر العظيم فى كونجز بلاتز .

ولقد عومل الضباط الفرنسيون وجنودهم الذين وقعوا أسرى فى يد أعدائهم خير معاملة ، عوملوا فوق ما يستحقون إذا ما قورنوا بأولئك الأسرى الألمان الذين قتلوا أشنع قتلة على أرض فرنسا ، وكثير من هؤلاء الضباط ممن سرحوا بعد أن حلفوا ميثاق الحياد .

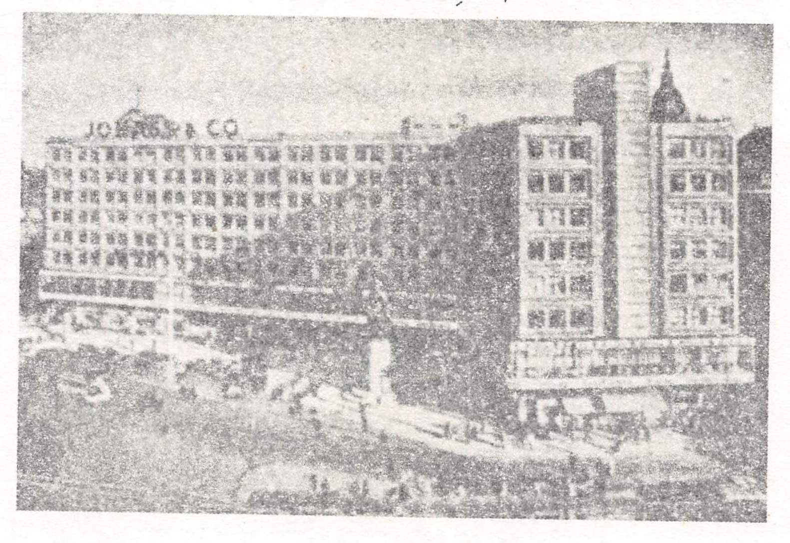
كان الكثير من هؤلاء الضباط يضربون بيمينهم عرض الحائط ويرجعون إلى ميدان القتال يحاربون من منحوهم نعمة الحياة من قبل .

وكثيراً ما أبدى هؤلاء الأسرى من الفرنسيين امتعاضاً من خبز الشوفان الأسمر ، ولم يكن للحكومة الألمانية أن تعير هذه الشكوى عناية إذ ليس من الجائز أن تمنح أسراها خبزاً خيراً مما يأكله جنودها أما اتهام الفرنسيين للجنود الألمان بأنهم كانوا يختلسون كل ما يقع تحت أيديهم فإنه ولا ريب اتهام مكذوب من أمة استحلت لنفسها كل ما وجدته فى متاحف أوربا إبان حروب نابليون ، فكل ما أخذه بلوخر من باريس هو تمثال عربة النصر الذى استقر على برج براندنبرج . مما يدل على روح القناعة عند هذه الجيوش المنتصرة .

* * *

ولقد كان استعداد برلين لاستقبال مليكها وجنودها المنتصرة فوق كل وصف ، استعدادات سبقت ذلك اليوم ببضع شهور . واحتفالاً بهذا اليوم أقيم تمثالان هائلان أحدهما يمثل بروسيا والآخر يمثل برلين ، وضع الأول عند بوابة بوتسدام والآخر فى ميدان بل اليانز .

وحدث مرة أن كنت فى طريقى عند هذا الميدان قبيل يوم الاحتفال بيومين اثنين ، وكان العمال فى ذلك الوقت يرفعون رأس هذا التمثال الهائل بالحبال حيث مقره على كتف الإله ، وبينما كان الرأس فى منتصف الطريق حانت منى التفاته إلى رجل بجانبى كان يثب هنا وهناك كأنه مجنون ، وفى لحظة رأيت هذا الرأس الحجرى يهوى إلى الأرض متكسراً إلى ثلاث قطع وكان صاحبنا الهائج محقًا فى ثورته لأنه كان صانع التمثال ، وقد سحقت آماله قبيل اليوم العظيم ! وليس له أن يترك هذا التمثال الذى يمثل ألمانيا بلا رأس فيصبح علامة نحس لا علامة نصر، ولكن ذلك لم يثنِ من همة الفنان فقد أصلح ما تكسر من



ألكسندر بلاتس وتمثال برولينا

هذا الرأس ورفعه مكانه استعداداً لليوم المشهود ، وعندما انتهت أعلام الزينة كنت ترى أميالاً من الشرفات المزينة البديعة وصفًا مزدوجًا من المدافع الفرنسية ، وكان من حسن الجد أن وجدت مقعداً فى شرفة أحد البيوت التى تطل على ميدان باريز وهو الذى اختير مركزًا لهذا الاستعراض ، وكان هذا الميدان العظيم أشبه شىء بمسرح هائل لم يُترك فيه من مكان إلا طريق ضيق فى وسطه للعربات .

وكانت سقوف هذا الميدان مكتظة بالنظارة ؛ ولم يسلم قوس براندنبرج من أولئك الذين تسلقوا قمته وجلسوا ينتظرون الموكب .

لقد كان هذا من المناظر التى لا يراها الإنسان إلا مرة واحدة فى حياته مرة واحدة لا يزول بعدها ولا يمحى من ذاكرته . وأى كلمات تصف هذا الشعور وهذا الإحساس الذى يتجلى فى هذا الطوفان من الناس ، وأى كلمات تصف الإمبراطور الشيخ وهو على رأس جيشه ظافراً وأى كلمات تصف بسمارك الهائل فى جسمه وفى نظراته وتفكيره ، وأيها تصف مولتكه الحاذق فى فنون الحرب الهادئ فى مظهره ! لقد كان طبيعيًا أن نجلس حيث كنا ساعات طويلة قبل وقت الموكب تحت أشعة الشمس المحرقة فى ذلك اليوم ، حتى حدا بكثيرين إلى دفع ريالاً كاملاً ثمنًا لكوب من الماء ، وكنت ولا ريب سأحذو حذوهم وأدلج فى هذا الإسراف لولا أن الماء قد نفد .

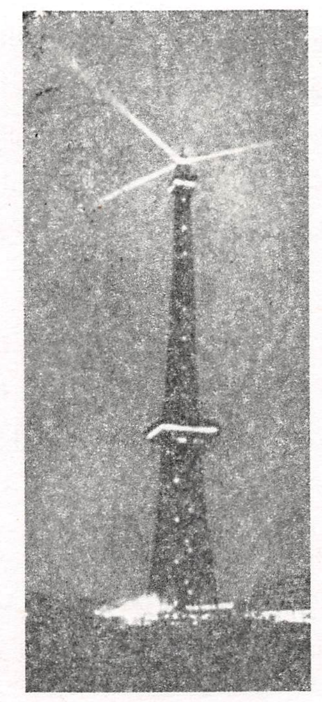
وأثار هذا اليوم الصائف أعصاب النظارة ، فحدث أن سيدة كانت

تجلس أمامى ترفع مظلتها اتقاء حرارة اليوم فلم يرق ذلك لسيدة أخرى كانت واقفة خلفى مع أنه لم يكن هنالك من شىء تخفيه هذه المظلة، ولكن هكذا كانت أعصاب صاحبتنا مهتاجة مضطربة أفضت بها إلى تبادل الألفاظ ثم تبادل الضربات كل منهما بمظلتها ، ولولا أننى كنت فى ساحة النزال لاستمتعت كما استمتع غيرى بهذا المنظر ، ولكن خبطة طائشة أطارت قبعتى عن رأسى ، تبعتها بأخرى على ذراعى عندما حاولت التوسط فى حل الخلاف .

* * *

ثم بدت طلائع الموكب ، موكب من الملوك والأمراء والقواد والفرسان ؛ حتى إذا ما اجتازوا قوس براندنبرج وقفت جموعهم فى وسط الميدان أمام موكب من الفتيات ارتدين الملابس الألمانية القديمة ، تقدمت منهن واحدة – هى ابنة المثال – وألقت خطاباً على الإمبراطور الذى كان فى أثناء إلقائها يقظًا منتبهًا ، حتى إذا ما انتهت أجاب عليها شاكرًا .

هكذا انتهى اليوم العظيم يوم سيدان ، ثم أخذت برلين تستعيد حياتها القديمة ، وأخذ السلام والهدوء يخيم عليها بعد أيام طويلة فى جهاد ونزاع وأعصاب متوترة ونفوس قلقة .



معرض الراديو

أسبوع وبعض أسبوع وفنادق برلين ومطاعم برلين ليس بها موضع لقدم زائر ، ولأول مرة أقرأ على أبواب الفنادق كما نرى على مداخل المسارح ، أن ليس بالنزل أمكنة خالية ..! لقد كان ذلك فى الأسبوع الذى افتتح فيه معرض الراديو والتليفزيون ، ومعرض الراديو حدث هام من أحداث برلين فى كل عام ، يفتتح أبوابه فى النصف من شهر أغسطس على أرض المعرض فى كيزردام حيث تقام معارض برلين الدورية .

وهذا المعرض دون سواه يمثل العقلية الألمانية ، وهذه الجموع الحاشدة التى تجمعت فى برلين من كل مكان فى ألمانيا تمثل اتجاه تفكير هذا الشعب ، وميله إلى الاكتشاف والاختراع وإلى كل ما يمت إلى العلم وإلى الفنون الآلية الدقيقة .

أليست الكهرباء أعجوبة العلم الحديث ؟ ثم أليس الراديو أعجوبة الكهرباء ؟ ثم أليس التليفزيون أعجوبة الراديو؟ وبعد أليس من الطبيعى أن يصبح هذا المعرض مركز الرحى فى برلين ، وأن يجذب الآلاف من الزائرين الذين يتتبعون تطورات العلم ومبتكرات العلم بشوق ورغبة صحيحة ! نعم هكذا كان هؤلاء الزائرون الذين جاءوا للاستقصاء لا للمتعة الحالية .

دخلنا الردهة الأولى ثم القاعة الكبرى ، قاعة كأنها خصصت للسباق أو للعب الكرة ، وماذا تنتظر أن ترى فى معرض للراديو إلا أجهزة الراديو ؟ أجهزة لا عداد لها ، عشرات مئات ، آلاف منها من كل حجم وشكل .

وقفنا على عتبة القاعة الكبرى وألقينا نظرة سريعة على هذه الآلاف من الأجهزة فشعرنا كأننا اكتفينا ، وأن نفوسنا ارتوت من هذا المنظر السريع ، كما نشعر بالشبع إذا قدم إلينا الأكل فى أطباق واسعة ممتلئة !

سرعان ما غمرنا السأم ، إذ أية رغبة ملحة فى نفوسنا ، نحن الذين لم نلقن من العلم إلا أجفه وأثقله وما لنا بمتابعة خطوات البحث والابتكار ونحن لا نعرف منه إلا الفضلات التى ترمى لنا بها أوربا !

وليس هنالك أقل من المغالطة والكذب على النفس ، إذ لا بد من جولة بين الأقسام وبين هذه الآلاف من الأجهزة ، حدا بنا إلى ذلك ميل حقيقى أو رغبة مصطنعة وقتية .

وعلى هذا النسق أخذنا نطوف أقسام القاعة الكبرى ونقف أمام كل شركة من شركات الراديو الألمانية نستمع لما يلقيه الملاحظون الفنيون من محاضرات علمية عن تطور أجهزة هذه الشركة أو تلك معدداً الفروق ونواحى التقدم .

لقد أصبح السباق العلمى فى عالم الراديو سريعاً وأصبح كل عام جديد يهل بألوان جديدة ومبتكرات مستحدثة ، وأصبح « موديل » العام القديم لا يصلح للبيع والشراء إذا نسخه ما يليه .

لقد جمعنا عشرات النشرات المصورة من كل مكان وقفنا أمامه ، مؤملين أن نجد من الوقت فسحة ومن الصبر مجالاً لنراجع ونفاضل بين محتويات هذه الكتيبات يوماً من الأيام ، ولكن هذا اليوم لم يحل وقد مضى على معرض الراديو أسابيع وشهور .

ولعل بعض العارضين يعرفون هذه الحقيقة إذ قدم إعلاناً عن بضاعته ، حقيبة من الورق ليجمع فيها الزائرون هذه النشرات ، الزائرون الذين يجمعون هذه الأوراق لغرض الجمع ليس إلا .

* * *

كل هذا لا شىء بالنسبة إلى معرض التليفزيون وهو أعجوبة هذا المعرض لسنة ١٩٣٦ . ولا ريب أن قراء هذا الكتاب بعد سنين ثلاث أو أربع من ظهوره ، سوف يبسمون سخرية وتهكماً على هذا العجب وهذه الدهشة ، حين لا حاجة بهم إلى أن يذهبوا إلى معرض برلين لرؤية

أجهزة التليفزيون بينما هى فى قعر بيوتهم .

لعل ظلام هذه القاعة الواسعة التى عرضت فيها أجهزة التليفزيون ومنع فيها التدخين ، لعل هذا الظلام أثار رغبة الآلاف الذين فى قاعة الراديو فأخذوا يتدفقون إليها ، حتى لم نعد نسير فى هذا الظلام إلا على أحذية السائرين .



هتلر يفتتح معرض الراديو

وعلى يسار الداخل عرضت شركة تلفونكن الألمانية الكبيرة عملية التليفزيون ، أو نقل الصور باللاسلكى ، فهناك فى صدر المكان غرفة الاستديو ، وقد أعدت بأضواء قوية خاطفة يقف عليها من تنقل صورته ؛ وفى طرف القاعة أسدلت ستارة كبيرة عرضت عليها مناظر ذلك الواقف

فى الاستوديو ، وقد سمح فيه لمن أراد من الزائرين أن يجرب نقل صورته على موجات الأثير كما يقولون .

ثم أخذنا نستعرض أجهزة التليفزيون التى عرضتها جميع مصانع الراديو فى ألمانيا بلا استثناء ، عرضتها للبيع أمام الجمهور وعليها أثمانها وقد بلغت بضع مئات من الجنيهات ، وهذه وحدها كافية لجعل شرائها وتداولها مستحيلاً .

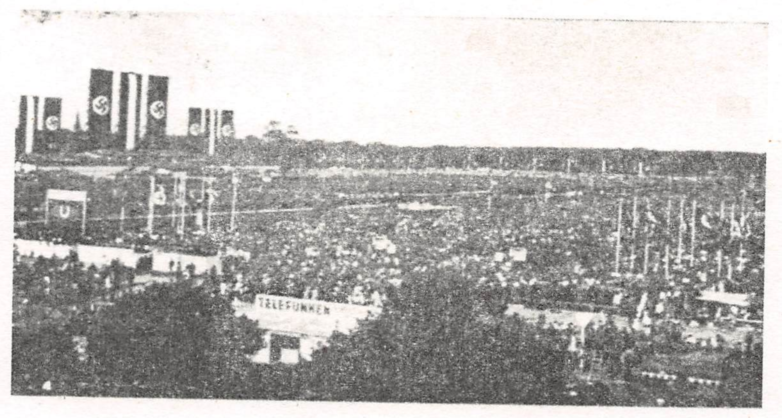
وأخذنا نستمع لنشرة الأخبار ونشاهد بأعيننا على اللوحات الزجاجية الصغيرة الملصقة بكل جهاز صور السباق الذى يتحدث عنه المذياع ، فتذكرنا أية متعة سوف تفيض بها بيوتنا عندما تنتشر هذه الأجهزة ونسمع ونرى حوادث العالم وفرق الموسيقى والمسارح ونحن قعود فى مجالسنا المنزلية !

ثم سرنا إلى حيث قاعات الإذاعة ، فى «جناح آخر من المعرض ، وفى كل قاعة فرقة كاملة أو مغنٍ ينشد ألحانه تنقلها هذه المذياعات القوية إلى جميع أنحاء الأرض ، تذكرت حينذاك مكانى فى القاهرة إذا ما جاءت السابعة مساءً لأستمع إلى برلين ، إلى هذا المكان ، إلى هذه القاعة التى أسير الساعة بين أركانها . .

وفى قاعة من هذه شاهدت أولئك الذين يتقدمون لتجريب حناجرهم أمام البوق ، ورأيت الرجل يتصبب جبينه عرقًا وهو يعتلى الدرجات الخشبية حيث يقف أمام بوق الإذاعة فكأنه كان يعتلى درجات المقصلة ، ويتلعثم ويبتلع ريقه كأنه تحت منصة القضاء ، فليس أرهب من أن نقف

أمام هذا البوق وفى الحجرة الخالية الساكنة لنتحدث ، ونحن على ثقة بأن هنالك ملايين من الآذان المختفية وراء الجدران وفى كل مكان !

لقد تذكرت حينئذ أستاذتنا العجوز مس مرى فى كلية لندن الجامعة حين طُلب منها أن تلقى كلمة عن الحضارة المصرية القديمة لا تستغرق عشر دقائق ، وكان ذلك منذ ثمان سنين والإذاعة اللاسلكية فى طفولتها ، أذكرها حين جاءت إلينا تصف شعورها فى حجرة الإذاعة الخالية وقد غم الأمر عليها ؛ وهى التى تحاضر الساعات الطويلة فى أعرق جامعات العالم ، والتى ما زال يرن صوتها فى أذنى كلما عرض اسمها علىّ . .



الآلاف تزور معرض الراديو

ولم أرد إلا أن أسجل زيارتى على قرص من أقراص (الفونغراف) بدفع نصف مارك ، وحين أعطى ملاحظى الإشارة بالبدء فلم أدرِ ماذا أقول ولم أدرِ ماذا أسجل على نفسى من الكلام . ودار القرص دورات قبل أن يفتح الله علىّ بكلمة ، حتى تذكرت ما يقوله الإنجليز حين لا يريدون القول ، تذكرت حينذاك أخبار الجو من برد ومطر وانثنيت إلى الكلام على ازدحام المعرض وغيره من لغو الكلام . ومرت بعد ذلك شهور قبل أن أسمع صوتى المتهدج الباكى الذى كأنما يشكو ألمًا وضعفًا عميقًا فى أنحاء النفس ، يالها من صورة صوتية مزرية ولكنها صورة لا كذب فيها ، ولو شكونا المرايا ومسجلات الصوت .

* * *

وبعد ذلك بأيام وكنت منزويًا فى ركن ذلك المقهى الذى كنت أرتاده أمام محطة انهالتر ، وإذا بأصوات باعة الصحف ترن على غير ما عهدنا بها وإذا بحركة من جالسى المقهى.. لقد احترق معرض الراديو. ومن بعيد ، ومن كل ركن من أركان المدينة العظيمة كنت ترى اللهب الأحمر المتصاعد من برجه الشامخ ومن قاعاته التى كنا زائريها منذ أمس الأول ، فشعرت بمثل شعور ذلك الذى ينكب فى صديق يألفه .

وأخذنا بعد أيام نذكر ما رأينا فى معرض الراديو وأسأل رفيقى البك الوجيه عن أبدع ما شاهده فى هذا المعرض ، ورفيقى الوجيه ممن عرفناهم صراحةً وصدقًا .

« إذا أردت الحق كان أبدع ما شاهدته فى معرض الراديو ليست أجهزته ولا آلاته بل مجموعة من آنية الطبخ تطهى الطعام فى دقائق خمس ، فقد رأيت الطاهى يضع البطاطس واللحم النىء ، ووقفت مع من وقف هذه الدقائق الخمس ، حتى إذا ما انتهت أخذ الطاهى يوزع علينا قطع البطاطس واللحم فوجدته ناضجًا طيبًا . . ولولا تعليق المستقبلين إذا ما رجعت بهذه الآنية إلى مصر ، لكنت اشتريت منها عددًا من كل حجم! ..»

هذا رأى رفيقنا الوجيه المصرى عن أبدع ما رآه فى معرض الراديو والتليفزيون فى برلين . . .



ليلة إعلان الحرب

إن شعور برلين اليوم أقل بهجة ، فالحوادث تتعاظم أمام عينها ؛ لقد أعلنت روسيا التجنيد العام، فذلك التردد قد أصبح الآن حنقًا وغضبًا ضد النمسا .

وأكثر أولئك فزعًا كان الإمبراطور ، وفى ذلك المساء عقد المجلس الإمبراطورى فى بوتسدام ، وجلس الوزراء والقواد حول منضدة واحدة ، وقر القرار على التجنيد العام بعد أن خطت روسيا هذه الخطوة ، بيد أن هذا القرار لم يعلن للجمهور .

وفى الظهر أرسل « مصدر مجهول » إلى جريدة اللوكال انتزيجر فى برلين قرار التجنيد العام ، الذى لم يمهر بعد بإمضاء الإمبراطور ، وفى الساعة الواحدة وزعت فى برلين مائة ألف نسخة من هذا العدد .

وسرعان ما أبرق رجال السلك السياسى هذا الخبر إلى بلادهم .

وفى ٣١ يوليو أعلن فى برلين أن الوطن فى خطر من الحرب ، هذا ما ابتكره رجال المجلس الحربى ليتمكنوا من التجنيد قبل إعلان التجنيد إذا ما وقعت الحرب ، وكان إعجابهم بموقف ڤينا عظيمًا ، التى كانت

هى لا برلين فى نزاع مع روسيا ، وكان من المعقول أن تتنحى عن الدخول فى الميدان ، إلا أن رجال الحرب كانوا يدفعونها بالسياط .

وفى هذا اليوم - الحادى والثلاثين من شهر يوليه ، قبل أن يسلم الإنذار إلى روسيا ، ألقى الإمبراطور خطابه الحربى الأول من شرفة القصر الملكى فى برلين ، الخطاب الذى ردد فيه كلمات السيف ، والله والأعداء .

أما قرار إعلان الحرب فقد كانت الصعوبة الأولى فى صوغ عبارته لقد كتبت منه صورتان استعداداً لكل الظروف (واحدة منها إلى فرنسا



عندما أعلنت الحرب فى برلين

تستبق الحوادث) وكان تغييراً وكان تبديلاً رجع فيها السياسيون إلى القاموس الفرنسى الذى كتبت بلغته هذه البيانات .

وفى الساعة الثانية من ذلك اليوم وصلت رسالة برقية من قيصر روسيا يقول فيها «لا شك أنكم قد اضطررتم إلى إعلان التجنيد ، بيد أننى أرجو أن أكون متيقناً من أن هذه الخطوة لا تقصدون بها الحرب . . .»

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر كانت العربات تنحدر فى شارع «أونتردنلندن» من القصر الملكى ؛ وقد ازدحمت بالضباط الذين كانوا يرفرفون بمناديلهم ويصيحون «التجنيد، التجنيد» وأخذت الجماهير السائرة تهتف وتتجمع .

وفى القصر الملكى وحده ، فى الجناح الإمبراطورى كان النظام سائداً كأنه لم يحدث شيء ، وبعد الساعة الخامسة بقليل أرسل الإمبراطور شرطياً إلى بوابة القصر حيث تجمعت الجماهير معلناً أن قرار التجنيد قد تم ، وأخذت الجماهير تنشد « والآن دعونا نشكر »

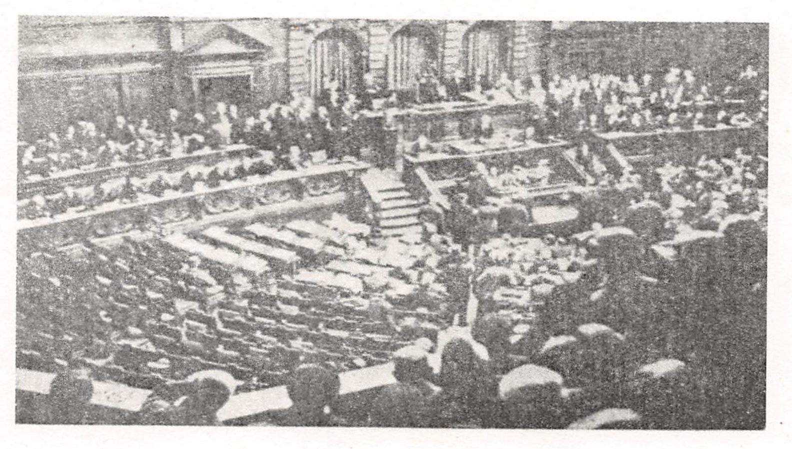
لم ترسل برلين إعلان الحرب إلى روسيا باللغة الفرنسية فقط ، بل إنها أرسلت أكثر من صورة واحدة من هذا الإنذار ولم يكن للسفير الألمانى فى بطرسبرج إلا أن يحمل الرسالتين فى جيبه إلى الحكومة الروسية .

وعندما فتح الوزير الروسى هذه الرسالة قرأ ما يأتى « لما كانت

روسيا قد رفضت الإجابة على مطالبنا ، وقد بينت برفضها هذا أن عملها موجه ضد ألمانيا ، لى عظيم الشرف بالنيابة عن حكومتى أن أبلغ سعادتكم ما يلى « إن صاحب الجلالة الإمبراطور ، مليكى العظيم ، قد قبل هذا التحدى باسم الإمبراطورية » . . .

وفى مساء أغسطس سنة ١٩١٤ تجمعت عشرات الألوف من أهل برلين وساروا فى موكب عظيم إلى القصر آملين أن يروا الإمبراطور الذى أطل عليهم من شرفة القصر ونادى بهم .

« إننى لا أعرف الآن أحزاباً ، بل أعرف شعباً ألمانياً واحداً »



اجتماع تاريخى فى الرشستاغ

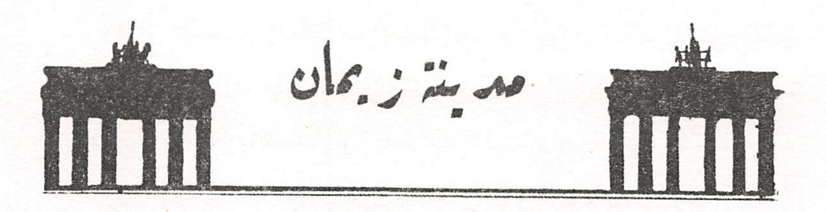
وكـان القـصـر الملكى مـركـز الرحى فى برلين ، ذلك الشىء الذى كانت تنقصه ڤينا . فكان الأمراء يخترقون شوارع العاصمة بعرباتهم ووجوههم طافحة بالابتسام ، نعم لقد كانت برلين كـأنها تحتفل بيوم نصـر . ولم يكن إلا الإمـبـراطور وحـده الذى كـان يحـمل وجـهًـا جـادًا عبوسًا .

وكانت برلين فى قبضة رجـال الحرب، عندمـا احتج أحـد الوزراء على غزو بلجيكا . صـاحـوا به ، أن الكلمة اليـوم لرجـال الحـرب وليس هنالك من يناهضها . ولم يعد السياسى قادرًا على توجيه أمور الدولة ، بل كانت إرادة الضباط هى الصوت الأعلى فى برلين .

وفى ذلك المسـاء عندمـا التـأم الرشـسـتـا غ وقف المسـتـشـار يشـرح أسباب النزاع ، وكيف غزت بلاده بلجيكا متناسيًا ما أراد من حقائق مدللاً بما شاء من الحجج .

وقد كانت نغمة مقبولة ، ضج لها الرشـسـتـا غ تصفيقًا ، ورددتها ألمانيا جميعها .

وهكذا بدأت ألمانيا تاريخًا جديدًا.



مدينة زيمان

منذ مائة سنة ، افتتح مهندس ألمانى شاب اسمه زيمان ، مصنعًا صغيرًا استخدم فيه عشرة من العمال .

وبعد ذلك التاريخ بقرن رغبنا ونحن فى برلين أن نتلمس العظمة الألمانية الصناعية التى عرفت عن هذا الشعب ، فكان لنا أن زرنا ضاحية برلين الصناعية التى حملت اسم ذلك المهندس الشاب ، الذى استحال مصنعه المتواضع إلى مدينة صناعية كاملة ، إلى أكبر معمل للكهرباء فى أوربا .

قضينا يومًا أو بعض يوم فى هذه المدينة الصناعية ، التى لم نحس خلال مصانعها وبيوتها وما إلى ذلك إلا بالسيارة التى خصصها أصحاب هذا المصنع لنا طيلة ذلك اليوم .

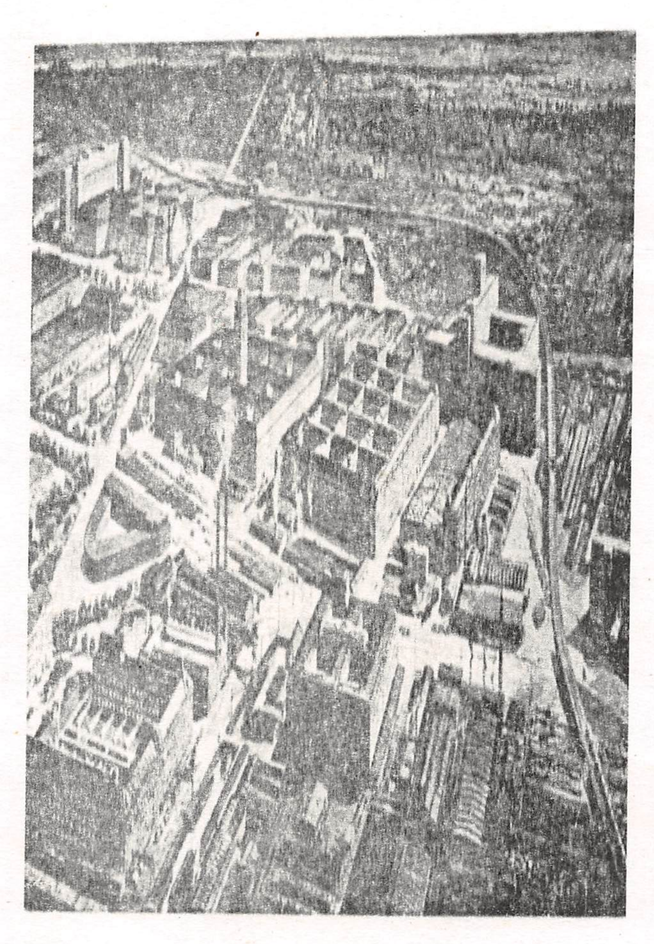
وهذه الأبنية الحديثة ذات الطباق والأدوار التى تميزت بها هذه المصانع ، والتى إذا أضيئت نوافذها فى الليل استحالت شبكة من النور تبص عليك بألف عين متوهجة ، كان أول ما يستقبلك منها نصب تذكارى حديث لصرعى الحرب من أبناء هذه المصانع ، قصة تتكرر فى كل مكان تزوره فى ألمانيا بل فى أوربا جمعاء .

ثم إذا ولجت إحدى قاعات الانتظار وقدمت بطاقتك ، ليس لك إلا أن تنتظر بعض الشيء حتى يعدوا لزيارتك العدة ، حتى ولو كنت ضيفاً مدعواً من أصحاب هذه المصانع .

وليس لك أن تتغابى فهم تلك النظرات الفاحصة التى ترسل إليك ، نظرات فيها مسحة الشك فى شخصك ، وأن تتجاهل ذلك الهمس الذى يدور بين مضيفك وبين رفيقك الألمانى بشأن هذه الزيارة ، وبنوع العمل الذى تؤديه ، والغرض من هذا والغاية من ذلك ، تشعر حينذاك بالروح الألمانية التى ترغب فى التستر على ما تقوم به فى عالم الصناعات ، والميل إلى إخفاء ما تعكف على اختراعه وابتكاره ، حتى إذا انضجت الفكرة أثاروا بها دهش العالم وإعجابه !

وليس فى هذه الطباق العالية وهذه القاعات وهذه العنابر وهذه الممرات التى توصل بين جوانب المصنع الرئيسى والتى تبلغ تسعة أميال طولاً ، ليس فى هذا كله ما يشوقنى ، فهذه اللآلات الهائلة والأجهزة المعقدة التى تصنع كل شىء ، تصنع القطارات الكهربائية الضخمة كما تصنع الإبرة الدقيقة ، هذه الآلات لا تثير فى مثلى إلا الغرابة والإعجاب ولكنها قلما تثير فى رغبة إلى التطلع إلى تعرف سرها .

وهذه المعامل تموّن العالم بأكثر ما يحتاج إليه من أجهزة وآلات وأدوات الكهرباء ، فهذه المصانع هى التى ربطت إنجلترا بالهند بأسلاك التلغراف ، وهى التى ربطت أوربا بأمريكا ، وهى التى صنعت أول

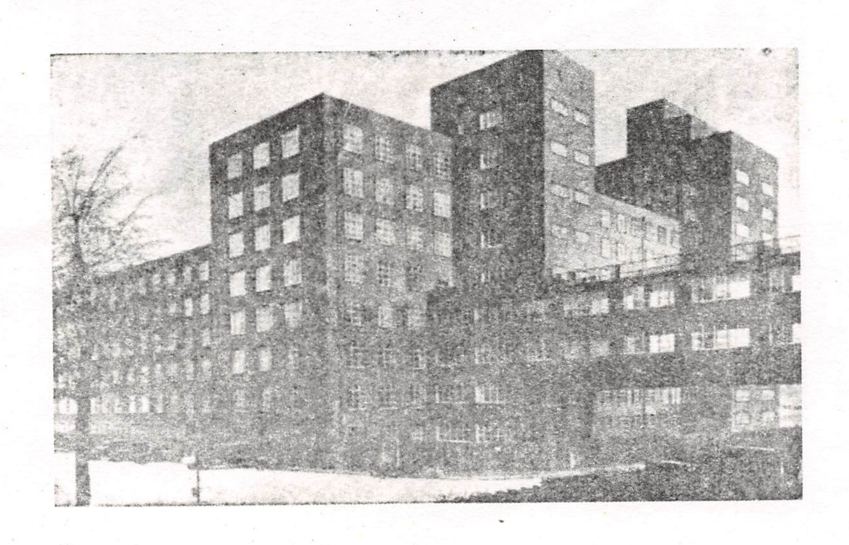


منظر عام لمدينة زيمان

مركبة للترام ، وهى التى تجهز أفخر الآلات الطبية الكهربائية وأكثرها دقة ، وغير هذا كثير .

ثم كان أن زرنا المطابخ التى تعد طعامًا كاملاً لنحو خمسة آلاف من الصناع ، وزرنا المطعم الذى تتناول فيه هذه الآلاف وجبة الظهر فى ساعة واحدة ، فهو لذلك أضخم مطعم فى أوربا على الإطلاق .

لقد مررنا على أكوام البطاطس فى طريقها للإعداد كأنها أكوام الحصى ، ومررنا على أكوام اللحوم من خراف وطيور وأسماك فكأننا فى مجزرة من المجازر ، حتى أننى خرجت من هذا المطبخ ونفسى قد عافت اللحوم ورؤية الدماء .

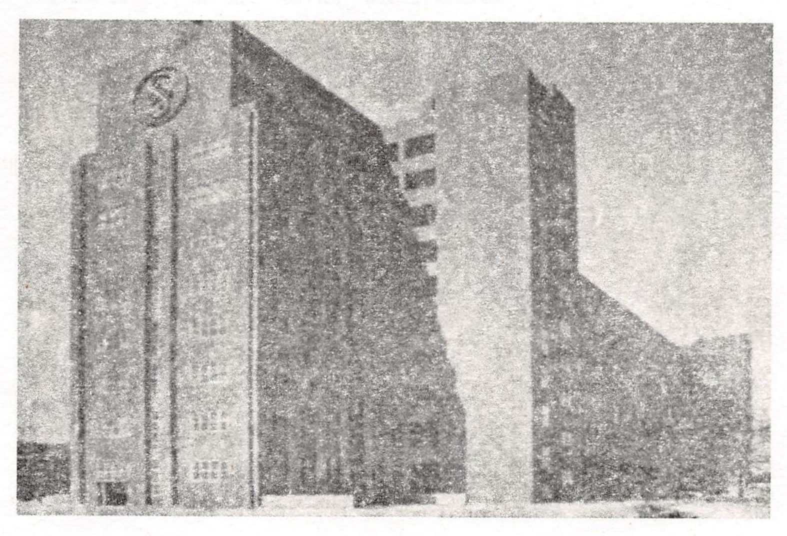




المؤلف فى روضة أطفال مدينة زيمان

وهذه المصانع لا شىء عندى بجانب المدينة نفسها ، المدينة التى بنيت للعاملين فى هذه المصانع ، التى تحتوى على ألف وستمائة منزل حديث ، لقد كانت هذه القرية أحدث ما رأيت وأبهج ما شاهدت مدينة كاملة أنشئت جميعها فى يوم واحد ، هى مثال للأناقة والذوق .

ولقد كانت فارغة حين زرناها إلا من النساء ، إذ إن الأطفال كانوا فى مدرستهم الخاصة فى قلب هذه القرية ، ثم أننا استأذنا وزرنا أحد هذه البيوت بدرجاته الخشبية المصقولة ، وبجدرانه المزخرفة الزاهية ،



معامل زيمان

وبأثاثه البسيط جد البساطة ، الأنيق جد الأناقة ، لقد كان المكان كأنما صنع من الخزف البديع اللامع .

وكما أن للأطفال روضتهم ، فللآباء ناديهم ومرقصهم ، ولهم مكتبتهم تحوى ثلاثة وثلاثين ألف كتاب ، ولهم ملاعبهم من أحواض للسباحة وقاعات للرياضة والمصارعة ، وأفنية للتنس ، وقاعة للاجتماع والتمثيل والسينما ، كل هذا يجده هؤلاء العاملون إذا ما انتهى اليوم خلف تلك الأبراج التى تدوى فى أركانها الآلات حتى تصم الأذن ، وتلمع فيها الشرارات الكهربائية التى أُعدت لخير الإنسانية ، كما أعدت للقضاء عليها ، إذا فقد الإنسان عطف الإنسان .



مراقص برلين



لقد أصبح الالدرادو ذكرى .

فقد أقفلت أبوابه وأسدلت ستائره إلى الأبد ، كما أغلقت أبواب كثير من المراقص الليلية الشاذة في برلين ، وها نحن نمر عليه وقد انقضت عليه سنتان وهو في وحدته ، وقد اغبرت نوافذه ، واحتلت الإعلانات مكان الصور الفنية التي كانت تعرض على جدرانه ؛ فكأن الجو الذي كان يفيض به ذلك المكان لم يعد يصلح إلا لمهمته الأولى ، ولم يعد يجرؤ ساكن على استئجاره أو استغلاله من جديد .

دخلنا الالدرادو وقد انتصف الليل ، كما زرنا النكتنبول في باريس بعد هذه الساعة المتأخرة ، وفي مثل هذه الساعة تدب الحياة في مثل هذا المرقص المجهول ، وأخذت السيارات تقف أمام المرقص ، ويفتح أبوابها الحراس المتمرنون من ذوي الملابس الرسمية والقفازات البيضاء

ثم دفعنا أجر الدخول كأننا في مسرح لا في مقهى راقص كما جرى العرف في مثل هذه الأمكنة ، وكان المكان حافلاً بزواره حتى لم تعد منضدة خالية ، وازدحم المرقص حتى لم يعد هنالك مكان لراقص جديد .

وكنا ليلئذ أربعًا من المصريين ما بين زائر ومستوطن ، تطفح على وجوهنا السمرة الشرقية فكانت كفيلة لنا بزيادة الترحيب ، وبتقديم منضدة شبه خالية حول حلقة الرقص وفى صدر المكان .

والألدرادو ككل مرقص ، له فرقته الموسيقية ومغنياته اللاتى يذكين من حين لحين حماس الرقص بأغانيهن ، وفتياته اللاتى يحتفين بالضيوف الوحيدين أو الغرباء .

والأمريكيون ضيوف يرغب فيهم فى مثل هذه المراقص ، ينثرون الدولارات الورقية دون تدقيق أو حساب ، وإنى لأذكر ذلك الأمريكى الذى كان جارنا تلك الليلة بوجهه العريض ونظاراته ذات الإطار الأسود وشعره الذى خطه الشيب ، وعصاته المعلقة على ظهر مقعده، وأذكر كذلك رفيقته الحسناء !

فتاة لا شك أنها كانت تشعر بامتيازها وجمالها ، كانت صورة من صور الأنوثة رقةً ودلالاً ، بنظارتها الفردية « المونوكل » التى ألبستها مسحة من الأرستقراطية النسوية .

كانت تتدلل على صاحبها ككل فتاة فخورة بنفسها ، وكان يلح ويلح قبل أن تسمح فترشف رشفة من الكأس الذى يملؤه من حين لحين ، وكانت إذا قبلت سيجارة من علبته الذهبية الفاخرة ، كانت تمسكها بأطراف أصابعها ذات الأظافر المدهونة اللامعة ، وإذا وضعتها بين شفتيها دعتها تتدلى إلى أسفل بشىء كثير من الإهمال المستملح من الفتيات .

ثم بدأت الفتيات الراقصات تعرض ضروب الرقص الكلاسيكى حيناً والرقص الخليع المبتذل حيناً آخر .

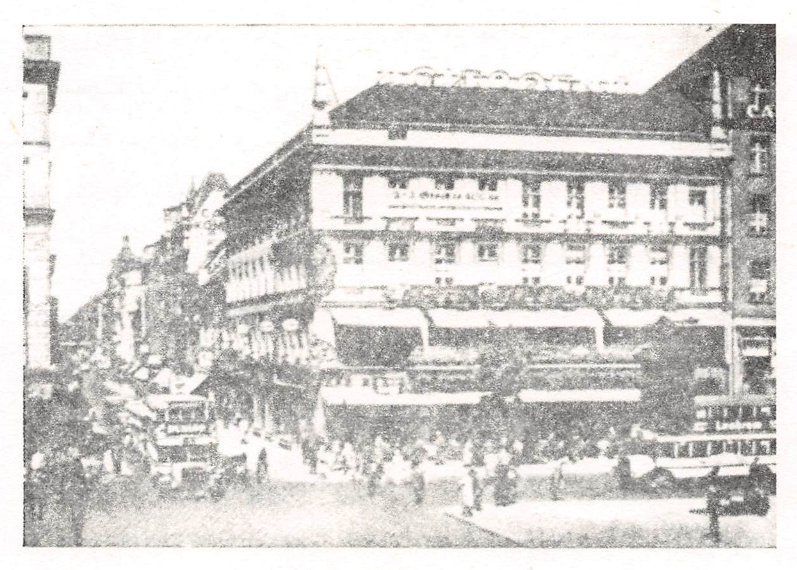
ثم دوى المكان بالتصفيق حين بدأت الراقصة الأولى التى كانت صورها معلقة على كل جدار وفى كل وضع ، يعرفها أهل برلين كما تعرفها باريس ونيويورك ، فقد شقت الشهرة طريقًا لها حتى العالم الجديد .

سيدة فى العقد الرابع أو الخامس على الأقل ، ليست فتاة غريرة ، بل هى امرأة تخطت دور الشباب على الرغم من المساحيق السميكة والأصباغ التى غطت بها وجهها ، ولعل فنها هو الذى أثار هذه العاصفة من التصفيق ، أو لعل شهرتها هى التى جعلت الأعناق تشرئب إلى مكانها والأنظار تحملق إليها وإلى ملابسها الحريرية الفاخرة .

لقد ذكرت ساعتئذ الراقصة الباريسية العجوز مستنجيت حين رأيتها فى « الفولى برجير » فى باريس وكيف استقبلها الباريسيون بهتاف صارخ حين بدت على المسرح وقد التفت بالفراء الفاخر وارتدت ثوبًا حريريًا حمل أذياله جمع من الفتيات الجميلات .

هكذا استقبلت هذه المغنية التى ما لبثت أن كهربت جو المرقص بأناشيدها وأغانيها حتى إذا ما انتهت وأثارت عاصفة أخرى من التصفيق والإعجاب أخذت ترسل بقبلاتها فى الهواء إلى هؤلاء المعجبين وأخذت تدور حول الجالسين وتحنى لهم رأسها شكرًا واعترافًا بالجميل

ثم إذا بها تبصر بى وقد تصدرت مجلس الرفاق المصريين و كنت أحدثهم سناً، فما أن وقع نظرها علىّ حتى انكمشت وجمدت فى مكانى لغير ما سبب ، ولعل هذا الحذر أثار فيها ميلاً إلى النكاية ، أو لعلها أرادت أن تثير عاصفة أخرى من الإعجاب بها على حسابى فأقبلت إلى ناحيتى فلم ترضَ إلا أن تقبل رأسى ، وبلغ هتاف الجالسين الشمالى مبلغ العاصفة شدة . . .



فى فريدريش اشتراسا

ثم أخرجت منديلى ومسحت الدهان الأحمر الذى التصق بجبهتى ، وأخذ الجالسون الأمريكيون يهنئوننى ويصفقون لى .

يالها كانت من مهزلة .

* * *

ثم خرجنا إلى الهواء البارد المنعش ، ولم ينفك أصحابنا تعليقًا على مشاهد الالدرادو وسرت مطرقًا وأنا أفكر فى هذا الأمريكى السخى ورفيقته ذات المونوكل وذلك الجمع من الفتيات اللاتى كن يجاملن الجالسين بالرقص معهم . ثم تلك الراقصة العجوز وذلك المنديل الملطخ الذى حملته معى إلى مصر .

تذكرت كل ذلك ، وتذكرت أن جميع هؤلاء الفتيات من رائدات الالدرادو من الفتيان ! نعم من الفتيان وممن تخطوا دور الشباب !

ولكن الالدرادو قد أصبح اليوم ذكرى !

وبعيدًا عن هذا المكان ، حيث ميدان ألكسندر تسير فى طرقات منقطعة ، طرقات حجرية قاسية لكى تقضى ليلة جامحة فى مرقص « الريزى » .

ومرقص الريزى من مراقص برلين الفاتنة وهو بانزوائه فى هذا الركن الهادئ المغمور من العاصمة ، وبتاريخه القديم ، وبتفرده وإعداده حرىّ بزيارة من ضيوف برلين .

كأن المرقص خميلة من خمائل العنب قد تدلت أغصانها وثقلت عناقيدها ، وزينت جدران المكان وسقوفه بآلاف من قطع المرايا والزجاج والنجف ، والذى إذا سطعت عليها الأنوار انعكس بريقها وتوهج ، وأصبح فتنة من الفتن .

وركبت ثرياه من قطع المرايا الدقيقة وثبتت على أطرفها نوافير رقيقة ضاربة بالماء تدور جميعها ولا تصمت ، فترى منظراً بهيجاً ساراً .

وهذه النوافير سر من أسرار هذا المكان ، أو قل إن تذليلها صار اختصاصاً من اختصاصه ، ففى الشرفة التى تطل على جانب من المرقص جهزت مئات من هذه النوافير التى تسكب ماءها مغموراً فى الأشعة الملونة المنعكسة عليها ، ثم تعزف الموسيقى فترتفع وتنخفض وتفيض صفوفها وتشح ، وكأنها خبطات السيقان على أرض المرقص الخشبية .

ولا يكاد يستقر بك المكان حتى يرن جهاز التلفون الذى أمامك ، إذ على كل مائدة فى هذا المرقص جهاز خاص من أجهزة التليفون ، فتنظر إليه مدهوشاً فاغر الفم ، إذ مَن الذى يعرفك فى هذا المكان حتى يدعوك للحديث ؟ ولا ينفك التليفون يرن ولا تنفك أنت حيرة حتى لا تجد بُداً من أن تقدم يدك إليه وتنصت إلى الصوت النسوى الذى يحدثك ، فتعرف أن صاحبة الصوت جالسة على المائدة الثانية والأربعين مثلاً ، وأنها

تكون سعيدة لتراقصك أو تجالسك إلى آخر ما هنالك من أحاديث فى مثل هذه المجالس .

وما تكاد ترجع يدك إلى مكانها معتذرًا خوفًا من الدخول فيما لا يعنيك ، حتى يرن التليفون من جديد وهكذا تسمع دعوة جديدة من جيرانك فى المائدة القريبة وحديثًا شبيهًا بما سمعت، وهكذا حتى تمل يدك رفع الجهاز وتمل أنت الاعتذار إذا ما كنت ممن لا يستريحون إلى الدخول فى مثل هذا الحديث فى مثل هذه المراقص الليلية .

ثم لا تلبث حتى تسمع حركة فى الصندوق الخشبى الذى يواجهك ، وسرعان ما ترى علبة صغيرة تهوى إليك وقد كتب عليها رقم المائدة التى تجلس حولها .

ثم ترى يديك تفض الغلاف الملصق ثم تفتح العلبة لترى خطابًا مكتوبًا إليك ؛ وقد وصفت فيه وصفًا خوفًا من الالتباس بين الجالسين معك حول المائدة .

وقد ترغب فى كتابة رد الدعوة المكتوبة ، فتخرج ورقة مما أمامك وتدون عليها عنوان المائدة وتضع فى علبة من العلب الفارغة رسالتك وتلقى بها فى الجهاز القريب فإذا بها بعد قليل هاوية على المائدة التى أرسلت إليها .

وهكذا تجد فى الريزى إدارة للبريد كما تجد إدارة للتلفون وتصل ما انفصل ، وتفصل ما اتصل .



جزيرة المتاحف

كيف ومتى أنشئت هذه المتاحف ، وكم أنفق فى سبيلها من ملايين الجنيهات ، وكم أنفق من الزمن فى تكوينها ؛ وكيف جمعت ما فيها من تحف من القطب إلى القطب ؟

كل هذه الأسئلة تعرض لك إذا ما استعرضت جدولاً شاملاً لأسماء متاحف برلين ومعارضها ، فى كتاب من كتب الأدلة !

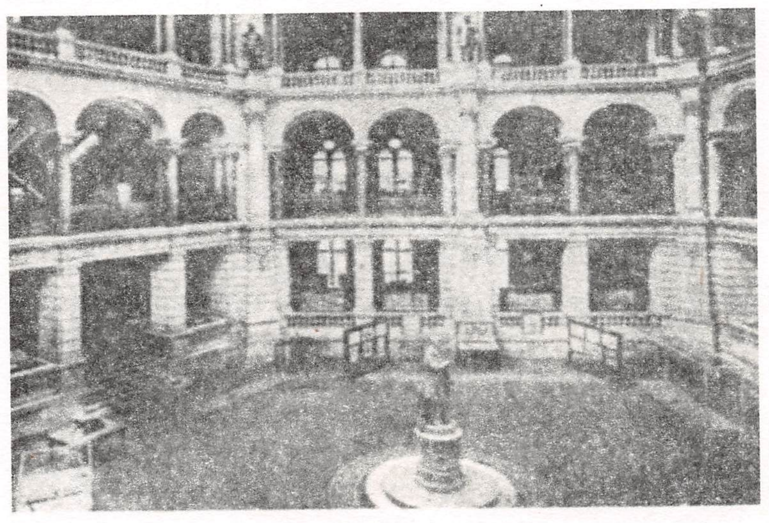
والعقل الألمانى أكثر ما يكون إنتاجًا فى هذه الناحية ، والقدرة على البحث والاستقصاء والتنسيق أبرز الصفات التى عرفت عن الشعب الألمانى ، هو أينما حل سرعان ما تراه يحلل ويفاضل وينسق ، فلو أراد ألمانى أن يكتب فصلاً عن مقاهى القاهرة لقسمها فى الحال إلى فصائل وفئات كأنما يقسم أنواع المعادن ، إذ إن التقسيم العلمى أساس لتفكيره اليومى العادى .

وفى متاحف برلين تشاهد هذه القدرة بالغة كما لها ، تشاهد آثار الجلد والمثابرة والدقة ، ثم تشاهد آثار هذه الرغبة الملحة فى نفس كل ألمانى، الرغبة إلى السياحة والتجول فى نواحى الأرض المجهولة النائية .

وفى متحف « علم الإنسان وحياة الشعوب » تتمثل هذه العقلية

الألمانيـة أبلغ تمثيل ، تشـاهد مـجـهـودات مـئـات من العلمـاء والرحـالة والسـائحين الذين نزحـوا إلى كل ركن من أركـان الأرض إلى جـزائر المحـيط الجنوبى الوحـيـدة ، إلى ثلوج القطب ، إلى قلب الصـين ، إلى صميم إفريقية المجهولة لجمع كل ما تصل إليه أيديهم ، مما يمثل حياة أهلها وطرق معايشهم .

وليس هناك من متحف يجد فيه كل زائر شيئًا من المتعة مثل هذا المتحف ، فها كل الحيوانات الهائلة المنقرضة من معروضات هذا المتحف ذى الشهرة العالمية ، ثم إذا اعتليت الدرجات إلى الطابق العلوى إذا بك تنتقل بين قـارات العـالم وبين شعوبه الفطرية النائيـة ، إذا بك تعيش فى



متحف البريد

أستراليا ونيوزلندا وجزائر فيجى وجاوة تعيش بين أهلها وسكانها ، ثم تترك هذا الجناح لتطوف فى الجناح الصينى واليابانى وقد ازدحم بكل ما يمثل الحياة فى أركانها البعيدة ، حتى حياة المعابد .

وإنك لتعجب حين تشاهد تماثيل بوذا وغيره من آلهة الشرق الأقصى ، وتلك الأجراس الضخمة التى تتوج هذه المعابد ، وإنك لتفكر كيف تسنى لأصحاب هذه التحف أن يسطو على هذه المخلفات الدينية، يحملوها آلاف الأميال إلى برلين وما هى بالشىء الذى يشترى وما هى بالشىء الذى يغتصب فى غفلة عن أهله .

ثم تنتقل إلى إفريقية لتعيش ردهة مع أهل الكنغو والنيجر والحبشة وزنجبار تشاهد هذه الشعوب فى لهوها وجدها ، فى عبادتها وفى أفراحها ممثلة فى مئات من النماذج الحقيقية والمناظر المجسمة والتماثيل التى ولا شك استنفدت صبر أولئك العلماء الذين نقلوها كما كانت فى موطنها الأصلى إلى حيث هى الآن .

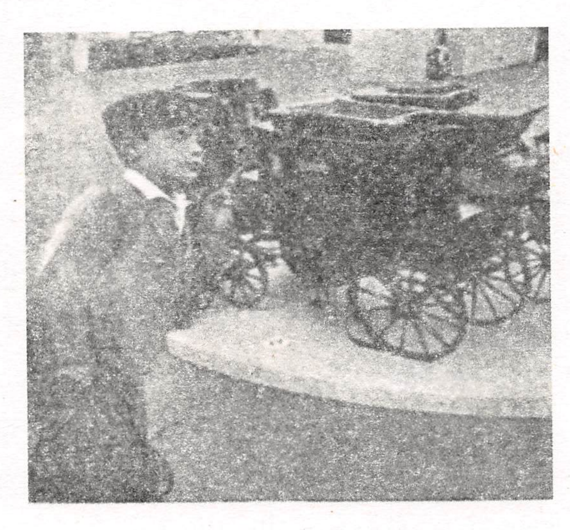
وهكذا تنتقل من قارة إلى قارة ومن شعب إلى شعب وكأنك تقرأ قصة رحالة ممتعة كتبها بأسلوب رائع يثير الخيال ويبعث على التصور المرن .

* * *

وعلى مدى خطوات من هذا المتحف تمر كريماً بمتحف قبل التاريخ ، زرته مرة مع صديق من الأطباء اقترحت عليه زيارته فكان لى

درسًا قاسيًا ، إذ لم نجد هذا المتحف ما يثير عناية لزائر لا يبحث إلا على ما يقتل به فراغًا لا يعرف كيف يقضيه . وهذا المتحف قد يلذ لباحث أو دارس معين ، بيد أننى لا أظن أن أحدًا يجد متعة فى استعراض آلاف من قطع الصوان المسنونة أو بقايا الخزف المحطمة أو حبات الخرز أو صفائح النحاس التى أكلها الصدأ .

إن خلو هذا المتحف مما يمت إلى حياة الإنسان فى أية صورة من صورها قد جعله ميتًا مجردًا من الحياة ، وما تثيره الحياة من متعة ولذة .



أمام معروضات البريد

وبين دواوين الحكومة ووزاراتها هنالك فى ليبرجر اشتراسا تقضى ساعة فى متحف البريد ، تستقبلك عربات البريد القديمة ونماذج من وسائل النقل المختلفة ، وإذا سرت إلى اليمين قادتك هذه إلى مخلفات الحرب الأخيرة .

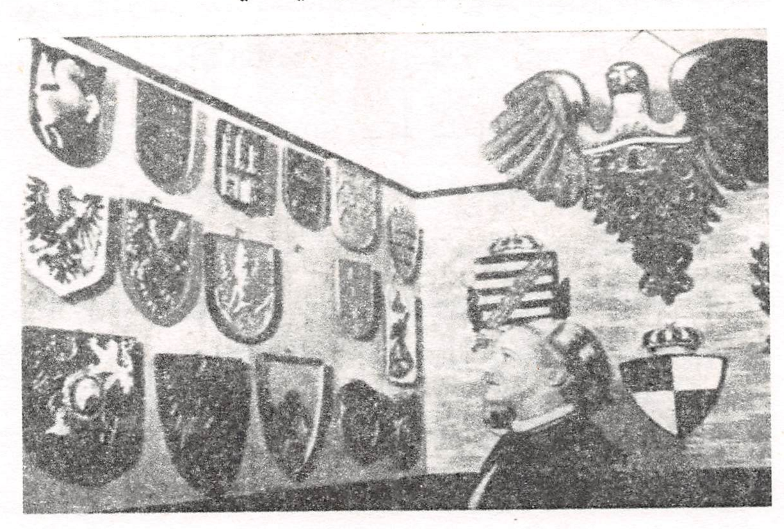
وقصة الحرب لها صورة فى كل مكان ، فهذه المجموعة من المخلفات الحربية الخاصة بالبريد إبان الحرب العظمى أمتع جميع هذه المعروضات ، فأنت ترى صناديق البريد التى كانت فى خطوط القتال ، والتى كانت تربط المحاربين بزوجاتهم وبأهليهم ، وهناك ترى موزع البريد الحربى وهو يحمل الهدايا والتحف من أولئك الزوجات والأمهات إلى القابعين فى أوحال الخنادق وها تراه يبحث عن اسم معين فلا يجد إلا صليباً من الخشب يدل على مكانه !

ثم تدخل قاعة الطوابع البريدية ، آلاف من هذه القصاصات الصغيرة الملونة ، التى لا أعرف كيف أصبح جمعها فناً ، والتى لا أعرف أى لذة تثيرها عند أصحاب هذه الهواية فى دفع مئات الجنيهات فى سبيل طابع من هذه الطوابع الباهتة المبصومة !

ثم تنتقل إلى الطابق العلوى بدرجات أنيقة وجدران مذهبة تحدث عن أناقة القصر الذى يحتله متحف البريد، وفى هذا الطابق تستعرض عشرات النماذج التى تمثل وسائل نقل البريد فى العالم ، من العربات التى تجرها الأبقار فى الهند إلى حجرة البريد فى منطاد زبلن ! ثم

تستعرض نماذج من علامات البريد وأختامه وملابس عماله فى العالم ولا شك أنك واجد بين هذه المعروضات مجالاً لملاحظة طريفة أو فكاهة مستملحة .

وفى الطابق العلوى تستعرض أجهزة التليفون والتلغراف ، متدرجة عامًا بعد عام ، حتى تصل إلى أجهزة الراديو الحديثة والتليفزيون فإذا بك قد بلغت القمة التى وصل إليها العلم فى سبيل ربط أركان الأرض ، حينئذ لا تجد بُدًا من النكوص بقدميك من حيث أتيت .



فى المتحف البحرى

وإذا درت خلف الجامعة إلى جورجن اشتراسا تجد طريقك إلى المتحف البحرى ، وعلم المحيطات ، ولا شك أنك تصادف فى هذا المتحف شيئًا جديرًا بالفرجة والمشاهدة ، وإن لم يكن فى نماذج السفن التى تمثل تاريخ صناعتها وتقديمها ، ففى ذلك الجناح الذى خُصص للتاريخ الحربى البحرى حيث مثلت الوقائع الحربية الشهيرة بنماذج بارزة ، أصبحت مجالاً لنقاش الصبيان الذين قرأوا أخبارها فراحوا يوزعون مواقف هذه الأساطيل من جديد علهم يغيرون من نتائج هذه المواقع التى سجلها التاريخ .

ومتى ذكرت البحرية والحروب فلا شك أنك ذاكر قصة الطراد امدن الذى أصبحت ذكراه الآن أشبه بالخرافة منها بالحقيقة الراهنة ، ذلك الطراد الألمانى الذى نشبت الحرب وهو فى مياه الشرق الأقصى فراح يطارد أعداءه ويطاردونه ، ويهاجم ويهرب حتى لحقه قضاؤه المؤكد ، كأنه كان أحد أولئك الفرسان القدماء الذين كانوا يسرحون فى أوربا بخيولهم يبحثون عن سيدة لإنقاذها من محب غير مرغوب فيه !

وهكذا ترى فى هذا المتحف بقايا هذا الطراد وصورًا ونماذج من مخلفاته . كما تجد مخلفات غيره من سفن الحرب التى ما زالت فى قاع المحيط إلى اليوم ، كما تجد نماذج لأساطيل العالم ومقارنة بين أحجامها وطبقاتها .

وفى الطابق العلوى تجد الجناح الخاص بمعروضات المحيطات ، جناحًا بهيجًا أنيقًا ، تستعرض بين أركانه نماذج بارزة من الحياة فى جوف البحار والمحيطات مما شاهده الرحالة فى القطب الشمالى والجنوبى ، وتشاهد أنواع العدد والأجهزة الخاصة بمثل هذه الرحلات ثم الكتب العلمية الخاصة بذلك ، ولعلهم بذلك يريدون إثارة الرغبة للكشف والارتياد فى نفوس الزائرين .

* * *

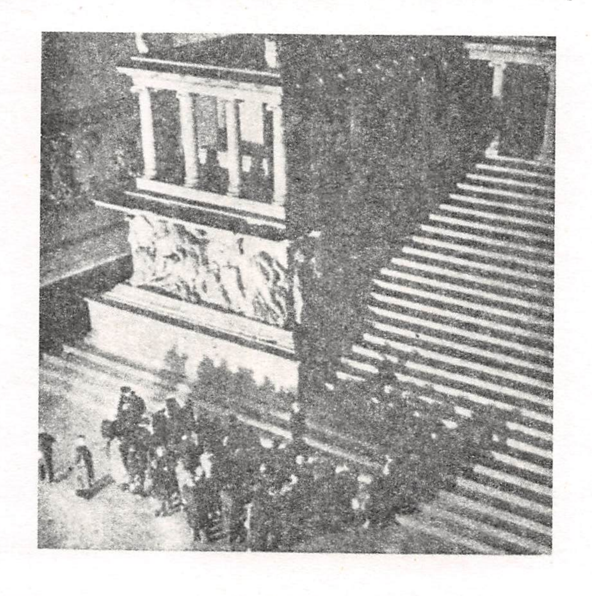
ثم إلى جزيرة المتاحف .

لا أعرف مكانًا تجمعت فيه المتاحف وازدحمت فيه المعارض كما تجمعت فى هذه الجزيرة الصغيرة على الاسبرى وازدحمت فيها، لهذا ليس عجيباً إن دعيت هذه الجزيرة جزيرة المتاحف .

تترك قلعة برلين وكتدرائية برلين ، وتخترق حديقة النزهة (اللوست جارتن) لتدخل مستعمرة من المتاحف الواحد منها خلف الآخر ، والآخر منها يجاوره غيره .

وليس لك أن تقضى أسبوعًا كاملاً بين هذه المتاحف إذا أردت أن تعرف ما تحويه جدرانها ، إما أن تجوس خلالها متحفًا متحفًا لا تتريث ولا تتئد فعمل مجهد شاق ، أقل ما يكون نصيبك منه أن تكره التجوال فى المتاحف ، كما يكره المريض اللبن بعد شفائه !

ويكفى أن نأتى على أسماء هذه المتاحف لتعرف ما أنت قائم عليه



فى متحف البرجامنون

فإذا كنت ممن يعنون بتاريخ الحضارة فدونك المتحف الجديد ، وإذا كنت ممن يبحث عن الآثار المصرية القديمة فعليك بالمتحف القديم ، أما إذا كنت من هواة التصوير فدونك « الناسونال جالارى » أما الآثار الإسلامية والشرقية ففى متحف القيصر فريدريش ، أما إذا كنت من المعجبين بالحضارة الإغريقية فلديك متحف البرجامنون ، أما المتحف الألمانى فللحضارة والتاريخ الألمانى وحده .

إنك لتعتريك الدهشة وأنت تقرأ أسماء هذا العدد من المتاحف الذى يحتوى كل منها على طباق ثلاثة أو أربعة ، ويحتوى على عشرات الردهات والقاعات والغرف التى صُفت فيها هذه التحف صفًا .

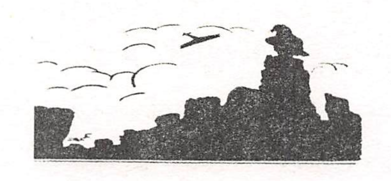
يستقبلك المتحف الجديد بأعمدته الإغريقية ودرجاته الواسعة ، وشرفاته المطلة على حديقة النزهة ، وقد حفلت بحوضين هائلين من الجرانيت من آثار الحمامات الرومانية وفى الطابق الأعلى من هذا المتحف تستعرض كنوزًا من الحُلى الذهبية والأحجار الكريمة وتحف الزجاج وغيرها تمثل عصور الحضارة .

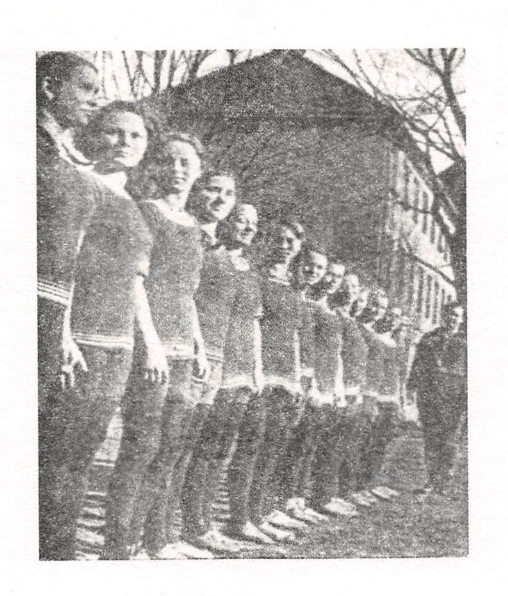
ومن هذا الطابق تمرق إلى الطابق العلوى من المتحف القديم ، وتخترق الكتابة قاعات عرضت فيها أوراق البردى متدرجة فى تاريخها تمثل تطور الكتابة المصرية إلى عهودها الجديدة ، ومن ثم تهبط إلى المتحف المصرى وتقف هنيهة أمام رأس نفرتيتى وقد وضعت فى صندوق زجاجى معد بجهاز كهربائى لحمايته من يد العابثين .

وفى متحف القيصر فريدريش تزور المتحف الإسلامى وقد عرضت فيه مجموعة ممتازة من السجاجيد والأبواب الخشبية والشرفات التى تمثل فن النجارة الإسلامية ، كما تشاهد جداراً كاملاً من قصر فى صحراء فلسطين نقل كما كان فى قاعة رحبة فسيحة .

وأنك لتعجب حين تزور متحف بابل وآشور وقد نقلت إليه معابد آشورية كاملة بجدرانها وأبراجها فى داخلى هذا المتحف مما يدخل على الزائر روعة وجلالاً .

وفى متحف البرجامنون ترى مشهداً رائعًا قوى معبد البرجامنون بأكمله بدرجاته العظيمة بأبراجه وتماثيله ، وقد نقل إلى هذا المكان حجراً حجراً وقطعه قطعة ، فيمثل لك هذه القدرة التى تتميز بها الإرادة الألمانية ، والتى تتمثل أبلغ تمثيل فى جزيرة المتاحف وفى متحف البرجامنون على وجه أخص .









برلين ..

المراجعة اللغوية : هبة الله المخلص
المشرف الفنى : هشـــام نـوار